المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة طيبة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

مستويات التشكيل اللوني في الشعر الجاهلي

(دراسة فنية)

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في تخصص الأدب القديم

مقدمة من الطالبة
سمية بنت عبد الرحيم بن محمد الحافظ العِلْمِي

إشراف الأستاذ الدكتور
محمد بن حسين بن عبد الحليم حماد
أستاذ الأدب القديم بكلية التربية للبنات بجامعة أم القرى سابقا
(مشرف أساسي)

والدكتورة أسماء أبو بكر أحمد
أستاذ الأدب الحديث والنقد المشارك بجامعة طيبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
(مشرف مساعد)

(١٤٣٠ هـ-٢٠٠٩ م)

بسم الله الرحمن الرحيم

شكـــر وتقـــديـــر

أتوجه بخالص شكري وتقديري لكل من ساعدني على كتابة هذا البحث ، وأخص بالذكر مشرفي سعادة الأستاذ الدكتور محمد حسين حماد،على جهوده المشكورة ، فكان أبا موجها وناصحاً، فجزاه الله عني خير الجزاء.

كما أشكر سعادة الدكتورة أسماء أبو بكر أحمد على توجيهاتها السديدة ونصائحها القيمة،فقد منحتني من وقتها الكثير ،ليرى هذا البحث النور ويقدم على الصورة اللائقة فجزاها الله عني خير الجزاء.

والشكر موصول للدكتور محمد المباركي الأستاذ المشارك بالجامعة الإسلامية والدكتور عبده إبراهيم الأستاذ المشارك بجامعة طيبة ،لتفضلهما بقراءة البحث وتقويمه وإسداء النصح والتوجيه لمعالجة نقصه ، فجزاهما الله عني خير الجزاء .

كما أتوجه بخالص شكري وتقديري إلى والدتي الحبيبة التي هيئت لي الجو المناسب،لأكمل مسيرتي في الحصول على درجة الماجستير، أطال الله في عمرها وحفظها من كل سوء.

ويعجز قلمي عن شكر والدي العزيز الذي غرس فيّ حب العلم، ومافتئ يدفعني ويرفع همتي ، لأنجز هذا البحث، أطال الله في عمره ومتعة بالصحة والعافية.

ولزوجي العزيز خالص شكري وامتناني حيث وقف بجانبي ،وشجعني لإكمال مسيرتي في طلب العلم فلع مني خالص الشكر والتقدير.

وصلى الله على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المحتويات

مقدمة.....٢

مدخل.....١١

مفهوم التشكيل اللوني.....١٢

الشعر الجاهلي وخصوصية التشكيل اللوني.....١٤

الفصل الأول: مستوى التشكيل التجريدي.....١٦

المبحث الأول :التجريدية والتشكيل اللوني الجزئي.....١٧

الدوال اللونية الحيادية.....١٨

الدوال اللونية الترادفية.....٣٠

الدوال اللونية المتباينة.....٤٣

المبحث الثاني:التجريدية والتشكيل اللوني المركزي.....٥٩

الفصل الثاني:مستوى التشكيل الصوري.....٦٣

المبحث الأول:الصورة اللونية الجزئية.....٦٤

التشبيه.....٦٦

الاستعارة.....٧٧

الكناية.....٨٦

المبحث الثاني:المشاهد اللونية الكلية.....٩٥

المبحث الثالث:مقومات الصورة اللونية.....١٠١

الذاكرة.....١٠٢

الحواس.....١٠٤
الخيال.....١١٠

الفصل الثالث:مستوى التشكيل الرمزي.....١١٨
المبحث الأول:اللون ورؤية الطبيعة.....١١٩
المبحث الثاني:اللون ورؤية الحيوان.....١٥١
المبحث الثالث:اللون ورؤية الإنسان.....١٨٢

الفصل الرابع:مستوى التشكيل الإيقاعي.....١٩١
الموسيقى الخارجية.....١٩٢
الموسيقى الداخلية ٢٠١
الخاتمة.....٢٠٩
الملخص.....٢١١
المراجع.....٢١٦
Abstract.....٢٢٨

مستخلص

- عنوان الرسالة : مستويات التشكيل اللوني في الشعر الجاهلي (دراسة فنية)

- اسم الباحثة : سمية بنت عبد الرحيم محمد الحافظ العلمي .

- أهداف البحث :
١- تناول الشعر الجاهلي القديم من خلال رؤية نقدية حديثة .
٢- إبراز الأنماط التجريدية والرمزية اللونية (التي تتشكل من خلالها القصيدة الجاهلية)
٣- التعرُّف على مستويات التشكيل الفني للون في الشعر الجاهلي .
٤- الوقوف على الأبعاد الفكرية والدلالية للتشكيل اللوني في الشعر الجاهلي .

- حدود البحث : الشعر الجاهلي .

- منهج البحث : المنهج التكاملي الذي يفيد من عدة مناهج ،كالمنهج الفني والنفسي والتاريخي والجمالي وما تتطلبه الدراسة من مناهج أخرى كالمنهج الإحصائي .

- نتائج البحث :
١- يتشكَّل اللون في القصيدة الجاهلية على عدَّة مستويات : تجريدي ، وصوري ، ورمزي ، وإيقاعي .
٢- وظَّف الشاعر الجاهلي اللون ضمن إطار الصورة التشبيهية ، والاستعاريو والكنائية .
٣- في التشكيل اللوني المركزي ، يحْتلُّ اللون مجمل الإدراك الحسي عند الشاعر فيمثِّل مركزاً تشعُّ منه الدلالة داخل النص الأدبي .
٤- دلالة اللون من صورة إلى أخرى تبعاً لموقعه في السياق.
٥- يكشف التقابل بين الألوان عن الثنائيات المتضادَّة التي تعيشها الذات الشاعرة ، مثل التقابل بين الأمن / الخوف ، الوجود / العدم .

- التوصيات :
١- دراسة المستوى الدلالي للون ضمن إطار الدلالة الإجتماعية .
٢- دراسة اللون حسب بيئات الشعر الجاهلي ، فشعر البيئة الجبلية يختلف عن شعر البيئة السهْلية وعن شعر البيئة الساحلية ، وشعر الحاضرة يخْتلِف عن شعر البادية .

مـقـدمــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد عليه أشرف صلاة وأتم تسليم ، أما بعد :

تمثل الألوان عناصر كونية تعددية تحيط بالشاعر الجاهلي يتماس معها في جميع مفردات حياته اليومية ، وقد أثرت في وجدانه وأفاد من هذا التشكيلات اللونية ، فوظفها في قصيدته ، بحيث تمثل الألوان مستوى من مستويات التشكيل الفني في الشعر الجاهلي ، مما جعلها تهيئ للمتلقي مجالاً لاستبطان جماليات القصيدة الجاهلية .

وقد أجاد الشاعر الجاهلي توظيف الألوان وتوزيعها على خريطة القصيدة من خلال الحس الجمالي ، فمثلت القصيدة لوحة فنية تشكيلية تؤدي فيها الألوان أدوارا فكرية ودلالية ،كما أن اللون يلعب دورا بارزا في تشكيل الصورة الفنية التي تتفجر طاقاتها عن طريق الأبعاد الإيحائية الكامنة فيه.

كما يضفي الشاعر خياله وأحاسيسه على الألوان، فتنحو إلى الحضور المجسد في أجواء النص الشعري، وبذا يتجرد اللون من بعده المباشر، ويصبح أسيرا لعمل الخيال، من أجل توليد صورة لونية تتميز بالعذوبة والبكارة، وبذا تتحول الألوان من بعدها المباشر لتحلق في عالم الرمز.

وللألوان دورها التأثيري والانفعالي الذي تحدثه في الذات الإنسانية ، وما تحركه من مشاعر وأحاسيس تستنطقها الصورة اللونية عبر عملية التلقي ، ومن ثم تشير إلى الألوان إلى أبعاد وجدانية ونفسية ، من خلالها يستبطن الشاعر عوالم النفس ، وبالتالي يتنوع توظيف الألوان في القصيدة الجاهلية ما بين المستويات التشكيلية

التجريدية والمستويات التشكيلية الرمزية والدلالية .

أهمية البحث :

تبرز أهمية البحث في :

١-تناول الشعر القديم من خلال رؤية نقدية حديثة.

٢-إبراز الأنماط التجريدية والرمزية اللونية التي تتشكل من خلالها القصيدة الجاهلية.

٣-التعرف على مستويات التشكيل الفني للون في الشعر الجاهلي .

٤-الوقوف على الأبعاد الفكرية والدلالية للتشكيل اللوني في الشعر الجاهلي .

٥-عدم توفر أي دراسة أكاديمية سابقة تتناول اللون من خلال تعدد مستوياته التشكيلية في حدود علم الباحثة .

أسباب اختيار الموضوع:

١- يعد الشعر الجاهلي من أبرز الأشعار التي تشكلت عبر توظيف المستويات اللونية .

٢- يكتسب اللون في الشعر الجاهلي مستويات تعددية تجمع بين المباشرة والرمز.

٣- تشير التشكيلات اللونية في الشعر الجاهلي إلى التعبير عن الذات الإنسانية .

٤- ترمز الألوان إلى أبعاد التكوينات البيئية التي تشكل حياة الشاعر الجاهلي .

٥- تمثل التشكيلات اللونية مكوناً من مكونات التجربة الفنية في الشعر الجاهلي .

تساؤلات الدراسة :

تسعى الدراسة إلى الإجابة عن التساؤلات التالية :

- ما القيمة الإيحائية والدلالية التي يمثلها التشكيل اللوني في الشعر الجاهلي ؟
- ما الأنماط البنائية التي تتشكل الألوان من خلالها ؟
- ما مدى التفاعل بين الألوان وبين المكونات الفنية في الشعر الجاهلي ؟
- ما الأبعاد الوجدانية والنفسية التي تلعبها الألوان من خلال عملية التلقي ؟

الدراسات السابقة :

في حدود اطلاع الباحثة فإنها لم تجد دراسة أدبية تتناول موضوع (مستويات التشكيل اللوني في الشعر الجاهلي) ولكن وجدت بعض الدراسات والمقالات التي تتعلق بهذا الموضوع وهي :

١- مقالة كمال الحريري بعنوان اللوان والصور في شعر ابن الرومي ، مجلة الرسالة [١]، ذكر المؤلف في هذه المقالة أبياتاً لابن الرومي ، مشيراً إلى اعتماد الشاعر على إشراك أكثر من حاسة عند تقديمه للصورة ، مستقصياً المعنى عن طريق الإستعارة والكناية ، معتمداً في خياله على دقة رسمه للصورة الشعرية.

٢- دراسة أحمد مختار عمر في كتابه اللغة واللون[٢] ، وقد درس الألوان من الناحية الجمالية وتأثيرها النفسي ومن الناحية الفيزيائية للون ، ثم ألحق الكتاب بدراسة للدلالات الاجتماعية

---

[١] الحريري ، كمال ، الألوان والصور في شعر ابن الرومي ، **مجلة الرسالة** ، العدد ٤١ ، (١٣٥٣هـ).

[٢] عمر، أحمد مختار ، اللغة واللون ، ط٢،(القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٩٧م).

والنفسية لألفاظ الألوان .

٣- دراسة مسعود بوبو بعنوان ديوان الأزرق والأحمر للشاعر محمد عمران ، مجلة الموقف الأدبي [١] ، جاءت هذه الدراسة في خمس عشرة صفحة من القطع الكبير ، وتناولت الدراسة ثنائية اللون الأزرق والأحمر ، بحثاً عن التوازن المفقود في العالم الواقعي ، مصوراً النظرة السوداوية للشاعر .

٤- دراسة خليل عودة بعنوان المستوى الدلالي للون في شعر عنترة ، مجلة دارة الملك عبد العزيز[٢] ، تناول الدراسة الألوان في شعر عنترة ، خاصة اللون الأسود ، وتأثيره على الجانب الاجتماعي والنفسي للشاعر .

٥- دراسة جهاد عقيل بعنوان ألوان مكتوبة ، مجلة الموقف الأدبي [٣] ، جاءت هذه الدراسة في سبع صفحات من القطع المتوسط ، تحدث الكاتب عن اللون في الشعر من خلال منحيين :

الأول : استخدام اللون استخداماً مباشراً لوصف العالم الخارجي

الثاني : التوظيف للون لوصف الحالة النفسية .

وقد استشهد الكاتب لشعراء أندلسيين وشعراء غربيين .

٦- خلف الخريشة بعنوان ، إيقاع اللون الأبيض في شعر بشر بن أبي

---

[١] بوبو ، مسعود ، الأزرق والأحمر للشاعر محمد عمران ، **مجلة الموقف الأدبي** ، العدد ٢٤٤، (١٩١١م).

[٢] عودة ، خليل ، المستوى الدلالي للون في شعر عنترة ، **مجلة دارة الملك عبد العزيز** ، العدد الثاني ، (١٩٩٦م).

[٣] عقيل ، جهاد ، ألوان مكتوبة ، **الموقف الأدبي** ، العدد ٣٦٢، (٢٠٠١م).

خازم الأسدي ، مجلة جامعة أم القرى ، وقد جاءت الدراسة في ثلاثين صفحة من القطع المتوسط .

في هذه الدراسة حدد الكاتب دلالة اللون الأبيض عند الشاعر بشر بن أبي خازم الأسدي ، وقد تناولت الدراسة دلالة اللون الذي شكل به الشاعر صورة الديار والمرأة ، وقد اقتصرت الدراسة على مستوى واحد وهو اللون الأبيض .

منهج البحث :

تتبع الباحثة المنهج التكاملي في بحثها ، حيث يفيد البحث من عدة مناهج كالمنهج الفني والنفسي والتاريخي والجمالي وما تتطلبه الدراسة من مناهج أخرى كالمنهج الإحصائي وغيره .

خطة البحث :

تتكون خطة البحث من :

- **مقدمة** : تتناول موضوع البحث وأهميته وأسباب اختيار الموضوع والدراسات السابقة والمنهج وخطة البحث .

- **مدخل** : ونتناول فيه :

أ- مفهوم التشكيل اللوني .

ب- الشعر الجاهلي وخصوصية التشكيل اللوني .

ثم يأتي الفصل الأول بعنوان : مستوى التشكيل التجريدي .

حيث يتناول مستويات المعنى التي يتحقق وجودها عبر تصوير تجريدي ، يخلص من خلاله الذهن إلى البؤرة المركزية للفكرة التي يبلورها النص الشعري ،

وتبرز عبر إيقاعية التشكيلات اللونية ، وينقسم هذا الفصل إلى مبحثين :

المبحث الأول بعنوان : التجريدية والتشكيل اللوني الجزئي .

وهي المعاني الجزئية التي تفرزها الدوال اللغوية اللونية ، وتلعب دوراً جمالياً ودلالياً في السياق .

ويتم تناولها من خلال :

- الدوال اللونية الحيادية .
- الدوال اللونية الترادفية.
- الدوال اللونية المتباينة.

المبحث الثاني بعنوان : التجريدية والتشكيل اللوني المركزي .

وفيه يوظف الشاعر اللون للدلالة على فكرة مركزية في القصيدة ، ومن ثم يمثل التشكيل اللوني مركزاً تشع منه الدلالة داخل النص .

ثم يأتي الفصل الثاني بعنوان : مستوى التشكيل الصوري .

ونتناوله من خلال ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الصورة اللونية الجزئية .

وفيه تأتي الصورة اللونية تأكيداً للوعي البلاغي الماثل في شعريتنا العربية ، وهذا الوعي يتشكل عبر الصورة التركيبية التي تجسد العالم الشعري ، من خلال المكونات اللونية بصورة تشبيهية أو استعارية أو كنائية .

المبحث الثاني : المشاهد اللونية الكلية .

وفيها يتشكل النص الشعري من مجموع الصور اللونية الجزئية ، التي تتضافر بعضها مع بعض من أجل تشكيل المشهد اللوني الكلي .

المبحث الثالث : مقومات الصورة اللونية .

وهي المقومات الجوهرية التي يعتمد عليها سياق الصورة ، من خلال البعدين الفكري والوجداني ، ونتناولها من خلال :

١- الذاكرة

٢- الحواس

٣- الخيال

ثم يأتي الفصل الثالث بعنوان : مستوى التشكيل الرمزي .

ارتبط التشكيل اللوني في الشعر الجاهلي بإشارات واقعية ، تحولت إلى رموز لونية ، يوظفها الشاعر في تشكيلات لغوية رؤيوية متعددة ، تتشكل عبر الوعي الجمالي برؤية الظبية بأطلالها ، والصحراء بمفرداتها اللونية ، ورؤية الحيوان وألوانه الإشارية ، ورؤية الإنسان ككائن يحتوي العالم اللوني حواليه فيشكله في شعره ، ويحتويه العالم اللوني ويشكل بعضاً من أباعده الخارجية والداخلية ومن ثم يحوي هذا الفصل أربعة مباحث :

المبحث الأول : اللون ورؤية الطبيعة .

المبحث الثاني : اللون ورؤية الحيوان .

المبحث الثالث : اللون ورؤية الإنسان.

ثم يأتي الفصل الرابع بعنوان مستوى التشكيل الإيقاعي .

يرصد النص التجليات اللونية التي تجيء امتداداً لشعرية اللون ، ولكنه امتدادٌ يتجدد ويتمدد ، ساعياً إلى التواصل اللوني على مستوى القصيدة ككل ، ليستثمر التشكيل الإيقاعي في النص .

وينقسم إلى :

- الموسيقى الخارجية

- الموسيقى الداخلية .

ثم تأتي **الخاتمة** وبها أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليه البحث ، ثم ملخص البحث ، ثم قائمة بأهم المراجع والمصادر .

مخطط البحث :

مستخلص باللغة العربية .

مقدمة .

مدخل.

أ- مفهوم التشكيل اللوني .

ب- الشعر الجاهلي وخصوصية التشكيل اللوني .

الفصل الأول: مستوى التشكيل التجريدي.

المبحث الأول :التجريدية والتشكيل اللوني الجزئي.

الدوال اللونية الحيادية.

الدوال اللونية الترادفية.

الدوال اللونية المتباينة.

المبحث الثاني:التجريدية والتشكيل اللوني المركزي.

الفصل الثاني:مستوى التشكيل الصوري.

المبحث الأول:الصورة اللونية الجزئية.

التشبيه

الاستعارة

الكناية

المبحث الثاني:الصورة اللونية الكلية

المبحث الثالث:مقومات الصورة اللونية

الذاكرة

الحواس

الخيال

الفصل الثالث:مستوى التشكيل الرمزي

المبحث الأول:اللون ورؤية الطبيعة

المبحث الثاني:اللون ورؤية الحيوان

المبحث الثالث:اللون ورؤية الإنسان

الفصل الرابع:مستوى التشكيل الإيقاعي

الموسيقى الخارجية

الموسيقى الداخلية

ثم تأتي **الخاتمة** وبها أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليه البحث ، ثم ملخص البحث ، ثم قائمة بأهم المراجع والمصادر .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

مدخـــــــــــــــــل

مفهوم التشكيل اللوني :

التشكيل اللوني هو طريقة الشاعر في التعبير عن تجربته ، حيث يتوسل بالألوان ، فيعيد تشكيل اللغة ، لتقول الألوان ما لم تقله الكلمات ، فيحمل اللون على تكثيف الطاقة الدلالية والإيحائية للنص الشعري ، حينئذ يتقبل المتلقي اللون عن طريق الخيال ، لأن اللغة قد عملت امتصاص الخصائص الفيزيائية للون ، وتحويلها إلى أصوات لها دلالات وإيحاءات .

"وحين نتحدث عن (التشكيل) في الشعر لا نقصد مجرد الاستعارة الطرفة حين ننقل الدلالة التشكيلية من ميدانها الأصلي في الفنون التشكيلية إلى ميدان آخر اصطلح على تسميته بالفنون التعبيرية ، فعملية التشكيل قائمة في هذه الفنون وتلك على السواء" [١] فيعتمد كلٌّ من الشاعر والرسام على مادة ذات صلة بالحواس ، تخاطب الإحساس ، "ومن هنا فإن الشاعر والرسام عندما يقدمان بفعل المحاكاة سواء كانت المعنوي مجرد ، أو المادي محسوس ، فإنهما يخاطبان الإحساس والمخيلة ، ويجسمان الأشياء والأفكار في أشكال محسوسة يمكن رؤيتها ، إما عن طريق العين الباصرة كما في الرسم وإما عن طريق العين العقل او المخيلة، كما في حالة الشعر"[٢].

والشاعر الرسام هما يحدثان تأثيراً خاصاً في نفوس المتلقين ، بجعل الجميل قبيحاً والقبيح جميلاً [٣] ، فالشاعر الجاهلي حين يصف منظر الحرب بالألوان تصويراً

---

[١] إسماعيل، عز الدين، التفسير النفسي للأدب، ط٤، (القاهرة دار غريب، ، ،د.ت،٤٩)

[٢] عصفور ،جابر ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ،(مصر :دار المعارف، ١٩٧٣) ٣٣١ .

[٣] المصدر السابق ،ص ٣١٦

بارعاً ، يجعل المتلقي يستمتع بقراءته للنص ، ويعيش تجربة شعورية بفعل تأثير الألوان وبراعة تشكيلها .

لكن هناك فرق بين الشاعر والرسام ، فذاتية الرسام تنحصر في اختياره الموضوع من الواقع أو من الذاكرة ، كما تنحصر في القدرة على نقل ما اختاره ، فهو يمثل بعداً مكانياً ، لأنه ينقل لحظة واحدة يمكن استيعابها بنظرة ثابتة ، أما الشعر فإنه ذو بعد زماني ومكاني ، فموسيقى الشعر تؤلف بين الأصوات في الزمان ، والتصوير يتمثل في التأليف بين المساحات في المكان ، والشاعر يخلق الجمال بذهنه قبل أن يترجمه إلى واقع متصور بالكلمات ، ثم ينقله ممتزجاً بشعوره وأحاسيسه ، لهذا يمكن القول بان الذاتية في الشعر أوضح من الموضوعين ، أما في الرسم فإننا نجد الموضوعية أوضح من الذاتية [1] .

ويكتسب اللون في النص الشعري صفة حركية متغيرة ، تبعاً لتغُّير حالة الشاعر النفسية ، فلكل حالة لونها ، ولكل مقام ، مقام لوني ، فتصبح الألوان مرايا عاكسة لذات الشاعر وحالته الشعورية .

---

[1] انظر شكري ،فايزة أنور ، فلسفة الجمال والفن ، (مصر :دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٤م) ص ١٤٦ – ١٤٧ ، وانظر أيضاً إسماعيل، عز الدين ، التفسير النفسي للأدب ، ص ٤٧-٤٨

الشعر الجاهلي وخصوصية التشكيل اللوني :

صنع الشاعر الجاهلي لوحات رسم فيها الصحراء بجميع تفاصيلها ، رسم صخورها وجبالها ، وكل ما يجري فيها من مطر وبرق ،ورسم ليلها الأسود البهيم ، وشمسها الذهبية ، وسراجها الأبيض ، وعشبها الأخضر ، والثور الأبيض ، والخيل على اختلاف ألوانها ، وتحدث عن محبوبته البيضاء ، ونظر إلى نفسه ، فوصف الشيب الأبيض حين يعلو رأسه... الخ .

لقد استطاع الشاعر الجاهلي أن يوظف اللون في شعره توظيفاً يعكس خصوصية التشكيل اللوني لديه ، فهو عندما يكرر لوناً معيناً ، فإنه يفصح عن علاقة خاصة تربطه بهذا اللون علاقة لها ارتباط بالجانب النفسي أو الجانب الاجتماعي ، "فالشاعر قد توصل إلى فهم أسرار اللون ، وبرع في توظيفها ، لأن الحياة الجاهلية تعني حب المخلوقات كما هي ، وكل صور المخلوقات تتوحد في عقلية الشاعر الجاهلي ، وذلك لأن دلالة كلمة (صنم) تعني صورة ، ودائرة الوعي تتولد من خلال إمعان هذا الشاعر بان هناك قوى خارقة ترسم ملامح الألوان ، وتنسج لحمتها بواسطة الصورة الشعرية[1].

إن معرفة دلالة اللون في الشعر عامة ليس بالأمر السهل ، ذلك لأن "شعرية اللون تنبثق إشكاليتها من منظومة علاقات يحتل الشاعر مركزها باتجاه التراث والطبيعة والعصر واللغة والإيديولجيا ، ويضحي صعباً تغييب مفاتيح بعينها لاستجلاء حدود وفعاليات المحاور الدلالية لجماليات اللون في الخطاب الشعري خاصة ، مع

---

[1] الخريشة ،خلف ، إيقاع اللون الأبيض في شعر بشر بن أبي حازم الأسدي ، مجلة جامعة أم القرى ، ج ١٥ ، ع ٢٥ (١٤٢٣هـ) ص ٨٥٤.

تراكم التجارب الشعرية وتنوع توظيفها) [1].

والشعر الجاهلي وصل إلينا مكتمل البناء ولم نعرف المراحل الأولى التي مر بها، وقد وجدنا لوناً معيناً في صور معينة عند أغلب الشعراء ، ولتفسير دلالة اللون في تلك الصور ينبغي أن نعرف الأساس الذي قامت عليه ، لكن ذلك لم يصلنا ، وهذا ما جعل التشكيل اللوني في الشعر الجاهلي سراً من الأسرار ، ولتفسير هذا السر ، لا بد من معرفة الخلفية الفكرية الثقافية للشاعر الجاهلي ، ومحاولة النظر إليه بمنظار عصره.

[1] دياب ،محمد حافظ ، جماليات اللون في القصيدة العربية ، مجلة فصول ، ج ٥ ، ع ٢ (١٩٨٥م)، ص ٤١.

الفصل الأول

مستوى التشكيل التجريدي

المبحث الأول: التجريدية والتشكيل اللوني الجزئي.

-الدوال اللونية الحيادية

-الدوال اللونية الترادفية

-الدوال اللونية المتضادة

المبحث الثاني:التجريدية والتشكيل اللوني المركزي.

المبحث الأول:

التجريدية والتشكيل اللوني الجزئي

تشكل الدوال فيما بينها داخل النص الأدبي مجموعة من العلاقات ، وفي هذا الفصل سنتحدث عن اللون من خلال تسليط الضوء على تلك العلاقات بين الدوال اللونية المجردة من الصورة ، وكذلك الدوال اللونية المجردة من الحسية .

ولكي نستطيع أن نفهم الدلالة التي يطرحها اللون داخل النص ؛ لابد أن نعرف نوع العلاقة الموجودة بين الدال اللوني والدوال الأخرى ، سواء أكانت دوال لونية أم غير لونية .

- فقد تتعدد الدوال اللونية في النص.
- وقد تترادف بعضها مع بعض بانتمائها لمجموعة لونية واحدة .
- وقد تبرز تلك العلاقة من خلال التباين بين تلك الدوال .

وسنتناول في هذا المبحث العلاقات بين الدوال اللونية ، وحركتها داخل النص ، من خلال ثلاثة محاور :

- الدوال اللونية الحيادية .
- الدوال اللونية الترادفية .
- الدوال اللونية المتباينة .

أولا: الدوال اللونية الحيادية :

هي الألوان التي لا تربطها بمجموعها علاقة ترادف أو تضاد فيما بينها ، وإنما ترتكز على علاقة يقيمها الشاعر بين تلك الألوان ، من أجل الكشف عن العوالم التي تحيط بتجربة الشاعر .

ومن القصائد التي حفلت بمجموعة من الدوال اللونية الحيادية ، قصيدة

الشاعر ثعلبة بن عمرو العبدي ، والتي يقول فيها :(١)

وَشَـوهاءَ لَـم توشَـم يَـداها وَلَـم تُـذَل فَقاظَـت وَفيهـا بِالوَليـدِ تَقـادُفُ .(٢)
وَتُعطيـكَ قَبـلَ السَـوطِ مِـلءَ عِنانِهـا وَإِحضـارَ ظَبـيٍ أَخطَأَتـهُ المَجـادِفُ.(٣)
بَلِلـتُ بِهـا يَـومَ الصُـراخِ وَبَعضُـهُم يَخُـبُّ بِـهِ فـي الحَـيِّ أورَقُ شـارِفُ.(٤)
بِبَيضـاءَ مِثـلِ النَهـيِ ريـحَ وَمَـدَّهُ شَـآبيبُ غَيـثٍ يَحفِـشُ الأَكـمَ صـائِفُ.(٥)
وَمُطَّـردٍ يُرضـيكَ عِنـدَ ذَواقِـهِ وَيَمضـي وَلا يَنـآدُ فيمـا يُصـادِفُ.(٦)
وَصَـفراءُ مِـن نَبـعٍ سِـلاحٌ أُعِـدُّها وَأَبـيَضُ قَصّـالِ الضَـريبَةِ جـائِفُ.(٧)
عَتـادُ اِمرِئٍ فـي الحَربِ لا واهِنِ القُوى وَلا هُـوَ عَمّـا يَقـدِرُ اللَـهُ صـارِفُ.(٨)
بِـهِ أَشـهَدُ الحَـربَ العَـوانَ إِذا بَـدَت نَواجِـذُها وَاِحمَـرَّ مِنهـا الطَوائِـفُ.(٩)

(١) الضبي، المفضل، المفضليات، ط٦، (بيروت: ١٣٨٣م)،ص ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ تحقيق وشرح أحمد شاكر ، عبد السلام هارون .

(٢) الشوهاء : الحسنة الخلق ، لم توشم يداها ، نقية ممحصة القوائم لم تحتج إلى الوشم ، لم تذل : لم تهن ، قاظت : أتى عليها القيظ ، الوليد : العبد ، التقاذف : التدافع في العدو .

(٣) ملء عنانها : أي عدواً ملء عنانها ، الإحضار : العدو ، المجادف : ما يجدف به أي يرمي به .

(٤)بللت بها : ملكتها وكانت في قبضتي ، الصراخ : إجابة المستصرخ ، يخب : من الجنب وهو ضرب من العدو ، الأورق: على لون الرماد ، والورق الأم الإبل ، الشارف : الهرم الكبير

(٥) البيضاء : الدرع ، النهي : بكسر النون وفتحه الغدير ، ريح : أصابته ريح ، فهو أصفى له وأشد لاضطرابه ، الشآبيب: جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر ، يحفش : يقشر ، الأكم : جمع أكمة ، صائف : في الصيف .

(٦) المطرد : الرمح ، يرضيك عند ذواقه : إذا نظر إليه ناظر وقلبه أرضته جودته ، وهو معنى مجازي ، يمضي : أي في المطعون ، لاينآد : لا يرجع ولا ينعطف

(٧) الصفراء : القوس ههنا ، النبع : شجر تتخذ منه القسي والسهام ، الصقال : القطاع ، يعني سيفاً ، الضريبة : المضروبة ، فعيل بمعنى مفعول ، الجائف : الذي يبلغ الجوف .

(٨) العتاد : العدة ، يقدر : يقضي ويقدِّر.

(٩) العوان : التي قوتل فيها مرة ، الطوائف : النواحي

قِتــالَ اِمــرِئٍ قَــد أيقَــنَ الــدَهرَ أنَّــهُ مِنَ المَوتِ لا ينَجو وَلا المَوتُ جانِفُ.(١)
وَلَو كُنتُ في غُمدانَ يَحرُسُ بابَهُ أرجيــلُ أحبــوشٍ وَأســودُ آلِــفُ.(٢)
إذاً لأتَتنــي حَيــثُ كُنــتُ مَنِيَّتــي يَخُــبُّ بِهــا هــادٍ لإثــرِيَ قــائِفُ.(٣)
أمِــن حَــذَرٍ آتــي المَهالِــكَ ســادِراً وَأيَّــةُ أرضٍ لَــيسَ فيهــا مَتــالِفُ.(٤)

تحدث ثعلبة بن عمرو العبدي في قصيدته عن فرسه وسرعتها وإغاثته الملهوف بها ، واستطرد بذكر عدة الحرب : السيف والرمح والدرع والقوس التي يتخذها عتاداً له في المعارك التي يخوضها ، خوض الرجل المقدام الموقن بحتمية الموت ، فالموت لا يضل أحداً ، ولا يمنعه حرس ولا جند ، ثم ختم بلومه الموجه لمن يرهب الموت و يخافه .

وتتشكل الدوال اللونية الحيادية عند ثعلبة في الألوان : الأسود ، الأصفر ، الأخضر ، الأبيض، الأحمر .

بَلِلــتُ بِهــا يَــومَ الصُــراخ وَبَعضُــهُم يَخُــبُّ بِــهِ فــي الحَــيِّ أورَقُ شــارِفُ.(٥)

اللون الأسود جاء في المقدمة ، وبالعودة إلى نتائج اختبارات التحليل النفسي

(١) جانف : مائل ، يعني أن الموت لا يدعه .

(٢) غمدان : حصن منيع باليمن ،أراد بالأراجيل الرجالة ، جمع (أرجال) وأرجال جمع (راجل) مثل صاحب وأصاحيب ، الأحبوش : الحبش ، الأسود : أراديه الحية ، الآلف : الآنس بالمكان.

(٣) يخب : يسرع ، من الخبب ، القائف : الذي يقوف الآثار يتبعها .

(٤) السادر : الذي لا يهتم لشيء ولا يبالي ما صنع ، يريد أنه يأتي المهالك لا يبالي ، فهو ينكر على من يتهمه بالحذر.

(٥) الضبي، المفضل، المفضليات، ص ٢٨٢.

للألوان والتي قام بها max lusher[١] نستنتج أن وقوع اللون الأسود في الموقع الأول في القصيدة ؛ يدل على عدم رضا الشخص عما يحيط به ، وشعوره بأنه لاشيء يجب أن يظل كما هو ، فهو في حالة ثورة[٢] ، وقد تشكل اللون الأسود في لون الإبل الأورق في القصيدة ،والورق الأم الإبل"لأنها لا تحسن السير والعمل" [٣] فالشاعر ثعلبة يصف إقدامه وسرعة فرسه في إغاثة الملهوف ، ويعيب على من يتقاعس عن تلك الاستغاثة ، بسيره على الجمل الأورق الأسود الهرم ، فهو بذكره للون الأسود ، قدَّم معنى استيائه عما يحيط به من تقاعس عن إغاثة المستغيث ، وعدم رضاه عن ذلك، من خلال فلسفته في الوجود ، والتي يرى فيها أنه لا مفر من الموت وكل شيء صائر إلى زوال ، فالموت يأتي للإنسان ، سواءً أكان على فراشه أم في ساحة القتال ، والمعنى المعجمي (للورق) يشي بهذا المعنى ، حيث إن الورق من كل شيء ما كان لونه الرماد [٤] ، والرماد يمثل الانطفاء ، فهو يدل على الموت ، فاختار الشاعر ثعلبة هذا اللون بوعي منه أو بغير وعي ، ليعبِّر عن معنى الفناء والزوال ، والذي يريد أن يوصله للمتلقي من خلال القصيدة ، وتتأكد فاعلية اللون الأسود في دلالته على الموت، من خلال الدال (شارف) والذي يذكره الشاعر صفه للجمل الأورق ، والذي يعني هرم كبير مشرف على الموت ، فهذا الجبان الذي يتحدث عنه الشاعر ، يسير في الحي بجمل ، لونه كلون الرماد ، كبير ، هرم ، مشرف على الموت ، مما يعمق دلالة اللون الأسود على الموت ، ثم انتقل الشاعر ثعلبة من اللون الأسود المجرد من الصورة ؛ إلى مجموعة من الألوان المجردة ، تضم : الأخضر والأبيض والأحمر .

(١)_ عمر، أحمد مختار ، اللغة واللون ، ط٢،(القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٧)، ص ١٨٦.

(٢)_ السابق ٢٣٧.

(٣)_ الخويسكي ،زين ، معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم ، ط١ ،(بيروت: مكتبة لبنان ،١٩٩٢)، مادة ورق.

(٤)_ السابق ، مادة ورق

وَصَـفراءُ مِـن نَبـعٍ سِـلاحٌ أُعِـدُّها وَأبـيَضُ قَصّـالُ الضَـريبَةِ جـائِفُ.[١]

يتحدث ثعلبة عن قوسه الصفراء التي أعدها من شجرة النبع ، وعن سيفه الأبيض ، الحاد ، الذي يبلغ الجوف حين يضرب به ، واللون الأصفر يدل على الفتوة والقوة[٢] ولذلك نرى الشاعر ثعلبة يقرنه بالقوس ، بل إنه لم يصرح به ، وإنما اكتفى بذكر الصفة الشائعة له وهي الدال اللوني (صفراء) ، واللون الأصفر لون التحفز والتهيؤ والنشاط [٣] فلا يزال البطل في ساحة المعركة يستمد نشاطه وقوته من البريق الأصفر ، الذي تتلون به القوس ، وربما نعت العرب القوس بالصفرة ، لأنها أداة تجلب الموت الذي (تصفر منه الأنامل) على حد تعبيرهم كقول زهير :

يغادرُ القرنَ مصفراً أنامِلُهُ يميلُ في الرمح ميلَ المائح الأسن[٤]

فتكون علاقة القوس بهذا الدال اللوني علاقة سبب بمسبب ، وحينئذٍ يحمل الدال الأصفر في القوس دلالة الموت .

تلك القوس الصفراء ، أخذها الشاعر من شجرة النبع الخضراء ، فاللون الأخضر موجود ضمناً في البيت ، وقد وقع هذا اللون في منطقة الوسط تماماً بين الألوان في القصيدة .

الأسود	الأخضر	الأبيض
الأصفر		الأحمر

وهو بموقعه هذا يقوم بدور الحاجز الذي تبنى خلفه الإثارات الخارجية دون

(١)_ الضبي، المفضل، المفضليات، ص ٢٨٢.

(٢)_ بنوا ،لوك، إشارات رموز أساطير ،(بيروت: عويدات للنشر)تعريب فايز ، ص٧٢.

(٣)_ عمر، أحمد مختار، اللغة واللون، ط٢، (القاهرة: عالم الكتب،١٩٩٧م)ص٢٢٩.

(٤)_ أبي سلمى، زهير، الديوان، ط ١ ،(بيروت: عز الدين للطباعة، ١٩٩٣)،ص ٢٣١.

تصريفها، مضاعفاً الإحساس بالزهو ؛ للتفوق الذاتي على الآخرين [١]وهذا المعنى للون الأخضر ينطبق على الشاعر ثعلبة ، حيث يشعر بالزهو والتفوق ؛ لامتلاكه قوساً من شجرة النبع الخضراء ، وهو بامتلاكه لتلك القوس من تلك الشجرة ، يبني حاجزاً ضد الاثارات الخارجية وغارات القبائل ، مع خضوعه لمراد الله ، وإحساسه بعدم قدرته على التصرف في مشيئته سبحانه وتعالى ، لذلك يعقب بعد البيت السابق بقوله :

عَتادُ اِمرِئٍ في الحَربِ لا واهِنِ القوى وَلا هُوَ عَمّا يَقدِرُ اللَهُ صارِفُ[٢]

إن محاولة الدفاع عن النفس ، مع التسليم لما يريده الله ؛ يفصح عن نفس راضية ، تبحث عن الاطمئنان النفسي ، واللون الذي يبعث هذا الشعور ، هو اللون الأخضر ، لأنه لون يولد في النفس الاسترخاء والراحة ، لذلك أتى به الشاعر متوسطاً بين الألوان ، ليحدث نوعاً من التوازن بين الخوف والأمن ، عن طريق ما يبثه هذا اللون من إيحاء بالأمن والطمأنينة ، في بيئة تتطلع فيها النفس لرؤية هذا اللون الزاهي، الذي يعبر عن الحياة في أبهى صورها .

وَصَفراءُ مِن نَبعٍ سِلاحٌ أعدها وَأبيَضُ قَصّالِ الضَريبَةِ جائِفُ[٣]

يأتي الدال الأبيض في صورة السيف اللامع الحاد ، ليعبر اللون الأبيض عن الذات الشجاعة التي تجابه الموت في قوة ، والدال الأبيض يمثل حضور الألوان جميعاً، لأنه أصل جميع الألوان ، "لقد أثبتت الفيزياء أن تحليل اللون الأبيض يعطي الألوان السبعة المعروفة في قوس قزح ، وبالمقابل فإن المزج الفيزيائي أيضاً للألوان السبعة ، يعطي اللون الأبيض ، فلو اجتمعت هذه الألوان في أسطوانة يتم تدويرها بسرعة معينة؛ فإن العين عندئذٍ لا تعود ترى سوى اللون الأبيض الناجم عن امتزاج

(١)ـ عمر ،أحمد مختار، اللغة واللون ،ط٢،(القاهرة: عالم الكتب،١٩٩٧)،ص ٢٣٨.

(٢)ـ الضبي، المفضل، المفضليات، ص٢٨٢

(٣)ـ المرجع السابق.

هذه الألوان"[١]، لهذا تجمعت في السيف الأبيض معاني الشجاعة ، وظهر وميضها ، من خلال بريقه وهذا ما أراد الشاعر أن يثبته لنفسه في قصيدته ، فتكون دلالة هذا اللون دلالة القوة والشجاعة ، الشجاعة هي الرجولة ، فإذا السيف سيف ذكر أبيض ، على وزن أفعل للمذكر ، يتصف بصفات الذكورة والقوة[٢] ، ومما يعمق هذه الدلالة للون الأبيض التركيب (قصال الضريبة) بما يحتوي عليه من حرف التفخيم (خص ضغط قظ) كحرف الصاد في (قصال) مع التضعيف ، وحرف الضاد في (الضريبة) إضافة إلى حرف الضاد في (أبيض) مما يوحي بقوة عظيمة ، فرغها الشاعر في الدال اللوني (أبيض) تجعلنا نتخيل منظر الشاعر ، وهو يقف أمام خصمه في شجاعة فيهوي عليه بسيفه الأبيض ، الذي من شدة سرعته ؛ لا تكاد ترى منه إلا وميضه ، فيخر الخصم صريعاً ، تلك اللحظة تمثل قمة النشوة للبطل الشجاع ، حين يومض السيف في سرعة، لذلك حمَّل ثعلبة الدال الأبيض ثقلاً وجدانياً ، كشف عنه الإيقاع الصوتي ، ذلك الثقل لم نجده في القوس الصفراء ، فمن يرمي من بعيد ، ليس كمن يواجه العدو ويضربه بقوة.

وَصَفراءُ مِن نَبعٍ سِلاحٌ أُعِدُّها وَأَبيَضُ قَصّالِ الضَريبَةِ جائِفُ[٣]

يتضمن الدال (جائف) اللون الأحمر ، لون الدم ، الذي ينتج من ضربة السيف التي تبلغ الجوف ، وقد أخَّر الشاعر اللون الأحمر في الذكر ، بعد أن قدم لنا سلسلة من الألوان من خلال العدة التي تتسبب في إيجاد هذا اللون ، متمثلة في القوس الصفراء،

(١)_ صالح، صلاح وآخرون، في الشعرية البصرية ، (الشارقة: منشورات دائرة الثقافة والإعلام،١٩٩٧)ص ٣٢، ٣٣.

(٢)_ جعل عروة ضرب السيف مذكراً في قوله : وَنَحنُ صَبَحنا عامِراً إِذ تَمَرَّسَت عُلالَةَ أَرماحٍ وَضَرباً مُذَكَّرا
بِكُلِّ رُقاقِ الشَفرَتَينِ مُهَنَّدٍ وَلَدنٍ مِنَ الخَطِّيِّ قَد طُرَّ أَسمَرا .
بن الورد ، عروة، الديوان، ط٢، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٧) ،شرح ابن السكيت ، تقديم راجي الأسمر، ص٥٧.

(٣)_ الضبي، المفضل، المفضليات، ص ٢٨٢ .

المصنوعة من شجرة النبع الخضراء ، والسيف الأبيض ، وهذا الترتيب المنطقي للألوان ، والذي جاء في إطار عرض السبب ثم النتيجة (عدة الحرب ثم الدم الناتج عنها) يدل على أن العقل عند الشاعر ثعلبة يتحكم في عاطفته ، فلو كان الشاعر صاحب مزاج حار ، لرأينا أول لون يأتي في القصيدة هو اللون الأحمر ، كما أن في تأخر اللون الأحمر في ترتيب الخارطة اللونية للشاعر ، دلالة على ميل الشاعر ثعلبة إلى السلم ، بل إنه لم يصرح بذكر هذا الدال اللوني ؛ وإنما ضمنه في المفردة (جائف)، واللون الأحمر حين يأتي في سياق الفخر بالشجاعة في ساحة القتال ؛ فإنه يرتبط بدلالة القوة والجرأة في قتال العدو ، لكن سرعان ما تتحول تلك الدلالة إلى معنى الموت والهلاك للشاعر نفسه ، ويكشف عن هذا التحول في الدلالة قول الشاعر ثعلبة :

بِهِ أَشهَدُ الحَربَ العَوانَ إذا بَدَت نَواجِذها وَاِحمَرَّ مِنها الطَوائِفُ.
قِتالَ اِمرِئٍ قَد أيقَنَ الدَهرَ أَنَّهُ مِنَ المَوتِ لا ينَجو وَلا المَوتُ جانِفُ[1]

إن الشاعر ثعلبة حين يقاتل في ساحة المعركة ؛ يعلم أنه سيأتي عليه يوم يقتل فيه ، فهو يستحضر منظره ، وقد أصابته ضربة بالسيف ، فسالت دماؤه ، وفاضت نفسه ، وهذا يفصح عن المكبوتات النفسية ، وقلق التجربة الجاهلية إزاء فكرة الموت، ذلك الموت الذي تمارسه الشخصية الجاهلية دائماً ، فحياتها سلسلة من الحروب والمعارك ، لذلك يشعر الشاعر ثعلبة أنه إما قاتل أو مقتول ، فقد تكررت مفردة الموت لديه مرتان في بيت واحد

قِتالَ اِمرِئٍ قَد أيقَنَ الدَهرَ أَنَّهُ مِنَ المَوتِ لا ينَجو وَلا المَوتُ جانِفُ[2]

وذلك يشكل قلقاً في نفس الشاعر ، حين يرى الدم الأحمر في ساحة القتال ، وهذا

(١)_ الضبي، المفضل، المفضليات،ص ٢٨٢.
(٢)_ السابق ، ٢٨٢.

ما يجعل دلالة الموت ترتبط باللون الأحمر الدموي عند الشاعر ، في صورة مؤلمة قاتمة، لذلك نجده يزيد من قتامة تلك الصورة ؛ بذكره للون الأسود والذي ختم به سلسلة الألوان في قوله :

وَلَو كُنتُ في غُمدانَ يَحرُسُ بابَهُ أراجيلُ أُحبوشٍ وَأسودُ آلِفُ

إذاً لأتَتني -حَيثُ كُنتُ- مَنِيَّتي يَخُبُّ بِها هادٍ لإثرِيَ قائِفُ[١]

يبين الشاعر ثعلبة ، أن المنية تمضي حيث تريد ، لا يمنعها عنه الحراس الحبش ، ولا الحية السوداء ، وإنما تهتدي إليه لا تضل عنه .

وقد ذكر الشاعر اللون الأسود في شطر واحد مرتين :

- المرة الأولى : مضمراً في قوله (أحبوش) ، فالأحباش يتميزون بالسمرة في الجلد .
- المرة الثانية : مصرحاً به في قوله (أسود) .

فلم يكتف الشاعر باللون الأسود في (أسود آلف) وإنما ذكره مرةً أخرى ، وذلك ميلاً منه للتكتم والاختباء من الموت ، متستراً بأشد الألوان قتامة ، فاللون الأسود يمثل "الحالة الرئيسة لعدم الظهور "[٢] لكن الموت لن يضله ، بل سيهتدي إليه رغم تلك القتامة والسوداوية ، ويسقيه كأسه حيث كان .

ونلحظ أن الشاعر جعل من السواد حارساً يحرسه من الموت ، متمثلاً في الأحباش ، والحية السوداء ، ومن يتخذ الحرس لحمايته ؛ فإن ذلك دليل على خوفه من أمرٍ ما ، وحين يكون اللون الأسود هو الحارس له من الموت ؛ فإن دلالة السواد على الخوف من المجهول والرهبة والحزن تتعمق ، فيغدو الشاعر كمن يفرَّ من النور

(١)_ الضبي، المفضل، المفضليات، ٢٨٣

(٢)_ بنوا، لوك، إشارات رموز أساطير،(بيروت: عويدات للنشر)ص٧١

المتمثل في حقيقة الموت إلى تجاهل تلك الحقيقة بالاختباء خلف الظلام والسواد .

وقد وقع اللون السود في سياق البنية الشرطية ضمن فعل الشرط :

وَلَو كُنتُ في غُمدانَ يَحرُسُ بابَهُ أراجيـــلُ أحبـــوشٍ وَأســـودُ آلِـــفُ[١]

وكان جواب الشرط حتمية وقوع الموت على الإنسان حيث كان :

إذاً لأَتَتنـــي حَيـــثُ كُنـــتُ مَنِيَّتـــي يَخُـــبُّ بِهـــا هـــادٍ لإِثـــريَ قـــائِفُ[٢]

وهذا يدل على ارتباط دلالة السواد بالعجز والانكسار أمام قوة الموت وهيمنته ،

وتجدر الإشارة إلى أن الشاعر ثعلبة ذكر اللون الأسود في أول قائمة الألوان عند قوله أول القصيدة :

بَلِلتُ بِها يَومَ الصُراخ وَبَعضُهُم يَخُـبُّ بِـهِ فـي الحَـيِّ أورَقُ شـارِفُ[٣]

ثم ختم به في نهاية القصيدة ، أي أن اللون الأسود كان هو المفتتح لسلسلة الألوان، وهو المختتم أيضاً ، وكأن الشاعر يضعنا في دائرة مفرغة ، نعود فيها من حيث بدأنا، من الأسود إلى الأسود، مثل حال الإنسان حين كان في العدم (لون أسود) وسيصير إلى الموت (لون أسود) ، حتى لو جنَّد كل الوسائل ، باختلاف ألوانها للحيطة والحذر من الموت ؛ فإن الموت لن يخطئه وسيهتدي إليه.

(١)_ الضبي ،المفضل، المفضليات، ص٢٨٣

(٢)_ المرجع السابق ٢٨٣ .

(٣)_ المرجع السابق ٢٨٢.

وسائل الحذر من الموت	ألوانها	النتيجة
القوس شجرة النبع قتل الأعداء الحرس الأحباش الحية	صفراء خضراء أحمر أسود أسود	الموت

وقف حشد الألوان (أصفر ، أخضر ، أبيض ، أحمر ، أسود) في صف واحد أمام الموت ،ولكنه سرعان ما سقط وانهزم أمام حقيقة الموت الذي هو فوق كل لون .

فالحقيقة عند ظهورها ؛ تعمي البصر عما سواها ، مثلما يسطع النور القوي على شبكية العين ، فتنمحي عنها كل الألوان ، كذلك الموت حين يسلب من الجسد الروح ، تنغلق العين الباصرة في الجسد ، حينئذٍ لا يغدو للون بموجاته البصرية أي تأثير على الإنسان .

وقد استطاع ثعلبة أن يتمثل الألوان مجردة عن الصورة إلا في موضعين من القصيدة فقط في مقابل ستة مواضع ، ربما لأنه يتحدث عن الحرب والدم وحتمية الموت ، فالألوان تتمثل مجردة عن الصورة ، فهو يراها واقعاً مباشراً ، تلغي كل شيء سواها ، فكانت سلطتها عليه قوية ، تملكت حواسه وإدراكه ، فلا يحتاج إلى أن يتمثل مشهد الحرب وألوانها من خلال صورة تشبيهية ، لأنَّ الحربَ دَيْدَنُ الجاهلي ، يمارسها ممارسة مباشرة ، فهو بين كل حينٍ وآخر مطالب من القبيلة أن يدافع عن شرفها ، من خلال مواجهة الموت وجهاً لوجه .

وقد يرى راءٍ بأن الشاعر ثعلبة لم يكن يستحضر تلك الرؤى للألوان ، حين أنشأ قصيدته ، ولكن يُرَدُّ على ذلك بأن الشعر الجاهلي ثَريٌّ بالمعاني ، يخضع لتعدد القراءات والتأويل ،حيث إنَّ: "العمل الأدبي لا تستنفده مقاصد مؤلفة ، فبمجرد انتقال العمل الأدبي من سياق ثقافي أو تاريخي إلى آخر ؛ نستخلص منه معانيَ جديدة ، ربما

لم تخطر ببال مؤلفه أو جمهوره المعاصر له "[١]

(١)ـ إيجلنون، ألبيري، الظاهراتية والهيرمينوطيقا ونظرية التلقي، ترجمة محمد خطابي، مجلة علامات ، ع٣ ، ص٢١.

ثانياً – الدوال اللونية الترادفية :

ونعني بها الألوان التي تنتمي إلى مجموعة معينة ، فالألوان تنقسم إلى قسمين:

١ – الألوان الحارة ، وسميت بذلك لأنها تذكرنا بلون الدم والنار

٢ – الألوان الباردة ، وسميت بذلك لأنها تتفق مع لون السماء والماء ، وهما مبعث البرودة .[١]

يتشكل الترادف اللوني عبر الدوال اللونية الباردة في قصيدة طرفة بن العبد، حيث وظف طرفة تلك الدوال المترادفة في تشكيل مجرد من الصورة ، لتعبر عن الشعور بالوحدة والاغتراب .

قال الشاعر طرفة بن العبد : [٢]

قِفي وَدِّعينا اليَومَ يا اِبنَةَ مالِكِ وَعوجي عَلَينا مِن صُدورِ جِمالِكِ[٣]

قِفي لا يَكُن هَذا تَعِلَّةَ وَصلِنا لِبَينٍ وَلا ذا حَظَّنا مِن نَوالِكِ[٤]

أُخَبِّرْكِ أنَّ الحَيَّ فَرَّقَ بَينَهُم نَوى غُربَةٍ ضَرّارَةٍ لي كَذَلِكِ[٥]

وَما دونَها إلاّ ثَلاثُ مَآوِبٍ قُدِرنَ لِعيسٍ مُسنِفاتِ الحَوارِكِ[٦]

وَلَم يُنسِني ما قَد لَقيتُ وَشَفَّني مِنَ الوَجدِ أنّي غَيرُ ناسٍ لِقاءَكِ[٧]

---

(١)_ عبد الحليم ، فتح الباب.،وآخرون ، التصميم في الفن التشكيلي ،د.ت ،(القاهرة: عالم الكتب)ص٢٩ .

(٢)_ ابن العبد، طرفة ،الديوان، شرح سعدي الضناوي ، (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤م)، ١٩٦.

(٣)_ ابنة مالك: خولة، عوجي: ميلي واعطفي، من صدور جمالك: بصدور جمالك.

(٤)_ التعلة : البقية ، وهي أيضاً العذر والسبب ، البين : الفراق ، حظنا: نصيبنا ، نوالك : عطائك .

(٥)_ الحي : أهل الحي ، النوى فاعل ،فرَّق :البعد. والنوى هو الدار، الغربة: البعيدة، ضرارة لي: شديدة الضرر لي والأذى ، قاسية علي.

(٦)_ المآب: المرجع ، العيس: هي الإبل البيضاء التي يخالط بياضها شيء من الشقرة ، المسنفات: الناقة المشرفة المناسج الحوارك : الكاهل.

(٧)_ شفَّني: أنحلني ، الوجد : شدة الحب

قمـا زال شـربي الـراحَ حتَّـى أشَـرَّنِي صديقي ، وحتَّى ساءني بعضُ ذلكِ[١]
وَلا غَـــروَ إلاّجـــارَتي وَسُـــؤالُها: ألا هَـل لنـا أهـلٌ؟ سُـئِلتِ كَـذلِكِ[٢]
تُعَيِّـرُ سَـيري فـي الـبِلادِ وَرِحلَتـي، ألا رُبَّ دارٍ لـي سِـوى حُـرِّ دارِكِ[٣]
وَلَـيسَ اِمـرُؤٌ أفنـى الشَـبابَ مُجـاوِراً سِـــوى حَيِّـــهِ إلا كَـــآخَرِ هالِـــكِ[٤]
ألا رُبَّ يَـومٍ، لَـو سَـقِمتُ لَعـادَني نِســاءٌ كِـرامٌ مِـن حُيَـيٍّ وَمالِـكِ[٥]
وَمِـن عـامِرٍ، بـيضٌ كَـأنَّ وُجوهَهـا مَصـابيحُ لاحَت فـي دُجـىً مُتَهالِكِ[٦]
ظَلِلتُ بِـذي الأرطـى، فُوَيـقَ مُثَقَّـبٍ، بِبيئَـــةِ سَـــوءٍ، هالِكـــاً أو كَهالِـــكِ[٧]
تَـــرُدُّ عَلَـــيَّ الـــريحُ ثَـــوبِيَ قاعِـــداً إلـــى صَـــدَفيٍّ كَالحَنيَّـــةِ بـــارِكِ[٨]

يتحدث طرفة عن ألم الفراق والغربة التي يعيشها ويعانيها ، متنقلاً بين الماضي الجميل والحاضر البائس ، وقد قدم لنا تجربة الوحدة والغربة ، من خلال معجمه اللوني الذي تشكل من مفردات تمثّل خلايا لونية مترادفة (الأبيض ـ الأخضر)هذان اللونان يتشكلان في ثلاثة سياقات (الحيوان ، الإنسان ، النبات)

(١)ـ الراح: الخمر ، أشرني : نعتني بالشر
(٢)ـ لا غرو: لا عجب ، جارتي : المرأة من القوم الذين أنزل بينهم وأجاورهم .
(٣)ـ حر الدار: وسطها وأشرف مكان فيها.
(٤)ـ أفنى: أمضى.
(٥)ـ سقمت: مرضت ، عادني : زارني ، نساء كرام : نساء أصيلات، حيي ومالك :من بني بكر بن وائل
(٦)ـ من عامر: أي نساء من عامر ، بيض : نعت للنساء؛ والبياض من صفات النور عند العرب؛ بيض: نيِّرات الوجوه، لاحت : لمعت وأضاءت ، الدجى : الظلام ، المتحالك : المتزايد السواد .
(٧)ـ الأرطى: من شجر الرمل ، مثقب : طريق في حرة وغلظ ، البيئة : حالة المبيت؛ ومبيت سوء: مبيت ردي.
(٨)ـ صدفي: جمل منسوب إلى الصدف، وهم قبيلة من البحرين، أو بطن من كندة ، الحنية: القوس، بن العبد، طرفة، ، الديوان ، شرح سعدي الضناوي، (بيروت: دار الكتاب العربي ، ٢٠٠٤م)ص ١٩٦.

- **اللون الأبيض في سياق الحيوان :**

وَمــا دونَهــا إلاّ ثَــلاثٌ مَــآوِبٌ قُدِرنَ لِعيسٍ مُسنِفاتِ الحَوارِكِ[١]

يتحدث عن المسافة التي تبعده عن ديار المحبوبة ، حيث تقدر بثلاثة أيام ، إذا كان السفر على النوق البيضاء الكريمة ، واللون الأبيض لون التفاؤل والإشراق[٢]، فالشاعر استخدم هذا اللون الدال على الإيجابية ؛ كتعويض عن الحالة النفسية السيئة التي يعيشها ، "حين أسرف على نفسه باللهو والخمر والعبث ، فأخذ أهله يلومونه ويعاتبونه ، حتى ضاق بعتابهم ، فاقتاد راحلته ، يسير متنقلاً بين القبائل "[٣]

فكان استخدامه للون الأبيض بحثاً عن حياة أكثر سعة وإشراقاً من الموقع الذي يعيشه ، ولأن المحبوبة مصدر الإشراق والنور قد رحلت ؛ فكان لابد أن تكون الوسيلة التي يلحقها بها ، تماثلها في الإشراق ، إنه يتحدث عن إشراق يظلل علاقات الحب ، بدلاً من الجفوة بينه وبين قبيلته .

- **اللون الأبيض في سياق الإنسان :**

وَلا غَــروَ إلا جــارَتي وَسُــؤالُها: ألا هَــل لَنــا أهــلٌ؟ سُــئِلتِ كَــذَلِكِ
تُعَيِّــرُ سَــيري فــي الــبلادِ وَرِحلَتــي ألا رُبَّ دارٍ لَــي سِــوى حُــرُّ دارِكِ
وَلَـيسَ اِمـرُؤٌ أفنـى الشَـبابَ مُجـاوِراً سِــوى حَيِّــهِ إلّــا كَــآخَرَ هالِــكِ
ألا رُبَّ يَــومٍ لَــو سَــقِمتُ لَعــادَني نِســاءٌ كِــرامٌ مِــن حُيَــيٍّ وَمالِــكِ
وَمِــن عــامِرٍ بــيضٌ كَــأنَّ وُجوهَهــا مَصـابيحُ لاحَـت فـي دُجـىً مُتَهالِـكِ[٤]

---

[١]_ابن العبد، طرفة، الديوان، شرح سعد الضناوي، (بيروت: دار الكتاب العربي،٢٠٠٤م)،ص١٩٦,١٩٧

[٢]_ عمر، أحمد مختار، اللغة واللون ، ط٢، (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٧)ص٢٢١.

[٣]_ الشنتمري، أبو الحجاج يوسف بن سليمان، أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، شرح محمد عبد المنعم حجازي، (بيروت: دار الجيل،١٩٩٢)،ص١١/٢.

[٤]_ بن العبد، طرفة، الديوان، شرح سعدي الضناوي، (بيروت: دار الكتاب العربي،٢٠٠٤م)،ص ١٩٦، ١٩٧.

بعد أن تألم لفراق المحبوبة ، ذكر ألماً آخر يؤرِّقه ، وهو واقعه البائس حيث الغربة والوحدة ، التي يزيد من شدتها وصعوبتها جارته التي ما تفتؤ تسأله عن أهله ، فهو بهذا الذل الذي يلقاه في غربته كالميت ، وهذا ما جعله يعود بذكرياته للماضي في وقت مرضه ، حين كانت تعوده نساء بيض كريمات من حيي ومالك وعامر ، فلا زالت المرأة عنده مصدراً للإشراق والضياء في ظلام الغربة ، فيأخذ اللون الأبيض دلالة الأمل في الواقع البائس ، وترقب الفرج في وقت العسر ، وهذا ما جعل الشاعر طرفة ينتقل من اللون الأبيض إلى اللون الأخضر .

-اللون الأخضر في سياق النبات :

ظَلِلتُ بِذي الأرطى فُوَيقَ مُثَقَّبٍ ببيئَـةِ سَـوءٍ هالِكـاً أو كَهالِـكِ[١]

ذكرى مبيته بين أهله ، حيث تحيطه العناية والرعاية ، أعادته بحركة معاكسة إلى ذكرى مبيت آخر في موضع ذي الأرطى ، وقد كان من الموت قاب قوسين أو أدنى ، وذكره للون الأخضر المتمثل في (الأرطى) يرتبط بروح الدفاع والمحافظة على النفس[٢] ، كما يكشف عن حب الشاعر للحياة ، ورغبته بالتمتع بشبابه رغم الواقع السيء ، لارتباط هذا اللون بالطبيعة الخصبة ، فبعد أن انقطعت الأواصر بينه وبين قبيلته ، راح يبحث عن لون يبعث في نفسه البهجة والسرور .

وهكذا يترادف اللون الأبيض مع الأخضر عند طرفة ، حين يتحدث عن شعوره بالغربة ، فهو يحكي أزمة علاقة ، لذلك نراه يحاول أن يزرع علاقات بين الألوان في النص ؛ كتعويض عن النقص الذي يواجهه في العالم الخارجي ، من

---

[١] ـ ابن العبد، طرفة ، الديوان، (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤)ص ١٩٧.

[٢] ـ عمر، أحمد مختار، اللغة واللون ،ط٢، (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٧)ص ١٤٥.

انقطاع الصلة بينه وبين قبيلته ، فراح يقيم علاقة مع كل ما هو كائن حي، من خلال الألوان الباردة (الأبيض ، الأخضر)

العيس ، النساء البيض ، الأرطى
حيوان ، إنـــــسان ، نبـــات

فضيق نفسه جعله يبحث عن ألوان أكثر سعة وإيجابية من خلال تشكيل لوني مجرد من الصورة .

وفي مقابل الدوال اللونية الترادفية الباردة ، جاءت الدوال اللونية الترادفية الساخنة في قصيدة عند لبيد ، يعبر فيها عن حزنه لفقد أبي البراء مالك بن عامر ، ملاعب الأسنة ، عندما أقدم على قتل نفسه ، باتكائه على سيفه بعد أن أسرف في احتساء الخمر ، حين هَرِمَ وأسنَّ ، وخرجت بنو عامر عن طاعته ، وخالفت آراءه ، متهمة إيَّاه بالعجز والخرف .

يقول لبيد :[١].

قومـــا تَجوبـــانِ مَـــعَ الأنـــواحِ[٢]
.....
فـــي مَـــأتَمٍ مُهَجِّـــرِ الـــرَواحِ[٣]
يَخمِشْـــنَ حُـــرَّ أوجُـــهٍ صِـــحاحِ[٤]
في السُلُبِ السودِ وَفي الأمساحِ.[٥]

يتحدث لبيد عن النائحات اللواتي يبكين عمه ، وذكر ما يقمن به من فعل الخمش في (يَخمِشْنَ حُرَّ أوجُهٍ صِحاحِ)[٦]، وفعل الخمش ينتج عنه الدم ، مما يوحي بوجود اللون

---

[١]– ابن ربيعة، لبيد، الديوان، شرح عمر فاروق الطباع ، ط١، (بيروت: دار الأرقم، ١٤١٧هـــ١٩٩٧)، ص٤٥.

[٢] _جوبان: الثوب أو القميص قطعه ، الأنواح: النائحات من النساء جمع نوح واحدة النائحات نائحة.

[٣] المأتم: مجتمع الناس وقد غلب على مجتمعهم في مناسبات الحزن، المهجر: أي مبكر، الرواح: الرجوع في المساء

[٤] يخمشن الأوجه: يخدشنها ويلطمنها.

[٥] الأمساح : الثياب المتخذة من شعر ، السلب : الثياب السوداء وهي ثياب المآتم لأن السواد هو الرمز الغالب في مثل هذه المجتمعات .

[٦] السابق ، ٤٥.

الأحمر ضمناً ، واللون الأحمر هنا يأخذ طابع الحزن والألم ، وقد جاء هذا اللون في صيغة الفعل المضارع (يخمشن) مما يعطي دلالة التجدد والاستمرار ، فحزن لبيد على عمه حزن دائم .

ثم اتبع لبيد اللون الأحمر بلون آخر مرادف له في القتامة والحرارة ، وهو اللون الأسود ، في قوله :

في السُلُبِ السودِ وَفي الأمساح[١]

ذكر لبيد لون ثياب النائحات ، وهو اللون الأسود ، ونلحظ أن هذا اللون قد أخذ دلالة نفسية ، حيث أن لبس الملابس السوداء يدل على نفسية حزينة ، إنه انغمار لوني في السواد والقتامة ، وقد أخذ اللون الأسود كذلك دلالة اجتماعية ، حيث كانت النساء تلبس الملابس السوداء في المآتم والأحزان ، ليتواءم الإحساس الداخلي مع اللون الخارجي للملابس ، في تشكيل دلالة الألم والحزن .

إن الشاعر لبيد استخدم لونين ينتميان إلى قائمة الألوان الساخنة (الأحمر ، الأسود) في تشكيل مجرد من الصورة ، ليعبر عن حالة الفقد والحزن ، وقد جمع هذين اللونين في المرأة النائحة التي تنوح على عمه ، فهي تخمش وجهها وتلبس الأسود ، مما يعمق دلالة الحزن والألم .

وفي مقابل دلالة الموت والحزن ، تبرز الدوال اللونية الساخنة الترادفية لتشكل دلالة الكرم عند الشاعرعبد يغوث بن وقاص ، في قصيدته التي يقول فيها :[٢]

---

[١]ـ بن ربيعة، لبيد، الديوان،ط١،(بيروت دار الأرقم، ١٤١٧هـ ١٩٩٧)، ص٤٦

(٢)ـالمفضل، الضبي، المفضليات ،ص١٥٨

وَتَضـــحَكُ مِنّـــي شَـــيخَةٌ عَبشَـــمِيَّةٌ كَـأن لَـم تَـرى قَبلـي أسـيراً يَمانِيـا [١]
وَقَــد عَلِمَــت عرســي مُليكَــةُ أنَّنــي أنـــا اللّيـــثُ مَعـــدُوّاً عَلَـــيَّ وَعادِيـــا

وَقَـد كُنـتُ نَحّـارَ الجَـزورِ وَمُعمِـلَ ال مطـيِّ وأمضـي حيـث لاحـيَّ ماضـيا
وَأنحَـــرُ لِلشَـــربِ الكِـــرامِ مِطِيَّتـــي وَأصـــدَعُ بَـــينَ القَينَتَـــينِ ردائِيـــا[٢]
وَكُنـتُ إذا مـا الخَيـلُ شَمَّصَـها القَنـا لبيقـاً بِتَصـريفِ القَنـاة بنَانِيـا[٣]
وَعادِيَـــةٍ سَـــومَ الجَـــرادِ وَزَعتُهـــا بِكَفّـي وَقَـد أنحَـوا إلَـيَّ العَوالِيـا[٤]
كَـأنِّيَ لَـم أركَـب جَـواداً وَلَـم أقُـل لِخَيلِـيَ كُـرّي نفّسـي عَـن رِجالِيـا
وَلَـم أسـبَإِ الـزِقَّ الـرَوِيَّ وَلَـم أقُـل لأيسارِ صِدقٍ أعظِموا ضَوءَ نارِيا[٥]

يتحدث الشاعر عن قصته في الأسر ، وما لقيه من سخرية نساء تميم به ، ثم فخر بشجاعته ، وكرمه ، وبراعته في القتال.

وحين تحدث الشاعر عبد يغوث عن تجربة الكرم ؛ ابتدأ من مجيء الضيف ، ثم نحر الجزور:

وَقَد كُنتُ نَحّارَ الجَزورِ وَمُعمِلَ ال مطيِّ وأمضي حيث لاحي ماضيا[٦]

وبعد أربع أبيات يذكر النار التي كانت سبباً في مجيء الضيف :

---

[١] _ عبشمية : نسبة إلى عبد شمس

[٢] _ الشرب: جمع شارب ، المطية : البعير ههنا، أصدع : أشق، العينة : المغنية .

[٣] _ شمصها : نفرها .

[٤] _ وعادية : يريد وخيل عادية ، سوم الجراد : انتشاره في طلب المرعى ، وزعتها: كففتها ، أنحوا إلي : وجهوا إلي.

[٥] _ السباء: اشتراء الخمر، الروي: أراد به الممتلىء ، الأيسار: الذين يضربون القداح.

[٦] _ الضبي ،المفضل ، المفضليات،ط٦، (بيروت:١٣٨٣م)ص ١٥٨.

كَـأنِّيَ لَـم أركَـب جَـواداً وَلَـم أقُـل لِخَيلِـيَ كُـرّي نَفِّسـي عَـن رِجالِيـا
وَلَـم أسـبَإِ الـزِقَّ الـرَوِيَّ وَلَـم أقُـل لأيسارِ صِدقٍ أعظِموا ضَوءَ ناريا[١]

فقدم الشاعر عبد يغوث اللون الحمر (لون دم الجزور) على اللون الأصفر (لون النار)، مع أن تسلسل الأحداث في الواقع المعيش يتم حسب ما يلي :

١ – إشعال النار (اللون الأصفر).
٢ – مجيء الضيف .
٣ – نحر الجزور(اللون الأحمر).

وسبب ذلك هو أن اللون الأحمر لون ماثل في مخيلة الشاعر ، لقرب وقت قتله ، ذلك أنَّ الشاعر قال هذه القصيدة وهو في الأسر ، حين شدت بنو تميم لسانه لئلا يهجوهم "فلما لم يجد من القتل بداً ، طلب إليهم أن يطلقوا لسانه ، ليندم أصحابه ، وينوح على نفسه ، وأن يقتلوه قتلة كريمة ، فأجابوه ، وسقوه الخمر ، وقطعوا له عرقاً يقال له الأكحل ، تركوه ينزف حتى مات ، فقال هذه القصيدة حين جهز للقتل"[٢].

وكأن الشاعر حين تحدث عن نحره للجزور وإكرامه للضيف ، يومئ إلى أن الضيف في الصحراء أسير مثله ، قد وقع في مصيدة من مصائد الموت التي نصبتها له الصحراء ، واللون الأصفر المتمثل في النار المشتعلة ليلاً ، يعد بصيص أمل في الحياة، لأنه يحرر الضيف من أسر التيه في الصحراء ، حيث يسير الضيف نحو هذا اللون الأصفر ، بحثاً عن مأوى يؤيه .

[١]_ الضبي، المفضل ،المفضليات، ص ١٥٨.
[٢]_ السابق ،١٥٥.

واللون الأحمر لون الدم الناتج عن نحر الجزور ، يعد رافداً آخر من روافد الحياة ، حين يسدُّ الضيف به لهيب جوعه ، بعد رحلة سفر شاقة مضنية ، فيكفه من أسر الجوع ، وبذا يغدو الدال الأصفر والدال الأحمر المترادفين ، دالَّين نشيطين ، يشيران إلى تجربة الكرم عند الشاعر عبد يغوث ، فأنتج اللونان (الأصفر و الأحمر) سلسلة من المسارات التأويلية ، يعبر عنها الرسم التالي .

اللون الأصفر	إشعال النار ←مجئ للضيف التائه ←إنقاذ حياة الضيف
اللون الأحمر	نحر الجزور←إطعام الضيف الجائع←سد جوع الضيف

فيترادف اللون الأصفر مع اللون الأحمر في تشكيل دلالة الحياة التي يهبها هذان اللونان للضيف ، إلا أن الشاعر حين أتى بالتركيب (كأني لم) في قوله :

كَـأنِّيَ لَـم أركَـب جَـواداً وَلَـم أقُـل لِخَيلِـيَ كُـرّي نَفِّسـي عَـن رِجالِيـا
وَلَـم أسـبَإِ الـزِقَّ الـرَوِيَّ وَلَـم أقُـل لأيسارِ صِدقٍ أعظِموا ضَوءَ ناريا[1]

حين أتى الشاعر بذلك التركيب مع تكراره لحرف النفي (لم) أربع مرات ، هذا الحرف الذي يفيد قلب المعنى ؛ قلب دلالة الحياة التي دل عليها اللونان الأصفر والأحمر ، إلى دلالة أخرى وهي دلالة الموت ، ليصبح اللون الأحمر معبراً عن لون دمه الذي سيراق عند قتله وهو في الأسر ، ويصبح اللون الأصفر معبراً عن نار الحرب التي أحرقته ، حين اشترك بالقتال فيها ، فوقع في الأسر ، فانقلبت الألوان عليه (الأصفر ، الأحمر) بعد أن كانت أداة يهب بها الحياة للضيف في واقع الجدب الكائن ، فيخرجه من أسر الجوع والتيه ، أصبحت أداة تقتل الشاعر وتحرقه .

[1] الضبي، المفضل ، المفضليات، ص ١٥٨.

وفي قراءة أخرى للون الأصفر لون النار في البيت :

وَلَـم أسـبَإِ الـزِقَّ الـرَوِيَّ وَلَـم أقُـل لأيسارِ صِدقٍ أعظِموا ضَوءَ ناريا[١]

يتراءى اللون الأصفر الناري ليعبر عن معنى النفس الإنسانية ، وانطفاء هذا اللون يعبر عن معنى الموت ، وقد أفرد الجاحظ في كتابه الحيوان فصلاً تحدث فيه عن (شبه ما بين النار والإنسان) وكان مما قال فيه :

" وصف لي بعض الأوائل شبه مابين النار والإنسان ؛ فجعل ذلك قرابة ومشاكلة ، .....وإنما قضيت لها بالقرابة ؛ لأني وجدت الإنسان يحيا ويعيش حين تحيا النار ، وتعيش وتموت وتتلف حيث يموت الإنسان ويتلف ، وقد تدخل نارٌ في بعض المطامير والجباب ، والمغارات والمعادن ، فتجدها متى ماتت هناك ؛ علمنا أن الإنسان متى صار في ذلك الموضع مات ؛ ولذلك لا يدخلها أحد ما دامت النار إذ صارت فيها ماتت .

ولذلك يعمد أصحاب المعادن والحفاير إذا هجموا على فتق في بطن الأرض ، أو مغارة في أعماقها أو أضعافها ؛ قدموا شمعة في طرفها ، أو في رأسها نار ، فإذا ثبتت النار وعاشت ؛ دخلوا في طلب الجواهر من الذهب وغير ذلك ؛ وإلا لم يتعرضوا له ، وإنما يكون دخولهم بحياة النار ، وامتناعهم بموت النار .. .. ومما يشبه النار فيه بالإنسان ؛ أنك ترى للمصباح قبل انطفائه ونفاد دهنه اضطراما وضياءً ساطعاً وشعاعاً طائراً ، وحركة سريعة ، وتنقضاً شديداً ، وصوتاً متداركاً ، يخمد المصباح ، وكذلك الإنسان ، له قبل حال الموت ، ودوين انقضاء مدته بأقرب الحالات ، حال مطعمة ، تزيد في القوة على حاله قبل ذلك أضعافاً ، وهي التي يسمونها راحة الموت ، وليس له بعد تلك الحال لبث "[٢]

[١] الضبي، المفضل، المفضليات، ص ١٥٨.

[٢] الجاحظ،الحيوان ٥/١٠٩ – ١١١.

تلك النار التي يتحدث عنها الشاعر عبد يغوث ، والتي كان يوقدها ليدعو السائرين في الظلام إلى الطعام ، ليست بعيدة عن النار التي حدثنا عنها الجاحظ ، من أنهم كانوا يستشعرون بها إمكانية حياة الإنسان في بعض المواضع ، فإذا اشتعلت النار ؛ كان ذلك إيذاناً بإمكانية المكوث في ذلك المكان ، وإذا خمدت ؛ كان ذلك إنذاراً بموت يتهدد الإنسان .

انطلاقاً من تلك الرؤية ، نستطيع أن نربط بين اللون الأصفر الناري عند عبد يغوث ، والمتمثل في النار المشتعلة التي يوقدها للضيفان ، وبين حالة أيام الرخاء وسعة العيش ، ثم غياب اللون الأصفر ، بانطفاء تلك النار في قوله :

كَـأَنِّيَ لَـم أركَـب جَـواداً وَلَـم أقُـل لِخَيلِـيَ كُـرّي نَفِّسـي عَـن رِجالِيـا
وَلَـم أسـبَإِ الـزِقَّ الـرَوِيَّ وَلَـم أقُـل لأيسارِ صِدقٍ: أعظِموا ضَوءَ نارِيا[1]

فغياب اللون الأصفر في البيت الشعري ، ينذر بموت الشاعر عبد يغوث وذهاب نفسه ، وهنا يقترن اللون الأصفر الناري بالروح ، فبقاؤه يعني : بقاء الروح في الجسد ، وغيابه يعني خروج تلك الروح ومفارقتها للجسد .

وهكذا يترادف اللون الأصفر مع اللون الأحمر في تشكيل أراد الشاعر أن يوهمنا فيه أنه يفخر بكرمه ، ولكن التشكيل اللوني الترادفي كشف عن حزن الشاعر الشديد ورثائه نفسه .

[1] الضبي، المفضل، المفضليات ،١٥٨.

ويلحق بالدوال اللونية المجردة من الصورة تشكيل آخر هو : الدوال اللونية المجردة عن الحسيّة " فالصور والمحسوسات عامة ، كانت هي الوسيلة الأولى للإدراك ، ولم يكن للإنسان طريق على المعرفة سواها .. .. ثم بعد ذلك بدأ ينساب شعاع المعرفة من وراء هذه المحسوسات ، ويشق طريقه إلى عقل الإنسان وبعد زمن متطاول ؛ بدأ الإنسان يجرد المعاني ويستخلصها من الأشياء وبدأ الإدراك الذهني وسيلة ثانية من وسائل المعرفة ، وبدأت اللغة المجردة في أثر ذلك ، وانتزعت الكلمات من الصور والجسام ؛ لتتمخض للدلالة الذهنية ، وحين تتأمل أكثر كلمات اللغة ، ونراجع أصولها واستعمالاتها ؛ تجد الدلالة الحسية كامنة هناك ، وهذا باب جليل وممتع "[١] ومن ذلك كلمة (تزدهينا) التي جاءت في معلقة عمرو بن كلثوم في إحدى روايات هذا البيت :

بِـأيِّ مَشـيئَةٍ عَمـرَو بـنَ هِنـدٍ تُطيـعُ بِنـا الوُشـاةَ وَتَزدهينـا[٢]

يشرح ابن النحاس المعنى السياقي : زهى فلان علينا ، وازدهى بنا إذا تكبر علينا ، ويقال " زهاه الله : جعله متكبِّراً " ثم يروي عن الأصمعي أنه يقال : "أزهى النخل ، إذا ظهرت صفرةُ ثمره ، وحمرته ، ولا يعرف زها النخل بغير ألف " وذكر غير الأصمعي : زهى البسر ؛ إذا احمرَّ أو اصفرَّ"[٣]

ورأى بعض الدارسين أن مفردة (تزدهينا) الواردة في البيت السابق ؛ تمثل انتقال الدلالة الحسية (أزهى النخل وزهى البسر) الدالة على الجمال والعلو ؛ إلى المجرد الذهني بمعنى الخيلاء والتكبر[٤]

---

[١] أبو موسى،محمد، التصوير البياني، ط٤، (مصر، مكتبة وهبة ، ١٤٨١هـ، ١٩٩٧م)ص ١٥٠ .

[٢] شرح ابن النحاس ، ٦٥١.

[٣] المرجع السابق..

[٤] الداية، فايز، علم الدلالة العربي،(بيروت: دار الفكر)ص ٣٠٤.

وانطلاقاً من الرأي السابق لنا أن نتصور اللون الأصفر ، ورديفه الأحمر المتمثلين في البسر ؛ قد تطورا من دلالتهما الحسية ؛ إلى الدلالة المجردة ، والتي تعني التكبر والزهو والخيلاء.

والحلقة الأولى لتطور تلك الدلالة مرتبطة بالأثر اللوني الذي يحدثه اللونان الأحمر والأصفر في نظر المشاهد لهما ، وهما في شكل ثمرة أعلى النخلة ، هذان اللونان حين يجتمعان ؛ فإنهما يحملان طاقة جذب للناظر إليهما ، وخاصة أن الأرضية التي يقفان عليها في النخلة ، هي أرضية خضراء اللون ، ورغم تشكلهما تشكلاً حسياً في شكل ثمرة أعلى النخلة ، إلا أنهما يبدوان أيضاً مجردين من الحسية ، تجريداً يوحي بالعلو والخيلاء ، نظراً لما يشتملان عليه من موجات ضوئية طويلة ، وحين يطلُّ اللون الأصفر واللون الأحمر للناظر من أعلى النخلة ؛ فإنه سيشعر ببعد المسافة التي تبعده عنهما ، ذلك البعد الواقعي الناتج عن طول النخلة نتج عنه بعد نفسي ، ارتبط هذا البعد النفسي بالإحساس بالزهو والخيلاء والتكبر ، مما جعل الدال (تزدهينا) ينتقل من الدلالة الحسية (الثمر الأحمر و الأصفر) إلى الدلالة المجردة وهي الزهو و الخيلاء .

واللونان الأحمر والأصفر من ألوان الزينة التي ارتدتها النخلة ، كالإنسان الذي يرتدي حلة ملونة فيزدهي بحلته المميزة ، ويختال ، كما يزهو الثمر في أعلى النخلة وهكذا قدم عمرو بن كلثوم المعنى الذهني بخصائص حسية ، برزت في اللونين الأصفر والأحمر المترادفين وهما أعلى النخلة.

-الدوال اللونية المتباينة :

هي الألوان التي تحمل خصائص متقابلة ، وقد برز ذلك التقابل والتباين في الشعر الجاهلي بين اللونين الأبيض والأسود ، وبين النور والظلام ، عبر تشكيل لوني مجرد من الصورة ، تمثل عند العديد من الشعراء الجاهليين ، أمثال عنترة بن شداد في قوله :[١]

هَـــذِهِ نـــارُ عَبلَـــةٍ يـــا نَـــديمي ... قَـــد جَلَـــت ظُلمَـــةَ الظَـــلامِ البَهـــيمِ
تَتَلَظّـــى وَمِثلُهـــا فـــي فُـــؤادي ... نـــارُ شَـــوقٍ تَـــزدادُ بِالتَصـــريمِ[٢]
أضـــرَمَتها بَيضـــاءُ تَهتَـــزُّ كَالغُصـــ ... ـــن إذا مـــا اِنثَنـــى بِمَـــرِّ النَســـيمِ
وَكَسَـــــتهُ أنفاسُـــــها أرَجَ النَـــــدِّ ... فَبِتنـــا مِـــن طيبِهـــا فـــي نَعـــيمِ
كاعِـــبٌ ريقُهـــا أَلَـــذُّ مِـــنَ الشَهـــ ... ـــدِإِذا مـــا زَجَتْـــهُ بِنـــتُ الكُـــرومِ[٣]
كُلَّمـــا ذقـــتُ بـــارِداً مِـــن لَماهـــا ... خِلتُـــهُ فـــي فَمـــي كَنـــارِ الجَحـــيمِ[٤]
سَـــرَقَ البَـــدرُ حُســـنَها وَاِســـتَعارَت ... سِـــحرَ أجفانِهـــا ظِبـــاءُ الصَـــريمِ[٥]
وَغَرامـــــي بِهـــــا غَـــــرامٌ مُقـــــيمٌ ... وَعَـــذابي مِـــنَ الغَـــرامِ المُقـــيمِ

يضـعنا هـذا الـنص منـذ بدايتـه أمـام لـونين متضـادين : الأبـيض والأسـود ، المتمثلين في الضوء والظلام ، فالشاعر عنترة يخاطب نديمه ويوجه انتباهه في مقدمة القصيدة إلى نار عبلة التي حلت وأزالت ظلمة الليل البهيم ، والضوء عند عنترة يحمل

---

[١] بن شداد، عنترة، الديوان، شرح الخطيب التبريزي ، تقديم ، مجيد طراد ، (بيروت:دار الكتاب العربي ، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م)ص ١٩٢.

[٢] التصريم : الإنقطاع .

[٣] الكاعب : الفتاة التي نهد ثديها وأشرف ، بنت الكروم : الخمرة .

[٤] اللمى : السواد في باطن الشفة.

[٥] الصريم : القطعة من الرمل .

قيمة ترتبط ارتباطاً مباشراً بعقدة اللون الأسود لديه ، إنه يقيم مطابقة بين الضوء والظلام بين الأبيض والأسود ، لتأثره بأمور شخصية لديه ، فجاءت هذه المطابقة على سبيل التداعي التلقائي الناتج عن الشعور بالنقص ، وهذا ما دفع الشاعر إلى تكثيف ظلمة الليل من خلال تكرار المفردات التي تدور حول الظلمة والسواد (ظلمة الليل البهيم) فأصبح اللون الأسود عند عنترة لا يحيل إلى اللون وحده وإنما أصبح ذا دلالة عاطفية ، فامتدت تلك الظلمة على عدة مستويات :

١ – مستوى خارجي (ظلام الليل).

٢ – مستوى شخصي (سواد عنترة).

٣ – مستوى نفسي (الشعور بالضيق والألم الناتج عن عقدة السواد).

تلك الظلمة المتكاثفة لن يزيلها إلا ضوء نار عبلة ، ذلك لأنه أضاف النار إلى عبلة (هذه نار عبلةٍ يا نديمي) هذه الإضافة أدت وظيفة محددة ، أوقفتنا أمام بنيتين .

بنية حاضرة : نار عبلة.

بنية غائبة: نار غير عبلة .

ويترتب على ذلك أن : نار عبلة تجلو ظلمة ليل عنترة .

نار غير عبلة لا تجلو ظلمة ليل عنترة .

فالضوء في ذاته يشهد تناقضاً ، إذ لا يستطيع ضوء النار أن يزيل ما يشعر به عنترة من ظلم وظلمة إلا ضوء خاص ينبعث من النار التي توقدها محبوبته عبلة ، فيقف ضوء نار عبلة في مقابل ضوء نار غيرها ، ليشكل تناقضاً في حقلٍ لوني واحد هو الضوء ، إذ ينفرد ضوء نار عبلة بنمط متميز من الضياء ، ليضيء نمطاً خاصاً من الظلمة (ظلمة ليل عنترة) ويفصح عن هذا النمط المتميز من الضياء قوله (أضرَمَتْها بيضاء) فذكره للون الأبيض في مقابل (ظلمة الليل البهيم) يوحي بخصوصيته تلك النار ، فضياؤها مستمد من موقدها عبلة البيضاء ، لذلك انفرد ضوء تلك النار وحدها بجلاء ظلمة الظلام البهيم الذي يعيشه عنترة .

إن الظلمة المتكاثفة المركزة تحتاج لضوء متكاثف مركز أيضاً ، حتى يستطيع هذا الضوء أن يزيلها ، من أجل ذلك راح عنترة يذكر دوالاً تشير إلى تكاثف ضوء نار عبلة (تتلظى) (أضرمتها) فنحن أمام عاشق أسود ، وأنثى بيضاء معشوقة، ونظراً للتقاليد الجاهلية الجائرة القائمة على فكرة البياض والسواد ، سارع عنترة إلى بث عنصر في الأدوات التي يستخدمها في القتال ، فسيفه أبيض:

ضَـــرَبناهُمْ بِبـــيضٍ مُرهَفـــاتٍ تَقُـــدُّ جُســـومَهُم ظَهْـــراً وَبَطْنـــا
شَـــبيهُ الليـــلِ لـــوني غَيـــرَ أنّـــي بِفِعلـي مِن بَياضِ الصُبحِ أسنى[1]

إن إحساس عنترة بسلبية العلاقة مع قبيلته وعدم قدرته على الوصول للمحبوبة، بسبب تصادم اللونين الأبيض مع الأسود جعله يبحث عن نماذج داخل عالمه تؤكد أن إيجابية العلاقة في عالم العشق يجب أن تفضي إلى معنى الخير والجمال ، فعبلة توقد نارها ليعم النور في عالم عنترة المظلم ، وحين يرى عنترة ضوء نار عبلة أمامه ، فيكتوي بنار الشوق ولا سبيل إلى الوصول إليها لسواده ، حينئذٍ يحرق ضوءُ عبلة عنترةَ ، فتغدو عبلةُ مصدراً للنور والنار معاً ، فيشهد عنترة هذا الصراع القائم بين ظلام الظلم الذي يعيشه الناتج عن سواد جلده ، وبين النور المتمثل في عبلة التي يفصل بينه وبينها التقاليد الجاهلية القائمة على سلطة اللون .

واستناداً إلى القانون الأساسي للإدراك من قبل علماء النفس (النظرية الجشتالتية) تحت اسم (قانون الصورة / العمق) والذي يرى أن كل موضوع حي لا وجود له إلا من خلال علاقة مع عمق ما ، فالصورة والعمق يشكّلان بنيةً تناقضيةً ،

[1] بن شداد، عنترة، الديوان،شرح الخطيب التبريزي، تقديم، مجيد طراد، (بيروت: دلر الاكتاب العربي، ١٤٢٥هـ،٢٠٠٤)ص ١٩٥

وداخل المجال السمعي تتقابل الصورة والعمق ، واللون يتقابل في المجال البصري ، فبقعة حمراء لا تلحظ باعتبارها كذلك إلا إذا تمددت فوق عمق يكون من خصائصه في وقت واحد أنه ملون وغير أحمر[١] أقول استناداً إلى القانون السابق في علم النفس يقف عنترة بسواد جسمه مع سواد الليل في خلفية الصورة أو عمق الصورة ، وتشكل عبلة وضوء نارها الصورة فتتقابل الصورة (عبلة البيضاء + نارها المضيئة) مع العمق (عنترة الأسود + ظلام الليل) ،وعنترة يحاول أن يلغي الفرق بين الصورة والعمق (البياض والسواد) من خلال حبه لعبلة ، ليشكل مجالاً من الشمولية المتجانسة بين الصورة والعمق ، فيجعل النار تتقد في الصورة لتزيل (ظلمة الظلام البهيم) كما تتقد في داخله :

تَتَلَظّى وَمِثْلُها في فُؤادي نارُ شَوقٍ تَزدادُ بِالتَصريمِ[٢]

فيتلاشى الفرق بين الصورة (عبلة البيضاء ونارها) والعمق (عنترة الأسود وسواد الليل) بحيث يغلف الضوء ذات عنترة ، ويصبح في النهاية جزءاً منه ، لذلك جعل ضوء نار عبلة (الصورة) ذا كثافة عالية قوية تنشر الضوء في جميع أرجاء العمق ، فيختفي الظلام ، ويتلاشى الفرق بين الصورة والعمق ، بين الأسود والأبيض، على صعيد اللغة الشعرية ، في إطار الخريطة الذهنية لعنترة بن شداد .

[١] كوين، جون، النظرية الشعرية، ترجمة أحمد درويش، ط٤، (القاهرة، دارغريب، ٢٠٠٠م) ٤٨٠، ٤٨١، بتصرف.

[٢] بن شداد ، عنترة، الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تقديم، نجيد طراد، (بيروت: دار الكتاب العربي،١٤٢٥هـ،٢٠٠٤)ص١٩٢ .

ومن النماذج الشعرية التي تُجَلِّي التضادَ اللونيَّ بين الضياء والظلام قَولَ حاتم الطائي[١]:

أوقِـــد فَـــإنَّ الليـــلَ ليـــلٌ قَـــرٌ[٢]
وَالـــريحَ يـــا موقِـــدُ ريـــحٌ صِـــرٌ[٣]
عَســـى يَـــرى نـــارَكَ مَـــن يَمُـــرُّ
إنْ جَلَبَـــتْ ضَـــيفاً فَأنـــتَ حُـــرُّ

بدأ حاتم الأبيات بأمر مباشر يتضمن الضياء (أوقد) والفاعل لفعل الأمر هذا هو المخاطب ، ولم يصرح حاتم بذكره في البيت الأول ؛ وإنما كنى عنه في البيت الثاني بقوله (ياموقد) فناداه بصيغة اسم الفاعل لفعل الإضاءة (يوقد) فالعالم الذي يصوره حاتم عالم مظلم ، وفي فضاء هذا العالم المظلم ؛ يظهر ضوء نار حاتم لينير هذا الظلام ، فوظيفة الظلام متضادة تماماً مع وظيفة الضياء ، فإذا كان الظلام في البيئة الجاهلية مؤشراً على الضياع والتيه والهلاك في الصحراء ؛ فإن ضوء نار حاتم دال على حضور الحياة الكائن الإنساني ، فالمكان المظلم بفعل نار حاتم يتحول إلى مكان منير مضئ .

ضوء النار ← حياة للضيفان
ظلام الليل ← التيه في الصحراء مما يؤدي للهلاك.

---

[١] الطائي، حاتم، الديوان، شرح أبي صالح يحي بن مدرك الطائي ، تقديم رضا الحتي ، ط٣،(بيروت: دار الكتاب العربي ، ١٤٢٣، ٢٠٠٢)ص١١١، ١١٢

[٢] القر : البرد .

[٣] ريح صر : شديدة البرد ، أو الصوت .

فالشاعر حاتم يقيم مفارقة يسعى من خلالها إلى معاينة الحياة الإنسانية من زاوية التضاد بين النور والظلام ، ذلك لأن عقله منشغل بهذا التضاد ومفارقته المتنامية ، لذلك نراه يكرر دوالَّ الضياء في كل بيت (أوقد) ، (موقد) ، (نارك) فإذا أدى هذا الضياء فاعليته ؛ فإنَّ النتيجة تكون في البيت الأخير (إن جلبتَ ضيفاً فأنت حرٌّ)، فيغدو الضوء منتجاً لمعاني الحرية :

- بالنسبة للعبد المخاطب في القصيدة الحرية من الرق.
- بالنسبة لحاتم الحرية من سلطة المال

فيشكل المال طاقة مولده للثنائيات ؛إذ إنَّ المبيت في ظلام الليل البارد ، وعدم إيقاد النار يعني في العرف الجاهلي البخل والخضوع لسلطة المال ، وإشعال النار في ظلام الليل البارد يعني الكرم والتحرر من سلطة المال على النفس ، لذلك كان المخاطب عبداً، أمره حاتم أن يصنع فعل الكرام الأحرار ، فسماه (موقد) ونسب إليه النار (عسى يرى نارك من يمر) فإذا صنع صنيع الكرام الأحرار ؛ ونتج عن ذلك الصنيع مجئ الضيف؛ فإنه يصبح حراً ، لأنه بهذا الفعل تغلَّبَ على ظلام الليل بضوء النار ، كما تغلب على سلطة سواد العبيد بفعل الأحرار ، وحينئذٍ تكون الغلبة للضوء على الظلام،وهذا يقودنا إلى القول بأن معنى الضوء عند حاتم يتصل بالكرم اتصالاً وثيقاً .

وبقراءة أخرى للبيت نرى أن البيت الأخير بمثابة المفارقة المفاجئة للمتلقي ، إذ وجّه حاتم ذهن المتلقي في البداية إلى ظلام الليل (أوقد فإن الليل ليل قر) وإلى فاعلية ضوء النار في جلب الضيفان وإنقاذهم من ظلام الصحراء وبردها القارص (عسى يرى نارك من يمر) وحين يأتي الضيف ، نتوقع أن يأمر حاتم العبد بذبح الشاة وتقديمها للضيف ، ولكن حاتماً يعتق العبد من الرق ويدخله دائرة الحرية (إن جلبت ضيفاً فأنت حر) هذا يدلُّنا على أن حاتماً يتحدث عن علاقته بالمجتمع من

خلال التضاد القائم بين الضوء والظلام ، فالظلام بحلوله يقطع علاقته بالمجتمع ، لذلك يفزع إلى إزالة ذلك الظلام بضوء النار ، فإذا انتشر الضوء بفعل النار وأدى الضوء فاعليته وأتى الضيف ؛ فإن العبد يصبح حراً ليقيم العبد أيضاً علاقة جديدة مع مجتمعه ، علاقة قائمة على الحرية ، فيحمل الظلام عندئذٍ دلالة المقاطعة ، في مقابل دلالة التواصل التي يحملها الضوء .

وقد أبرز لنا عبيد بن الأبرص الدوال اللونية المتضادة في لوحة الطبيعة حين قال :[١]

وسَـــقى الرَبـــابَ مُجَلجِـــلُ ال ... أكنـــافِ لَمّـــاحٌ بُروقُـــهْ[٢]
جَـــونٌ تُكَركِـــرُهُ الصَـــبا ... وَهْنـــاً وَتَمريـــهِ خَريقُـــهْ[٣]
مَـــرْيَ العَســـيفِ عِشـــارَهُ ... حَتّـــى إذا دَرَّت عُروقُـــهْ[٤]
وَدَنـــا يُضـــيءُ صُـــبابُهُ ... غابـــاً يُضَـــرِّمُهُ حَريقُـــهْ[٥]
حَتّـــى إذا مـــا ذَرعُـــهُ ... بِالمـــاءِ ضـــاقَ فَمـــا يُطيقُـــهْ[٦]
هَبَّـــت لَـــهُ مِـــن خَلفِـــهِ ... ريـــحٌ يَمانِيَـــةٌ تَســـوقُهْ[٧]
حَلَّـــت عَزالِيَـــهُ الجَنـــو ... بُ فَـــثَجَّ واهِيَـــةٌ خُروقُـــهْ[٨]

---

[١] – ابن الأبرص ، عبيد، الديوان ، شرح أشرف أحمد عدرة، ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤١٤هـ)٨٤، ٨٥.

[٢] – الرباب : جبل بين المدينة وفيد ، مجلجل : سحاب ذو رعد ، الأكناف : جمع كنف: الجانب ، لماح : لماع .

[٣] – الجون : الأسود ، تكركره : تعيده مرة بعد أخرى ، الصبا : الريح الآتية من الشمال أو من الشرق ، وهناً : بعيد منتصف الليل ، تمريه : تنزل مطره ، الخريق : الريح الشديدة .

[٤] – مرى : مسح ضرعها لتدر ، العسيف : العبد أو الأجير ، العشار : اللقاح : النوق التي تحلب ، درَّت :حلبت .

[٥] – الصباب : الإنصباب ، الغاب : جمع غابة : الأجمة ، يضرمه : يوقده .

[٦] – ضاق ذرعه : لم يعد يحتمل .

[٧] – يمانية : ريح تهب من جهة اليمن . وقيل شامية .

[٨] – العزالي : جمع عزلاء : مصب الماء ، الجنوب : ريح الجنوب ، ثج : سال ، واهية : ضعيفة ، الخروق : الفرج .

يحدثنا عبيد بن الأبرص عن سحاب جون ، سقى جبل الرباب ، بُعَيْدَ منتصف الليل ، بمطر غزير ، تصحبه ريح شديدة ، وبرق لامع ، يضئ ظلام الليل ، وقد وصف الشاعر السحاب بالدال اللوني "جون" ، والجون "لفظ فارسي معرب ، معناه اللون ، ولكن استعمله بعض العرب ، وخصصه للأبيض ، والآخرون للأسود ، فصار من الأضداد "[١]نلحظ من النص السابق أن الدالَّ اللونيَّ (جون) قلق بين البياض والسواد ، فإذا كان السحاب الجون يعني البياض ؛ فإنه حينئذٍ يحمل دلالة إيجابية تدل على وجود الظل الذي يقي من أشعة الشمس اللافحة ، أما إذا كان السحاب الجون يعني السواد ؛ فإنه حينئذٍ يحمل دلالة مزدوجة بين السلبية الداله على الهدم والتخريب ، وبين الإيجابية الدالة على الخصب والنماء ، ولكن الشاعر حسم هذا الخلاف اللوني ، حين أفصح عن الزمن الذي يصف فيه هذا السحاب الجوني ، وهو بّعَيْدَ منتصف الليل حين قال :

جَونٌ تُكَركِرُهُ الصَّبا وَهناً وَتَمريهِ خَريقُه[٢]

والوهن : بعيد منتصف الليل [٣] ، وهذا يعني أن الشاعر يحدثنا عن سحاب أسود اللون، في الليل ، كما أن سياق القصيدة يبين أن السحاب سحاب مثقل بالماء ، وفي هذه الحالة لا يكون السحاب إلا أسود اللون ، مما جعل الدال اللوني (جون) لا يحمل إلا دلالة واحدة وهي السواد ، لكن قلق هذا الدال بين السواد والبياض ، جعل الشاعر يضفي على هذا السواد إضاءة وبريقاً ، بل جعل من السحاب الأسود مصدراً للنور في ليل غاب قمره حين حجبه السحاب ، وذلك من خلال البرق الأبيض الخارج من

[١] ظاظا ، حسن، كلام العرب من قضايا اللغة العربية ، (بيروت: دار النهضة العربية ، ١٩٧٦)ص ١١٢.

[٢] ابن الأبرص، عبيد، الديوان، ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٤م)ص٨٤.

[٣] ابن منظور، محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مادة وهن، ط١(بيروت: دار صادر، ١٤٠١هـ)

السحاب الأسود ، والذي تدل عليه المفردات التالية :(لماح بروقه) ، (يضئ) ، (يضرمه حريقه) فسواد السحاب مع سواد الليل ، ليس سواداً خالصاً صرفاً ، وإنما سواد يتخلله بياض ، مما يدلنا على أن الشاعر كان كان يغالب قسوة الظلام ، فيحاول أن يجعل النور يتسرب ليشمل كل شيء ، عن طريق الكمية الهائلة من الضوء المتشكل من لمعان البرق في ظلمة الليل وظلمة السحاب .

فنجد اللون الأسود مع الأبيض مثيراً للتضاد ، تضادٍ يجسده فكرة الموت والحياة، فمنظر السحاب الأسود ذي البرق اللامع في الليل المظلم ، يثير في النفس مشاعر قلقة متوترة بين الرهبة مما تسببه هذه البروق والصواعق من خراب وتدمير، وبين ما تجلبه هذه السحب المثقلة بالمطر من خير وخصب ونماء ، لذا كانت نفسية الشاعر قلقة بين معنى الموت ومعنى الحياة ، يعكس هذا القلق الدلالة الزمنية للفعلين الماضي والمضارع ، فقد تكرر الفعل الماضي في القصيدة ، سبع مرات ، في مقابل ست مرات للفعل المضارع ، فالشاعر عبيد يتمثل الموت بين عينيه حين يرى سواد الليل مع سواد السحاب ، وما يحدثه البرق من أصوات مرعبة ، كما أنه في الوقت نفسه تتراءى له الحياة في صورة خصبة نامية بفعل المطر ، مما جعل عاطفة الشاعر تتراوح بين الخوف والأمن .

وقد حقق عبيد بن الأبرص للسحاب الجون السيادة في القصيدة من خلال التباين في اللون ، كما يفعل الفنان " ففي التصوير الضوئي تتحقق السيادة عن طريق التباين في اللون بأن ينال الموضوع الرئيس تعريضاً مناسباً ، ويقل التعريض بالنسبة للموضوعات الثانوية في الصورة ، وذلك بأن يقدر التعريض بما يناسب شدة استضاءة الموضوع الرئيس (مركز السيادة) دون اعتبار للموضوعات الثانوية فتظهر قاتمة"[1] وفي القصيدة الكون كله مظلم بفعل سواد الليل ، وبفعل السحاب الجون الأسود ، ثم يلمع ضوء البرق في تلك الظلمة ، لتتحقق السيادة للسحاب الجون

[1] رياض، عبد الفتاح ، التكوين في الفن التشكيلي،ط١(القاهرة :دار النهضة العربية،١٩٤٧)،ص ١٨٩.

في القصيدة عن طريق التباين اللوني بين ظلام الليل وضوء البرق ، فقد عمل الشاعر على جعل الخلفية معتمة

جَـــونٌ تُكَركِـــرُهُ الصَّـــبا وَهْنـــاً وَتَمريـــهِ خَريقُـــه[١]

ثم زاد من كمية الضوء في مركز السيادة وهو السحاب ، بل وجعله مصدراً للضوء في ظلمة الليل البهيم

وَدَنـــا يُضـــيءُ صُـــبابُهُ غابـــاً يُضَـــرِّمُهُ حَريقُـــه[٢]

وهذا يعكس قدرة الشاعر الجاهلي على تصوير الطبيعة ، بمقدرة توازي مقدرة الفنان في التصوير الضوئي والفن التشكيلي ؛ إن لم تكن تفوقها ، ذلك لأن الشاعر يتجاوز المحسوسات ، فهو "لا يضعنا وجهاً لوجه أمام اللون ، وإنما يبعث فينا اللون من خلال الرمز الصغير الذي يدل به عليه "[٣] .

و حين تتنازع الشاعر مشاعر قلقة متوترة ، تأتي دوالُّه اللونية معبرة عن هذا القلق ، في تشكيل لوني يحمل دوالَّ متضادة ، كما في قول السليك :[٤]

ألا عَتَبَتْ عَلَيَّ فَصارَمَتني وَأعجَبَها ذُوو اللِّمَمِ الطِوال[٥]
فَإنّي يا اِبنَةَ الأقوامِ أُربي عَلى فِعلِ الوَضِيِّ مِنَ الرِجال[٦]
فَلا تَصِلي بِصُعلوكٍ نَؤومٍ إذا أمسى يُعَدُّ مِنَ العيَال[٧]

---

[١] ابن الأبرص ، عبيد، الديوان، ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٤هـ)ص ٨٤.

[٢] السابق ، ٨٥.

[٣] اسماعيل ، عز الدين، التفسير النفسي للأدب ، ط٤، (القاهرة: دار غريب)ص٤٩.

[٤] لبن السلكة، السليك، الديوان ،شرح سعدي الضناوي ،ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م)ص٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩.

[٥] صارمتني : قاطعتني ، ذو اللمم الطوال : المراهقون الذين يتركون شعرهم .

[٦] أربى: أزيد ، الوضي : النظيف الحسن ، الجميل .

[٧] لا تصلي بصعلوك: لا تتصلى به ، نوؤم: كثير النوم وذلك كناية عن البلادة والكسل وضعف الهمة ، يعد =

إذا أضـــــحى تفقَّـــــد منكبيـــــه وأبصـــر لحمَـــهُ حـــذَرَ الهـــزال[١]
وَلَكِـــن كُـــلِّ صُـــعلوكٍ ضَـــروبٍ بِنَصـــلِ السَـــيفِ هامـــاتِ الرجـــال[٢]
أشـــابَ الـــرَأسَ أنّـــي كُـــلَّ يَـــومٍ أرى لـــي خَالَـــةً وَســـطَ الرجـــال[٣]
يَشُـــقُّ عَلَـــيَّ أن يَلقَـــينَ ضَـــيماً وَيَعجِـــزُ عَـــن تَخَلُّصِـــهِنَّ حـــالي[٤]

يتحدث السليك عن علاقته بالمحبوبة ، هذه العلاقة التي تبدو متوترة ومحتدة ، سببها التفرقة الاجتماعية القائمة على التضاد بين اللونين الأسود والأبيض ، فالمحبوبة تبدي إعجابها بالرجال البيض الذين يطيلون شعورهم السوداء ، ويسبلونها ، ويعتنون بمظهرهم ليجتذبوا انتباه الفتيات بجمالهم ، وكل همّهم النوم وتفقد أجسادهم حذر الهزال ، بينما السليك فارس شجاع أسود ، علا رأسه الشيب ؛ بسبب رؤيته لأمه ومن هنَّ في مثل لونها الأسود ، يخدمن الرجال ، فتتداولهن أيديهم ، وتتحكم فيهن رغباتهم، فالشاعر السليك يمثل لنا مفارقة ، من خلال الثنائيات المتضادة لونياً ، فبدلاً من أن تنظر المحبوبة لشجاعته وحسن بلائه في الحرب ؛ إذ بها تعجب بمظهرغيره لسواد شعره ، واعتنائه بجسمه ، فتعكس الثنائيات المتضادة لونياً حالة من التنازع النفسي في شخصية الشاعر والذي يفصح عنه من خلال توالد الثنائيات المتضادة في القصيدة .

=من العيال: أي من الذين لايستطيعون القيام بأمر أنفسهم ، بل هم يحتاجون إلى من يرعاهم .

[١] أضحى: صار في الضحى .

[٢] ضروب: كثير الضرب، والضرب للسيف كما أن الطعن للرمح ، هامات: جمع هامة وهي الرأس.

[٣] أشاب الرأس: كناية عن أمر هائل يلم فيجعل شعر الرأس يبيض، خالة: أخت الأم والأخت هنا ليست كذلك بصلة الدم والنسب ، وإنما بصلة اللون الأسود والوضع المشترك في الرق والعبودية ، الرحال: جمع رحل ، وهو مترل الرجل ومسكنه وبيته وما يصحبه من أثاث، وسط الرحال: وسط منازل الرجال ومتاعهم.

[٤] يشق علي: يثقل علي ، الضيم: الظلم ، الذل ، عجز عن الأمر: قصَّر عنه ، تخّصهن: تنجيتهن .

صارمتني / أعجبها

أمسى / أضحى

ذوو اللمم الطوال / أشاب الرأس

نوؤم / ضروب

أبيض / أسود

إن حركة التضاد اللوني داخل النص تمنحه بعداً دلالياً ،إذ تثري النص وتعمق الشعور بالأسى ، مما يوحي بتوتر علاقة الشاعر بمجتمعه ، فجاءت الدوال اللونية متضادة متوترة ، فعلى الرغم من أن لون شعر السليك أبيض ، إلا أن جسمه أسود ، في المقابل شعر أولئك الذين أعجبت بهم محبوبته أسود مع أن جسمهم أبيض

وهكذا يحس الشاعر أنه أمام ضدين يحس من خلالهما بالتوتر والانفعال ، ومن خلال إثارة تلك الدوال اللونية المتضادة ؛ حاول السليك أن يصحح بعض المفاهيم الخاطئة ، وأن يخفف من سلطة اللون على الفكر الإنساني الجاهلي ، عن طريق لفت الانتباه إلى الفعل بدلاً من اللون ، فالرجل الذي ينبغي أن تعجب به محبوبته هو الشجاع الفارس القوي ، الذي يُبْلى بلاءً حسناً في الضرب والطعن ، بدلاً من الكسول الخامل ، الذي لا يهمه سوى شكله وجسمه:

فَلا تَصِلِي بِصُعلوكٍ نَؤومٍ إذا أمسى يُعَدُّ مِنَ العيَالِ[١]

[١]ابن السلكة، السليك ، الديوان، شرح سعدي الضناوي، ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي،١٤١٥,١٩٩٤م)ص ٨٨.

لذلك حين يتحدث السليك عن (ذوو اللمم الطوال) يبدأ بالحديث عن شكلهم ، ثم يعرج على فعلهم الدنئ ، أمَّا حين يتحدث عن نفسه ؛ فإنه يبدأ بفعله الشجاع ، ثم يعرج على شكله ، فيحمِّل الشاعر سواد الشعر دلالة سلبية في مقابل الدلالة الإيجابية التي يتضمنها الشعر الأبيض :

وَلَكِــن كُــلُّ صُــعلوكٍ ضَــروبٍ بِنَصــلِ السَــيفِ هامــاتِ الرجــالِ
أشــابَ الــرَأسَ أنّــي كُــلَّ يَــومٍ أرى لــي خَالَــةً وَسـطَ الرجــال[1]

فيتخذ الشعرُ من حيث اللون الدلالات التالية :

الشعر الأسود ← دال على خلو البال من التفكير والكسل

الشعر الأبيض ← دال على النشاط والتفكير الدائم.

فالرجل ذو الشعر الأسود رجل كسول ، خامل ، ليس له هم في الحياة ، يحب النوم ، وهو عالة على أهله ، لا يتحمل مسؤولية نفسه ، إذا أصبح ؛ تفقد جسده ، ليتأكد من صحته وعدم إصابته بالهزال والضعف ، وبهذا فإن الشاعر يحمل اللون الأسود للشعر دلالة سلبية ، محاولة منه في تغيير نظرة الإعجاب الصادر من محبوبته، في مقابل الدلالة الإيجابية التي يحملها للون الأبيض للشعر ، حيث أن صاحب الشعر الأبيض في نظر السليك – يعني نفسه – رجل نشيط ، قوي ، قد ابْيض شعره من همته العالية ، شجاع في المعركة ، يضرب هامات الرجال .

ونلحظ أن الشاعر حين مدح نفسه بشجاعته ، وحُسْنُ بلائه في القتال ، لم يذكر طعنه لخصمه وإراقة دمه ، وإنما خصص هامة خصمه بالذكر دون سائر بدنه

[1] ابن السلكة، السليك، الديوان، ط١، (بيروت: دلر الكتاب العربي،١٤١٥هـ،١٩٩٤م)ص ٨٩.

وَلَكِن كُلِّ صُعلوكٍ ضَروبٍ بِنَصلِ السَيفِ هاماتِ الرِجالِ[١]

فذكر ضرب الهامة في معرض الحديث عن الشعر الأسود والشعر الأبيض ؛ كان على سبيل الاستدعاء غير الواعي من نفس الشاعر المتألمة لإعجاب محبوبته بأولئك الذين يرخون شعورهم السوداء ، ويسبلونها ليجذبوا انتباه الفتيات ، فأراد السليك أن يلفت انتباه محبوبته بطريقٍ غير واعٍ إلى أن تلك الروؤس التي تحمل الشعور السوداء ، حين تقف في مواجهة الشاعر في المعركة ، ستنال ضربة قوية ، تفصل الهامة عن الجسد ، وهذا يعد انتصاراً للشاعر ، يخفف من شدة حنقه وغيظه .

وفي مقدمة القصيدة ، كان حضور ذات الشاعر واضحاً في قوله :

فَإِنّي يا اِبنَةَ الأقوامِ أُربي عَلى فِعلِ الوَضِيِّ مِنَ الرِجالِ[٢]

ثم غابت ذات الشاعر ، فكان يتحدث عن نفسه بأسلوب غير مباشر :

وَلَكِن كُلِّ صُعلوكٍ ضَروبٍ بِنَصلْ السَيفِ هاماتِ الرِجالِ[٣]

ثم عادت ذات الشاعر للظهور مرة أخرى في نهاية القصيدة :

أشـــابَ الـرَأسَ أنّـي كُـلَّ يَـومٍ أرى لـــي خَالَـــةً وَســـطَ الرجـــالِ
يَشُـــقُّ عَلَـــيَّ أن يَلقَـــينَ ضَـــيماً وَيَعجِـزُ عَـن تَخَلُّصِـهِنَّ حـالي[٤]

---

[١] ابن السلكة، السليك، الديوان، ط١، (بيروت: در الكتاب العربي،١٤١٥هـ،١٩٩٤م)ص ٨٩

[٢] السابق ، ٨٨.

[٣] السابق ، ٨٩.

[٤] السابق، ٨٩.

إن حضور ذات الشاعر ، يعكس ذاتية الشاعر ، فقد رجع السليك إلى الاندماج في خطابه بكيفية واضحة وصريحة ، عن طريق استعماله الضمير المتكلم (أني)، (أرى لي) وهذا الضمير يعود على الشاعر وحده دون غيره ، لأنه يعيش وحيدا ، لذلك نراه يلجأ لجعل اللون الأسود سبباً في إيجاد علاقة بينه وبين الإماء السود ، فجعل كل أمةٍ خالة له ((أرى لي خالة وسط الرحال) فراح يبحث عن علاقة بديلة ، تربطه بالجنس الآخر ، وقد أفصح عن ذلك نون النسوة (يلقين) ، (تخلصهن) ولكن حتى هذه العلاقة القائمة على اللون ؛ لا سبيل إلى الوصول إليها لقلة ذات اليد

يَشُقُّ عَلَيَّ أن يَلقَينَ ضَيماً وَيَعجِزُ عَن تَخَلُّصِهِنَّ حالي[١]

لذلك كانت هذه العلاقة القائمة على اللون الأسود سبباً في بعث الشيب الأبيض في الرأس (أشاب الرأس) فيصبح اللون الأسود ((سواد الإماء)) مع عدم القدرة على تخليصهن من الرق ؛ باعثاً للون الأبيض "بياض الشعر " بسبب الهم ، فيتَّحد اللون الأبيض مع الأسود في تشكيل دلالة الهم والحزن والتوتر ، وهذا يومئ إلى مفارقة يعيشها السليك ، تشهد عدة مقابلات

متكلم / مخاطب

ذكر / أنثى

حضور الذات / غياب الذات.

تلك التقابلات ليست إلا ثانوية ، أما المقابلة الأساسية فهي :

الأسود / الأبيض

[١] ابن السلكة، السليك الديوان، ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٥هـ،١٩٩٤م)ص ٨٩ .

وقد عبَّر الشاعر عن تجربة التضاد بين الأبيض والأسود بدوالَّ لونيةٍ مجردة من التشبيه والاستعارة ؛ لأنه لا يريد أن يقرب معنى معين ، ولكنه يريد أن يكشف ويجرد لمحبوبته حقائق الأمور ، فأتت دوالُّه اللونيةُ مجردةً من أي صورة.

المبحث الثاني

التشكيل اللوني المركزي

حين يوظف الشاعر اللون للدلالة على فكرة مركزية في القصيدة ، فإن اللون حينئذٍ يملأ المجال الإدراكي ، ويصبح حالة من حالات الذات ، بعد أن كان الإحساس به على أنه كيفية محايدة أو جزئية ، فينزع اللون إلى الانتشار ليحتلَّ مجمل الإدراك الحسي عند الشاعر، ومن ثم يمثل مركزاً تشع منه الدلالةُ داخلَ النص الأدبي .

ومن أمثلة ذلك اللونُ الأسودُ الذي جاء في قول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

يُـؤَرِّقُني التَـذَكُّرُ حـينَ أُمسـي ... فيرْدعُنـي مـع الأحْـزانِ نُكْسـي[١]
عَلـى صَـخرٍ وَأيُّ فَتـىً كَصَـخرٍ ... لِيَـومِ كَريهَـةٍ وَطِعـانِ خلـسِ
فلـم أسْـمعْ بِـهِ رزءاً لِجـنٍّ ... وَلَـمْ أسْـمَع بِـهِ رُزْءاً لإِنْـسِ
أشَـدَّ عَلـى صُـروفِ الـدَهرِ آداً ... وَأفصَلَ في الخُطوبِ بِغَيرِ لَبسِ[٢]
وأكـرم عنـد ضـر النـاس جهـداً ... لجـادٍ أوْ لجـارٍ أو لعـرْسِ[٣]
ألا يـا صـخر لا أنسـاك حتَّـى ... أفـارق مهجتـي ويُشَـقَّ رَمْسـي
يُـذَكِّرُني طُلـوعُ الشَـمسِ صَـخراً ... وَأذكُـرُهُ لِكُـلِّ غُـروبِ شَـمسِ
فلَـولا كَثـرَةُ البـاكينَ حَـولي ... عَلـى إخـوانِهم لَقَتَلـتُ نَفسـي
وَلَكِـن لا أزالُ أرى عَجـولاً ... وَنائِحـةً تَنـوحُ لِيَـومِ نَحـسِ[٤]
همـا كلتاهُمـا تَبْكـي أخاهـا ... عشِـيَّةَ رُزْئِـه أو غِـبَّ أمْـسِ
وَمـا يَبكـينَ مِثـلَ أخـي وَلَكِـن ... أُسَـلّي الـنَفسَ عَنـهُ بِالتَأسّـي[٥]

---

[١] النكس : الانتكاس ، معاودة المرض بعد البرء منه .

[٢] آداً : أي ، شدة ، بغير لبس : بغير اختلاف ولا طيش.

[٣] الجادي : الطَّالب ، العِرس : امرأة الرجل.

[٤] العجول: الثكلى .

[٥] الخنساء، تماضر، الديوان ، شرح أبي العباس ثعلب،تقديم فايز محمد، ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٥، ٢٠٠٥)ص ١٩٠,١٩١.

ترثي الخنساء أخاها صخراً في أبيات تقطر حزناً وألماً وحسرة، وقد غلبت القتامة على القصيدة من أول بيت فيها ، حيث نجد الخنساء تذكر صخراً وقت المساء حين يأتي الليل بلونه الأسود ، فيمتنع النوم عن الخنساء ، (فيرديني مع الأحزان نكسي) ، فالشاعرة تنظر للحياة بمنظار أسود ، حيثُ يخيِّمُ السوادُ على القصيدة ، وتبدأ الخنساء في ذكر محامد أخيها صخر وشجاعته في القتال "فقد عكس رثاؤها لصخر أهمَّ احتياجات المرأة الجاهلية للرجل القوي ، أعني الشعور بضرورة الفارس الحامي من السبي ، ومن شأن هذه القضية أن تستدعي إلى أذهاننا تلك النظرية الذاهبة إلى أن أصل القلق هو شعور الفرد بأن عليه أن يواجه الحياة وحده ، دون اعتماد على أحد من أقاربه، فقد شعرت الخنساء ، بانكشافها أمام زوابع الحياة بعد مقتل صخر ، وهو آخر من تبقى من أهلها "[١]

ويمتد ذلك السواد ، وتلك القتامة حين تفصح الخنساء بأنها لن تنسى أخاها صخراً حتى تدفن في القبر ، فيأخذ السواد دلالة الشمول لحياة الخنساء إلى مماتها ، كما أن فعل الدفن في القبر يحمل دلالة الإخفاء والتغطية والستر ، وكلها دلالات يتضمنها اللون الأسود .

يُذَكِّرُني طُلوعُ الشَمسِ صَخراً وَأَذكُرُهُ لِكُلِّ غُروبِ شَمسِ[٢]

الشطران متشابهان على مستوى التركيب

يذكرني = أذكره

طلوع = غروب

[١] اليوسف ، يوسف، مقالات في الشعر الجاهلي،ط٣، (لبنان: دار الحقائق ، ١٩٨٣م)ص٣٤١.

[٢] الخنساء، الديوان، ص ١٩١

الشمس = شمس

ولكن على مستوى المعنى متخالفان

طلوع الشمس / غروب الشمس

الضوء / الظلام

لكن الخنساء تساوي بين المعنيين (طلوع الشمس وغروب الشمس) بالفعلين (يذكرني) و(أذكره) فتذكّرُها لأخيها صخر في كلا الزمنين يحمل دلالة امتداد الحزن والقتامة ، حيث اتخذ الضوء والشروق طابعَ الحزن ، كما نلحظ أنها حين ذكرت طلوع الشمس في أول بيت ؛ سارعت لتعتيم هذا الضوء بذكرها لغروب الشمس.

ويتكرر الفعلُ المضارع في القصيدة اثنى عشرة مرة ، في مقابل أربع مرات للفعل الماضي، وهذا يفضي إلى أن الحزن قد أخذ دلالة الاستمرار والتجدد.

كما أن جميع الأشخاص الذين ذكرتهم الخنساء (الباكين ، عجولاً، النائحة) وجميع الأحداث (يؤرقني، لا أنساك ، أفارق مهجتي ، يشق رمسي ، لقتلت نفسي ، تنوح ، تبكي ، يبكين) يتمحوران حول مركز واحد هو الحزن الشديد الذي تحمله الخنساء في نفسها ، ذلك الحزن اتخذ طابع السواد والقتامة ، مما جعل اللون الأسود هو النواة المركزية التي تشع منها دلالة الحزن والفقد والثكل

الفصل الثاني

مستوى التشكيل الصوري

المبحث الأول:الصورة اللونية الجزئية

-التشبيه

-الاستعارة

-الكناية

المبحث الثاني:المشاهد اللونية الكلية

المبحث الثالث:مقومات الصورة اللونية

-الذاكرة

-الحواس

-الخيال

المبحث الأول

الصورة اللونية الجزئية

إن التعبير عن اللون بالصورة الشعرية بدلاً من التعبير التقريري المباشر ؛ لهو تعبير يتجاوز فيه الشاعر إطار الدلالة المعجمية للون ، مضيفاً إليه مجاورته غيره من الدلالات وتفاعله مع السياق العام للنص ، وبذلك يؤدي اللون دور الإيحاء والإيماء ، بدلاً من التصريح.

وقد تتغير دلالة اللون من صورة إلى أخرى تبعاً لموقعه في السياق ، وهو ما يسمى في فن الرسم (اللون المحلي واللون الجوي) " أي أن اللون المحدد لشيء ما يتغير حسب السياق الذي يرى فيه ، فمثلاً : ممكن لشيء أزرق يجاور شيئاً أحمر أن يصبح أزرقاً محمراً ، أو بنفسجياً في الشروط الانعكاسية المناسبة "[١] وكذلك دلالة اللون في السياق الشعري ، فإنها تتغير تبعاً للسياق الذي جاءت فيه ، وتبعاً للأثر النفسي والتغير والتحول الذي يتصل بمراحل حياة اللون[٢].

إن فهم دلالة اللون داخل الصورة الأدبية يتطلب فهم اللون في إطار الدلالة المعجمية ، ثم فهمه خارج إطار اللغة ، حيث الوسط الاجتماعي ، بما في ذلك سياق الحال للمتكلم والمخاطب ، والظروف المحيطة والبيئة ، أي حسب نظرية السياق كما حددها فيرث ،[٣] وبذلك نستطيع فهم دلالة اللون النفسية والاجتماعية

---

[١] – كوليير، غراهام، الفن والشعور الإبداعي ، ت. منير الأصبحي،(دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٨٣)ص ٢٣٧.

[٢] – نوفل، يوسف، الصورة الشعرية واستيحاء الألوان، (دار الاتحاد العربي ، ١٩٨٥)

[٣] – انظر عبد العزيز، محمد حسن، مدخل إلى علم اللغة، (دار النمر للطباعة، ١٩٩١)ص٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، السعران، محمود،(د.ت) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، (بيروت:دار النهضة العربية) ص٣١٢.

وسنتناول في هذا المبحث اللون في الصورة الشعرية ضمن :

١ – التشبيه .

٢ – الاستعارة .

٣ – الكناية.

١ – التشبيه :

استخدم الشاعر الجاهلي التشبيه ، موظفاً فيه اللون بحيث يشير إلى حقيقة التجربة التي يعيشها ، والتي قد تحمل أبعاداً نفسية وجدانية أو اجتماعية ، وقد برع امرؤ القيس في توظيف الصورة اللونية التشبيهية ، حين تحدث عن فرسه في رحلة صيدٍ قائلاً:

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل[١]

يصور امرؤ القيس فرسه وقد علا نحره دماء الصيد ، فشبه تلك الدماء بعصارة الحناء الحمراء اللون على الشيب الأبيض المرجل ، ولون الحناء من ألوان الزينة التي تتزين بها المراة ، وخاصة العروس لذلك نجده في البيت السابق يورد ذكر العروس في قوله :

كَأنَّ عَلى المتنين مِنهُ إذا اِنتَحى مَداكَ عَروسٍ أو صَلايَة حَنظَل[٢]

---

[١] – الهاديات : المتقدمات والأوائل وسمي المتقدم هادياً لأن هادي القوم يتقدمهم .ومنه قيل لعنق الفرس هادي ، لأنه يتقدم على سائر جسده وعصارة الشيء ما خرج منه عند عصره والترجل تسريح الشعر ، والمرجل المسرح بالمشط (يقول) كأن دماء أوائل = الصيد والوحش على نحر هذا الفرس عصارة حناء خضب بها شيب مسرح ، شبه الدم الجامد على على نحره من دماء الصيد بما جف من عصارة الحناء على شعر الأشيب وأتى بالمرجل لإقامة القافية. الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، ٣٥.

[٢] – المتنان تثنية متن وهما ما عن يمين الفقار وشماله والانتحاء الاعتماد والقصد والمداك : الحجر الذي يسحق به=

فا تخذ اللون الأحمر بعداً نفسياً ، يُظهر احتفاء الشاعر بخيله ، ويكشف عن شخصيته ، فهو شاعر يستهويه الجمال ، يجعل من لون الدم الأحمر منظراً جميلاً يبعث في النفس البهجة والفرح.

وفي دلالة أخرى للون الأحمر يقول السليك بن السلكة في وصف شجاعته:

وَعاشـــيَةٍ رُجٍّ بطـــانٍ ذَعَرتُهـــا بصَـــوتِ قَتيـــلٍ، وَســـطُها يَتَسَـــيَّفُ[١]
كَـــأنَّ عَلَيـــهِ لـــونَ بُـــردٍ مُحَبَّـــرٍ إذا مـــا أتـــاهُ صـــارخٌ مُتَلَهِّـــفُ[٢]

يقص السليك خبر قتله لصاحب إبلٍ وسط إبله ، حيث ضربه بالسيف حتى سال منه الدم الأحمر على برده ، وحين جاءه أحد أفراد عائلته ، ورأى ذلك المنظر ؛ متحسِّراً ، فشبه السليك ذلك البرد الذي سالت عليه خطوط الدم الأحمر بالثوب المخطط ، فجعل اللون الأحمر يحيط بالقتيل من كل جانب ، فالخطوط " هي الدليل الذي يقود العين إلى مركز الانتباه في الصورة ، بل هي أيضاً تحمل رسالة أو فكرة يرغب المصوِّر أن ينقلها إلى الرائي ، وتكون محمَّلة بمعانٍ أو إحساسات ، حتى لو لم

=الطيب وغيره والذي يسحق عليه أيضاً مداك والدوك : السحق به الفعل منه داك يدوك دوكا والصلاية : الحجر الأملس الذي يسحق عليه شيء كالهبيد وهو حب الحنظل (ويروى) كأن سراته لدى البيت قائماً ، والسراة : أعلى الظهر ، ولجمع السروات ويستعار لعلية الناس ، وسراة النهار : أعلى مداه ، والسرور والارتفاع في الحد والشرف والفعل منه سرا يسرو وسرى يسري وسرو يسرو ، ونصب قائماً على الحال شبه انملاس ظهره واكتنازه باللحم بالحجر الذي تسحق العروس به أو عليه الطيب،أو بالحجر الذي يكسر عليه الحنظلويستخرج حبه وخص مداك العروس لحدثان عهدها بالسحق للطيب. الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، ٣٥.

[١] – العاشية : المواشي التي ترعى في العشي ، في الليل . رجَّ : جمع رجَّاء ، وهي الناقة العظيمة السنام . بطان: ممتلئة البطون .ذعرتها : أخفتها ونفرتها . قتيل:من يقتل. بتسيف: يضرب بالسيف البرد: كساء من الصوف السود يلتحف به .وهو أيضاً الثوب المخطط .

[٢] –لون : هنا ألوان . وفي الاستعمال قلب فلون البرد هو البرد المخطط بألوان . محبَّر : موشَّى . من الحبر : الوشي . الصارخ : هنا المتفجع من أهل القتيل . إذا : بمعنى حين . متلهف: متحسر ، شديد إظهار الحزن. ابن السلكة، السليك، الديوان، ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي،١٤١٥هـ،١٩٩٤م)ص ٨٢ ، ٨٣.

تزد الصورة عن أن تكون مجموعة من الخطوط "[١] وقد كانت الخطوط الحمراء في الصورة مركز انتباه القريب المقتول ، فقد أثارت لديه الإحساس بالفزع ، مما دفعه إلى الصراخ حال رؤيته للمنظر ، وفي مقابل ذلك فإنّ منظر خطوط الدم الحمراء قد أثارت لدى السليك الشعور بالفخر والزهو والانتصار ، مما جعل تلك الخطوط تثير مشاعر متضادة .

الشاعر		قريب المقتول
الفخر والزهو بشجاعته ⟵	الخطوط الحمراء	⟵ الفزع والأسى والحزن

فقد شحنت الخطوط الحمراء النص الشعري بدلالات أغنت الشاعر عن التفصيل عنها.

وقد جاء اللون الأحمر في صورة الخمر عند عمرو بن كلثوم في قوله:

ألا هُبّـــي بصَـــحنِكِ فَاصـــبَحينا وَلا تُبقـــي خُمـــورَ الأنـــدَرينا
مُشَعشَـــعَةً كَـــأنَّ الحُـــصَّ فيهـــا إذا مـــا المـــاءُ خالَطَهـــا سَـــخينا[٢]

يخاطب عمرو بن كلثوم ساقية الخمر ويأمرها ، ويأمرها بأن تستيقظ من نومها ، وتناوله قدح الصبوح ، ليشرب خمراً مشعشعة ممزوجةً بالماء ، فجعل تلك الخمر في حمرتها بعد امتزاجها بالماء كأنما ألقى فيها نبات الورس ، وهو نبت له نوار أحمر يشبه الزعفران .

فشبه عمرو بن كلثوم لوناً بلون آخر ، لون الخمر الأحمر بلون الورس الأحمر،

[١] – رياض، عبد الفتاح، التكوين في الفنون التشكيلية،ط١،(القاهرة: دار النهضة العربية،١٩٧٤م)ص ٦٧.
[٢] –الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص١١١

وكأن الصورة عملية انعكاس للون الأحمر من الخمر إلى الورس، ومن الورس إلى الخمر .

وفي مقابل اللون الأحمر يأتي اللون ألأخضر عند طرفة في قوله :

كَـأنَّ السِـلاحَ فَـوقَ شُـعبَةِ بانَـةٍ تَـرى نَفَخـاً وَرِدَ الأسِـرَّةِ أصْـحَما[١]

يسخر طرفة من زوج أخته عبد عمر بن بشر بن مرثد ، فيصفه بأوصاف النساء في التثني والتمايل ، وذلك لأنه حين يحمل سلاحه ؛ تظن هذا السلاح معلّقاً على غصن شجرة بان ؛ لكثرة تمايله وانعطافه ، ولين جسمه ، فنقل طرفة اللون الأخضر من استخدامه المباشر الدال على جمال المنظر وحسن الصورة إلى استخدام غير مباشر ، من خلال إدخال اللون الأخضر في إطار مغلّف بالسخرية والاستهزاء ، فأضاف للون الأخضر في شجر البان قوة تعبيرية ، حيث عمل على بث حياة جديدة في الصورة تحمل عنصر المفاجأة ، فبعد أن كان هذا اللون في شجر البان خاصاً بوصف جمال المرأة ؛ إذ به يصف صورة رجلٍ ضعيف ، فغدت الصورة مثيرة مضحكة .

ومن النماذج الأخرى التي جاء فيها اللون الأخضر قول المرقش في وصف الظعينة :

[١] –الشعبة : (من الشجر) : ما تفرق من الأغصان ، أو هي الغصن نفسه . البانة : شجرة البان ، وهي معروفة بلين أغصانها وتمايلها ، بها تشبه قدود النساء . النفخ : الفتى الممتليء شباباً (وصحة) . الورد : وهو لون بين الكميت (الأحمر) والأصفر، واستعار هذا اللون لأنه لون الصحة المتدفقة .ورد الأسرة :لون معالم وجهه بين الكميت والصفر . الأصحم : لونه : صفرة في بياض ،المعنى : (يصفه بأوصاف النساء من لين الخصر والتثني في المشي إلى بياض في البشرة مشربِ حمرة وصفرة). ابن العبد، طرفة، الديوان،شرح سعدي الضناوي، (بيروت: دار الكتاب العربي،٢٠٠٤م)ص ٢٢٤.

دِيـــارُ أسْـــماءَ التـــي تَبَلَّـــتْ قَلْبِـــي فَعَيْنِـــي ماؤُهـــا يَسْـــجُمْ
أضْـــحَتْ خَـــلاءً نَبْتُهـــا ثَئِـــدٌ نـــوَّرَ فيهـــا زَهْـــوُهُ فـــاعْتَمّ[١]
بَـلْ هَـلْ شَـجتْكَ الظُّعْـن بـاكِرَةً كـــأنَّهنَّ النَّخْـــلُ مِـــنْ مَلْهَـــمْ[٢]

وقف المرقش على ديار محبوبته أسماء ، فوجدها خالية ، فأصابه حزن شديد ، ومما زاد حزنه رؤيته للظعن تسير باكرة ، فشبه منظر تلك الظعن بنخل أرض اليمامة ، مما أضفى عنصر الحركة على اللون الأخضر في الصورة ، تلك الحركة تسير في اتجاه بعيدٍ عن المرقش ، وهذا يمثل غياب الخصوبة والحياة اللذين يوحي بهما غياب اللون الأخضر عن نظر الشاعر ، فوجود المحبوبة يرتبط بالحياة وعمار الديار ، ورحيلها كافٍ لتحويل تلك الديار إلى طلل قفر .

يقابل اللون الأخضر في صورة الظعينة لون آخر عند زهير ، هو اللون الأحمر في قوله :

تَبَصَّر خَليلي هَل تَرى مِن ظَعائِنٍ تَحَمَّلْنَ بِالعَلياءِ مِن فَوقِ جُرثُمِ
عَلَونَ بِأنماطٍ عِتاقٍ وَكِلَّةٍ وَرادٍ حَواشيها مُشاكِهَةِ الدَمِ[٣]

يصور زهير منظر الظعائن وهي تسير ، تعلو هوادجها ستائر حمراء ، تشبه الدم في احمرارها ، وهذا التصوير للظعينة تصوير عجيب ، فكيف يشبه الستائر

---

(١) – الثأد ، بفتحتين : الندى ، والثئد : الذي أصابه الندى . زهوه : لونه من أحمر وأبيض وأصفر . اعتم : كثر واشتد خصاصه .

(٢) – الشجا: الحزن ، وشجاه : حزنه . الظعن ، بضم الظاء وسكون العين : النساء بهوادجهن . ملهم : أرض باليمامة كثيرة النخل . الضبي، المفضل، المفضليات، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨.

(٣) –أنماط : جمع نمط : وهو مايبسط من صنوف الثعيات ، والعتاق: الكرام الواحد عتيق ، والكلة : الستر القليل والجمع الكلل والوارد جمع ورد: وهو الأحمر الذي يضرب لونه إلى الحمرة ، والمشاكهة : المشابهة ، ويروي وارد الحواشي لونها لون عندم ، والعندم : البقم ، والعندم دم الأخوين . الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد شرح المعلقات السبع،ص ٧١.

المحيطة بالهودج الذي يحمل المرأة بالدم الأحمر؟ إنها صورة تصطدم بالشعور ، فهناك توتر قائم بين الصورة والواقع ،فبدلاً من أن يستعمل زهير وصفا يلائم ما تتصف به الظعينة من شرف ودلال ، إذ به يصور هودجها في صورة دموية مفزعة، إنها مفارقة تطرح صورة خلاف الصورة المتوقعة ، فيغدو "البهجة والناقة والدلّ الناعم بوصفهم أبرز صفات الهودج (تصويراً) تابوتا دمويا متحركا ، صنعته دماء الإخوة"[١]

فيلعب اللون الأحمر دور إثارة الشعور بالفزع والدلالة على الموت ، بعد أن كانت الصورة ممتلئة بالحياة "وهذا يعني أن النسيب بوصفه الجزء الأول من القصيدة الجاهلية لا يخلص إخلاصاً تاماً لشعور الحزن على الماضي والحنين إليه ؛ بل يوجّه الشاعر من خلاله مسببات هذا الشعور ، ويتأملها في ضوء منظومة القيم الأخلاقية للجماعة "[٢] لذلك وصف الدكتور يوسف خليف زهيراً بأنه يعرف كيف يستخدم اللون[٣] .

ويأتي اللون الأسود عند عبيد بن الأبرص في وصف السحاب الممطر في قوله:

سَحابٍ ذاتِ أسحَمَ مُكفَهِرٍّ ... تُوَحّي الأرضَ قَطراً ذا اِفتِحاصِ[٤]

تَألَّفَ فَاِستَوى طَبَقاً دِكاكاً ... مُحيلاً دونَ مَثعَبِهِ نَواصِ[٥]

---

[١] – أنس الوجود، ثناء، دراسات تحليلية في الشعر القديم، (القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر ، ٢٠٠٠م)ص٣٧.

[٢] – عز الدين، حسن البنا، شعرية الحرب عند العرب قبل الإسلام، ط٢، (الرياض:دار المفردات، ١٩٨٨م)ص ٢٩.

[٣] – خليف، يوسف، دراسات في الشعر الجاهلي، (القاهرة: دار غريب ، ١٩٨١)ص١٣٦ .

[٤] – الأسحم : الأسود . المكفهر : المتلبّد المسودّ. توحي : تعجّل . القطر: المطر. ذا افتحاص : أي أنه لقوته يقلب التراب ويكشفه .

[٥] – الطبق : الغطاء. الدكاك : المستوية . المحيل : الذي أتى عليه حول أي سنة . المثعب : مجرى الماء . النواصي : الأعالي.

كَلَيـــلٍ مُظلِـــمِ الحَجَـــراتِ داجٍ بَهـــيمٍ أو كَبَحـــرٍ ذي بَـــواصِ[١]

يصف عبيد بن الأبرص سحاباً تجمع بعضه فوق بعض ، فشكّل غطاءً أسود واسعاً ، يشبه في ظلمته سواد الليل البهيم ، وقد استخدم اللون ألأسود في تصوير الطبيعة المتحركة المتَّشحة بالسواد الحالك الشديد ، وهذا السواد سوادٌ مكثَّفٌ ناتجٌ عن تتابع الصفات الدالة على ذلك : (ليل ، مظلم ، داج ، بهيم).

فالشاعر عبيد بن الأبرص حين يصور السحاب الأسود في صورة ليلٍ مظلمٍ شديد السواد ، يثير في النفس الشعور بالخوف والرعب من تلك الظلمة المكاثفة التي يبعثها اللون الأسود ، وبذلك يكون اللون الأسود قد نقل الصورة الحسية مقرونة بالناحية النفسية الشعورية .

ويدخل اللون الأسود عند زهير في وصف الناقة في قوله :

وَتَنضِـــحُ ذِفراهـــا بِجَـــونٍ كَأَنَّـــهُ عَصـيمُ كُحَيـلٍ فـي المَراجِـلِ مُعقَّـدِ[٢]

يصف زهير ناقته وقت الرحلة ، وقد أجهدها السير ، والعرق ينضح من خلف أذنيها كأنه قطران أسود مطبوخ في قدر كبير فحمل اللون الأسود دلالة التعب والجهد والمشقة ، وحتى يعمق زهير هذه الدلالة ، راح يزيد من كثافة سواد هذا القطران ؛ بإضافة أوصاف تدل على ذلك ، فهو قطران مطبوخ ، معقود ، في قدر كبير .

---

[١] – الحجرات : جمع حجرة وهي الناحية . الدَّاجي : المظلم . البهيم : الشديد السواد . البواص : جمع البوص : البعد . ابن الأبرص، عبيد، الديوان، ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٤هـ)ص ٧٢.

[٢] – تنضح : تعرق . ذفراها : هو الموضع الذي يعرق منه البعير خلف الأذن . الجون : الأسود . العصيم : الأثر . الكحيل : القطران . المراجل جمع مرجل : القدر الكبير . معقد : مطبوخ ، خائر. زهير، الديوان، (بيروت: دار الكتاب العربي،١٩٩١م)ص١٥٧.

إن القطران الأسود المطبوخ وما فيه من حرارة ، إضافة للحرارة التي يحملها اللون الأسود ذو الكثافة اللونية الشديدة ، يعبران معاً عن تشكيل لوني منسجم مع حركة الإنسان في تلك الصحراء القاسية الحارقة ، فالحرارة القاسية التي تعانيها ناقة زهير ، والتي عبر عنها اللون الأسود،هي حرارة تحرق زهيراً أيضاً في هذه الرحلة المضنية،فيصبح اللون الأسود معبراً عن تعب الشاعر زهير وتعب ناقته أيضاً .

في مقابل اللون الأسود يأتي اللون الأبيض عند عنترة في وصف خيله:

وَجَـواداً مـا سـارَ إلاَّ سَـرى البَـر قُ وَراهُ مِـــن اِقتِـــداحِ النِعـــال
أدهَـــمٌ يَصـــدَعُ الـــدُجى بِسَـــوادٍ بَـــينَ عَينَيـــهِ غُـــرَّةٌ كَـــالهلال[1]

يتحدث عنترة عن خيله الأدهم ، وقد علته غرة بيضاء بين عينيه كالهلال الذي يعلو السماء في ظلمة الليل البهيم ، فأحدث عنترة بتلك الصورة نوعاً من التوازن بين اللونين الأبيض والأسود ، حين جمعهما في خيله ، فقد صور بريق اللون الأبيض المشرق فوق أرضية مظلمة ، فالتباين " يرتبط سيكولوجياً بالصراع والقوة ، ويكون مناسباً للصورة التي تعبر عن هذه المعاني "[2] وعنترة حين يصف بياض غرة خيله الأدهم ؛ يريد أن يوحي هذا المنظر الخارجي المميز عن القوة الجسدية التي يتمتع بها هذا الخيل حين يقاتل به الأعداء .

ومن النماذج التي جاء فيها اللون الأبيض في صورة الضياء والنور قول الخنساء في أخيها صخر :-

---

[1] –ابن شداد، عنترة، الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تقديم مجيد طراد، (بيروت: دار الكتاب العربي،١٤٢٥هـ،٢٠٠٤م)ص ١٣١ ، يصدع : يشق.

[2] – رياض، عبد الفتاح، التكوين في الفن التشكيلي،ط١، (القاهرة: دار النهضة العربية،١٩٧٤)ص ١٠٠.

وَرُبَّ ثَغرٍ مَخُوفٍ خُضتَ غَمرَتَهُ بِالمُقرَباتِ عَلَيها الفِتيَةُ الصيدُ[١]
نَصَبتَ لِلقَومِ فيهِ قصد أعيُنِهِم مِثلَ الشِهابِ وَهم شتى عَباديدُ[٢]

ترثي الخنساء أخاها صخراً ، فتذكره وقت الشدة حين كان يتقدم القوم ، مثل الشهاب المضيء ، وكأنه نجمٌ تهتدي به القبيلة ، فيجتمعون حوله بعد أن كانوا متفرقين .

إن تشبيه صخر بالشهاب يحمل في طياته معنى الضياء والنور في وقت الظلمة ، والنور في وجدان العربي البدوي يبدِّدُ ظلمة الليل الموحش، فالشهاب الذي يتلألأ وضاءة ، يهتدي به الساري ، وهو أيضاً وهن القوة ، حيث ينطوي سطوعه وتألقه على النهاية الفاجعة المؤلمة السريعة ، إنها صورة الضوء الذي سرعان ما ينطفئ ، وفي ذلك يقول لبيد :

وَما المَرءُ إلا كَالشِهابِ وَضَوئِهِ يَحورُ رَماداً بَعدَ إذ هُوَ ساطِعُ[٣]

فالضوء المشع القوي قد يدل على ضعف القوة واقتراب النهاية .

وللخنساء أيضاً قولها :

وَعنسٍ أمونٍ تَخدَّمْتَها لِيَطعَمَها نَفَرٌ جُوَّعُ[٤]
بِأبْيضَ صَافٍ كمثلِ البُرُو قِ نّضّمنَهَ مَلِكٌ أرْوَعُ[٥]

---

[١] – المقربات : الخيول التي تقرب مرابضها لتكون بمتناول من يريد ركوبها ،الصيد : الأشراف .

[٢] – قصد أعينهم : أي أمَّ أعينهم . هم عباديد : متفرقون . نصبْت : أي عمدت نحو القوم بنفسك . الخنساء، الديوان، ص١٤٣ ، ١٤٤.

[٣] – الشهاب: النار. يحور رماداً: يصير رماداً. ابن ربيعة، لبيد، الديوان، ص ٧٩.

[٤] –العنس:الناقة القوية، الأمون :التي يؤمن عثارها .

[٥]– الخنساء، الديوان، ص٢٠٦

تصف الخنساء أخاها صخراً بالكرم ، فكم من ناقة قوية سمينة ، تحفظ لوقت الشدة ، نحرها بسيفه الأبيض اللامع ، ووزع لحمها على الجائعين ، وقد صورت الخنساء سيف صخر الأبيض بصورة البرق اللامع ، فجعلت السيف الأبيض مضيئاً فأصبح السيف الأبيض أداة تضع الموت والحياة معاً ، الموت للناقة ، والحياة للجياع ، كما يلمع البرق في السماء فيثير الرعب والفزع بمنظره ، وفي الوقت نفسه تحيا الأرض بما يصحبه من مطرٍ غزيرٍ .

وقد تكررت صورة السيف اللامع الذي يشبه البرق عند عامر بن الطفيل في قوله :

وَذيْ حبك في المتن صاف كأنه لوامع برق في الدجى يتوقد[١]

شبه عامر سيفه في لمعانه بالبرق الذي يتوقد في ظلام الليل ، فأضاف إلى اللمعان صفة التوقُّد تحت أرضية سوداء (في الدجى) فجعل سيفهُ نارياً ، فالصورة تتضمن عنصري الضياء والظلمة والصراع القائم بينهما ، وقد جعل الشاعر الغلبة للضياء على الظلام ، يفصح عن ذلك عدد من مفردات الضياء في مقابل مفردة واحدة للظلام .

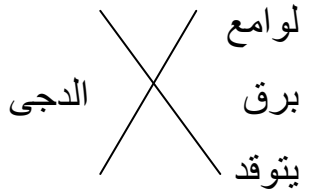

فعنصر الضياء هو المهيمن والمسيطر على الصورة ، وهذا يعني أن في السيف "مافي النار من لطافة وسحوق وتطهير ، إنه في وجدان العربي يحرق عداوة

[١] – ابن الطفيل، عامر، الديوان، تحقيق كرم البستاني،(بيروت: دار صادر ، ١٩٦٣م)ص ٣٤.

الأعداء "[١] وقد جاء في المأثور عن السيوف قول الأصمعي أن الجن عملته[٢] ربَّما من أجل ذلك اكتسب السيف صفة اللمعان والنارية استمداداً من صانعه وهم الجن النَّاريُّون.

ولا تزال صفة الضياء واللمعان في الشعر الجاهلي تدور حول أسلحة الحرب،فالرمح عند أمريء القيس سنا لهب :

حملتُ رُدَينِيّاً كَأنَّ سِنانَهُ سَنا لَهَبٍ لم يَتصل بِدُخانِ[٣]

شبَّه امرؤ القيس سنان رمحه بضوء النار الملتهبة الخالية من الدخان ، وقد فضّل عبد القاهر الجرجاني هذه الصورة على صورة السيف الناري عند عنترة في قوله :

يتبَعَ لا يَبتَغي غَيرَهُ بِأبيَضَ كَالقَبَسِ المُلتَهِبِ[٤]

السبب واحد هو أن الضوء في الصورة عند أمرىء القيس جاء مفصَّلاً ؛ فقد أخرج الدّخان عن الصورة فكان الضوء صافياً قويَّاً ، أما عند عنترة فلم يفصّل في ذلك " فإنك ترى ما بينهما من التفاوت ما تراه ، مع أن المشبه به في الموضعين شيء

---

[١] –نصر، عاطف جودة، الخيال مفهوماته ووظائفه، (مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان ، ١٩٧٧) ٢٨١.

[٢] – الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، ط٢، (١٣٨٦هـ=١٩٦٦م) ١٥٣/١.

[٣] – امرؤ القيس، الديوان، (بيروت: دار الكتاب العربي،٢٠٠٤)ص٣٧٤.

[٤] – الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة ، تعليق محمود شاكر ، (جدة: دار المدني ، ١٩٩١م)ص ١٦٣، وجاء في الديوان على رؤية أخرى وهي :

تدارك لا يتقي نفسه بأبيض كالقبس الملتهب عنترة ، الديوان ،٢٣.

واحد ، هو شعلة النار ، وما ذاك إلا من جهة أن الثاني قصد إلى تفصيل لطيف ، ومرَّ الأول على حكم الجمل .

ومعلوم أن هذا التفصيل لا يقع في الوهم في أول وهلة ، بل لا بد فيه من أن تتثبت وتتوقف وتتروَّى ، وتنظر في حال كل واحد من الفرع والأصل ، حتى يقوم حينئذٍ في نفسك أن في الأصل شيئاً يقدح في حقيقة الشبه ، وهو الدخان الذي يعلو رأس الشعلة ، وأنه ليس في رأس السنان ما يشبه ذلك ، وأنه إذا كان كذلك ، كان التحقيق وما يؤدي الشيء كما هو ، أن تستثني الدخان تنفي ، وتقصر التشبيه على مجرَّد السَّنا ، وتصوّر السَّنان فيه مقطوعاً عن الدخان "[١]

إن تفضيل عبد القاهر لصورة امرىء القيس راجعٌ لخلو النار من الدخان ، فوجود الدخان يخفف من قوَّة ضوء النار ، فكان إخراجه من الصورة سبباً في تقوية الضوء ، مما أعطى الصورة جمالاً ووضوحاً .

٢ – الاستعارة :

لقد استطاع الشاعر الجاهلي أن يربط صورة بصورة أخرى ويدمجها ليفرز صورة ذهنية جديدة ، يكون اللون عنصراً من عناصرها ، فيخاطب اللون العواطف ويستثير في النفس مشاعر معينة ، من خلال تكثيف دلالة النّص الشعري في اللفظة اللونية الموحيّة .

وفي النماذج التي نحاول رصد الاستعارة اللونية فيها قول عمرو بن كلثوم :

[١] – الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة،ص ١٦٣ ، ١٦٤.

أبـــا هِنـــدٍ فَـــلا تَعجَـــل عَلَينـــا وَأنظِرنـــــا نُخَبِّـــــرك اليَقينـــــا
بِأنّـــا نـــورِدُ الرايـــاتِ بيضـــاً وَنُصـــدِرُهُنَّ حُمـــراً قَـــد رَوينـــا[1]

يخاطب عمرو بن كلثوم عمرو بن هند في أسلوب متعالٍ ، يفخر فيه بشجاعة قبيلته ، متكئاً على فاعلية التّضاد بين اللونين الأبيض والأحمر ، وعادة يقف اللون الأبيض مضاداً للأسود ، لكن عمرو بن كلثوم قد عقد تضاداً من نوع خاص ، استناداً على الأعراف الجاهلية في الحرب ، فاللون الأبيض للرايات يكون في أول المعركة ، ثم يحل محله اللون الأحمر بعد المعركة .

وقد شبّه الرايات بالإنسان العطشان ، فحمّل اللون الأبيض دلالة العطش (نورد الرايات بيضاً) في مقابل دلالة الإرواء التي دلَّ عليها اللون الأحمر (نصدرهن حمراً قد روينا) ، وقد امتد التضاد إلى عدة مستويات

التركيب النحوي لا تعجل (نهي)
أنظرنا (أمر)

الدلالة نورد / نصدر
بيضاً / حمراً

فعبّر عمرو بن كلثوم عن معنى الشجاعة في صورة لونية حفلت بالمتضادات .

[1] – الراية: العلم والجمع رايات (يقول) نخبرك باليقين من أمرنا بأنا نورد أعلامنا الحروب بيضاء ونرجعها منها حمراً قد روينا من دماء الأبطال ، وهذا البيت تفسير اليقين من البيت الأول. الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص ١١٤.

ومن الصورة الحربية التي كان اللون الأحمر بارزاً فيها قول عنترة :

يَـدعونَ عَنتَـرَ وَالرِمـاحُ كَأَنَّهـا أَشـطانُ بِئـرٍ فـي لَبـانِ الأَدهَـمِ[١]
مـا زِلـتُ أَرمـيهِم بِثُغـرَةِ نَحـرِهِ وَلَبانِـهِ حَتّـى تَسَـربَلَ بِالـدَمِ[٢]

يصف عنترة حسن بلائه في القتال على ظهر فرسه الأدهم ، فلا يزال عنترة يرمي أعداءه حتى غطى الدم كامل جسد خيله الأدهم،فشبه الدم بالقميص الذي يلبس، فاصطبغت الصورة باللون الأحمر لون الدم ، واحتل اللون الأحمر معظم مساحات خارطة التوزيع اللوني ، بعد أن كان اللون الأسود (لون الخيل الأدهم) هو اللون السائد على تلك الخارطة اللونية .

وقد عبَّر طرفة عن شجاعة قومه في القتال مستخدماً اللون الأحمر الناري في قوله :

وَإذا المُغيـرَةُ لِلهيـاج غَـدَت بسُـعار مَـوتٍ ظـاهِرٍ دُعُـرُه[٣]
وَلّـوا وَأعطَونـا الَّـذي سُـئِلوا مِـن بَعـدِ مَـوتٍ سـاقِطٍ أُزُرُه[٤]
إنّـا لَنَكسـوهُم وَإن كَرِهـوا ضَـرباً يَطيـرُ خِلالَـهُ شَـرَرُه[٥]

يفخر طرفة بشجاعة قومه وحسن بلائهم ، فإذا أوقدت نار الحرب ؛ فإنهم

---

[١] – الشطن : الحبل الذي يستقي به والجمع الأشطان . واللبان : الصدر.

[٢] –الثغرة: الثقبة. الأزوار: الميل، و التحمحم. الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص١٤٠ .

[٣] – المغيرة : الخيل المغيرة . الهياج : الحرب . السُّعار : اللهيب .

[٤] – ولّوا : أي ولوّا الأدبار . الذي سئلوا : الذي طلبناه فرفض لنا فكانت المعركة . الأزر : جمع الإزار وهو الثوب. موت ساقط أزره : موت مكشوف واضح ، لا لبس فيه ولا شك .

[٥] – نكسوهم : نغطيهم من كل جانب . وإن كرهوا: وهم كارهون . شرره : أي شرر الموت . ابن العبد، طرفة، الديوان، ص ١٣٩ .

ينالون ضرباً على أعدائهم ، فيتطاير شرر الموت في كل اتجاه ، ومن ضمَّن الشاعر الصورة اللون الأحمر في قوله (بسعار موت) فجعل الموت في صورة النار المسعّرة، ثم في صورة الشرار (ضرباً يطير خلاله شرره) أي أن الصورة اللونية تبدأ بالموت وتنتهي به ، فالموت يطوِّق أعداء طرفة من كل جانب ، ومما جاء في كلام العرب : الموت الأحمر وهو القتل ، كناية عن سفك الدم أو الموت الشديد[١] ، وقد استخدم طرفة التكرار للون الأحمر حتى يخلق إيقاعاً لونياً مرعباً .

أما بشر بن أبي خازم فقد جعل اللون الأحمر الناري يشتعل في نحور الخيل في قوله :

نَعلو القَوانِسَ بالسُيوفِ وَنَعتَزي وَالخَيلُ مُشعَلَةُ النُحورِ مِنَ الدَمِ[٢]

يفخر بشر بشجاعته وشجاعة قومه في القتال ، حيث إنهم يقاتلون خصمهم ؛ يجهرون بنسبهم إلى آبائهم ، شجاعة منهم ، فلا يقاتلون بغتةً أو خلسة ، كما أنهم يدفعون بخيولهم إلى قلب المعركة ، فتبدو وكأنها أشعلت في نحورها النار ، لتأثير الطعن فيها ، إنه يطالعنا في لوحته هذه بلونٍ أحمر ناري متوهج ، في صورة لهبٍ متصاعد ، ليعبر أبلغ تعبير عما يجيش في نفسه من عاطفة الفخر بالشجاعة ، وقد جعل بشر الدم الأحمر يقترن بالنار ، فالنار رمز الاحتراق والموت والدفء والحياة أيضاً ، والدم الأحمر رمز الثورة والألم ، أو الحياة والموت أيضاً ، فكلاً من النار واللون الأحمر الدموي يرتبطان بالشيء ونقيضه في آن واحد ، وفي هذه الصورة تتوحد الدلالتان ، لتوحي إلى النار التي تهب الموت من أجل الحياة .

ويأتي اللون الحمر الناري ولكنه مسلوب الفاعلية في قول لبيد :

---

[١] – الخويسكي، زين، معجم الألوان" مادة حمر" .

[٢] –القوانس : جمع قونس ، وهو وسط البيضة . نعتزي : ننتسب إلى آبائنا. بشر ، الديوان ١٤٣.

وَيَـــومٍ هَـــوادي أمـــرِهِ لِشَـــمالِهِ يُهَتِّكُ أخطـالَ الطِـرافِ المُطَنَّـبِ[١]
يُنـيخُ المَخـاضَ البُـركَ والشَمسُ حَيَّـةٌ إذا ذُكِّيَـت نيرانُهـا لَـم تَلَهَّـبِ[٢]

يصف لبيد يوماً من شدة برده جعل النياق الحوامل تبرك على الأرض ، مع أن الشمس لا تزال في كبد السماء ، لكنها لا تنشر الدفء .

وقد صوَّر لبيد الشمس في صورة الإنسان الحي ، والشمس مركز الألوان كلِّها ، إذ تنبعث منها ألوان الطيف السبعة : وهي تبدأ من الأشعة البنفسجية ثم النيلية ثم الزرقاء ثم الخضراء ثم البرتقالية ثم الحمراء [٣] ،فالألوان كلُّها جميعاً تتمركز في الشمس لتنشر الدفء في اليوم الشديد البرد . ومع ذلك يبقى الجو بارداً ، فالألوان لا فاعلية لها حينئذٍ ، لذلك أتى لبيد باللون الأحمر منفرداً مكثفاً في صورة النار المستعرة ، علَّهُ يخفف من شدة البرد ، ولكن تلك النيران (لم تلهب) ففرَّغ اللون الأحمر من محتواه الدال على الحرارة والتوهُّجْ ، ليحمل دلالة البرودة ، فتصبح جميع الألوان بما فيها اللون الأحمر ألواناً لا فاعلية لها .

ومن اللون الأحمر إلى اللون الأخضر في قول أمريء القيس :

وَأركَـــبُ فـــي الـــرَوع خَيفانَـــةٌ كَسـا وَجهَهـا سَـعَفٌ مُنتَشِـر[٤]

---

[١] – هوادي كلِّ أمر : أوائل الأمر . الشمال : ريح الشمال الباردة . يهتك أخطال : أي يقطع وفي رواية : أخطار ، والأخطال الحبال والأخطار : جمع خطيرة الطِّراف : البيت من الأدم ، المطنَّب : البيت المشدود حباله .

[٢] – المخاض : الحوامل من النياق . الشمس الحيَّة : المشرقة التي لم تغب . ذكيت نيرانها : سعِّرت وأوقدت .ابن ربيعة، لبيد، الديوان، ص ٣٢.

[٣] – شوقي، إسماعيل، التصميم عناصره وأسسه في الفن التشكيلي، ط٣، (مصر: مكتبة زهراء الشرق،٢٠٠٦م)ص ١٠١.

[٤] – الروع: الفزع ، الخيفانة : الفرس السريعة الخفيفة . كسا : غطى .السعف : أغصان النخيل . المنتشر :المتفرِّق، امرؤ القيس، الديوان، ص ١٧٤ .

يصف امرؤ القيس فرسه السريعة الخفيفة ، وقد تدلى فوق جبينها شعراً أشعث يحاكي أغصان النخل المتفرقة الورق ، وقد حرّكها الهواء .

إنَّه يوظف اللون الأخضر في الصورة للتعبير عن الحياة والنمو والنَّشاط ، فاللون الأخضر لون الأشياء النامية الملموسة التي يمكن إدراكها حسيَّاً [١] كما أنه يعبِّر عن القوة [٢] فيغدو اللون الأخضر في صورة الفرس لون القوة ، لذلك جعله امرؤ القيس بمثابة التاج على رأس فرسه القوية التي يركبها في وقت الروع والخوف ، فيستمد منها القوة .

وقد تحدث الجاهلي عن الضوء والظلام في صورة استعارية ، كقول النابغة الذبياني في رثاء النعمان بن الحارث :

قل للهمام وخير القول أصدقه والدهر يومض بعد الحال بالحال[٣]
ماذا رُزِئنا بهِ مِن حَيَّةٍ ذَكَرٍ نَضناضَةٍ بالرزايا صِلِّ أصلال[٤]

إنه يتحدث عن تقلبات الزمان في صورة الوميض والانطفاء ، هذا التباين بين الوميض والانطفاء يمثّل صراعاً بين نقيضين ، حيث قدم النابغة لهذا الصراع في صورة تستدعي نداءً بصرياً ، فحركة التضاد والتباين بين الضوء والظلام تعبِّر عن حالة من الحزن الشديد الذي يمر به الشاعر ، وقد صوَّر النابغة الضوء والظلام في

---

[١] – كولبير، غراهام، الفن والشعور الإبداعي ، ت. منير الأصبحي ، (دمشق: منشورات وزارة الثقافة ، ١٩٨٣)ص٢٥٢.

[٢] – السابق ، ٢٥٩.

[٣] – يومض: يلمع.

[٤] – نضناضة: أفعى منكرة .الصل :الداهية.الرزايا : جمع رزية وهي المصيبة . الذبياني، النابغة، الديوان، ط٢، (بيروت: دار المعرفة،٢٠٠٥)ص٨٥

صورة حركة إيقاعية ، تبدأ من الضوء ثم الظلام ثم الضوء ثم الظلام حالاً بعد حال ، هذه الحركة الإيقاعية تجعل النفس في حالة ترقب للضوء وقت الظلام ، وفي حالة خوفٍ من زوال الضوء وحلول الظلام ، أي أن الحركة الإيقاعية غير متدرجة ، تأخذ في الصعود نحو الضوء ، ثم الانحدار مباشرة وبقوة إلى الظلام ، فتأخذ الصورة بعداً نفسياً مشحوناً بالقلق والتوتر جرَّاء تقلبات الزمان وتبدل أحواله .

وتقدم الخنساء صورة أخرى للضوء والظلام في قولها :

جَهـمُ المُحَيّـا تُضـيءُ الليـلَ صـورَتُهُ آبـاؤُهُ مِـن طِـوالِ السَـمكِ أحـرارُ[١]

تصور الخنساء أخاها صخراً في صورة البدر الذي يضيء ظلام الليل ، فيلعب التضاد بين الضوء على الظلمة ويعمَّ النور أرجاء الصورة بعد أن كانت قاتمة .

ويحدثنا لبيد عن السراب اللامع في صورة حركية قائلاً :

فَبِتِلـكَ إذ رَقَـصَ اللَوامِـعُ بِالضُـحى وَاِجتـابَ أردِيَـةَ السَـرابِ إكامُهـا
أقضـي اللُبانَـةَ لا أُفَـرِّطُ ريبَـةً أو أن يَلُـومَ بِحاجَـةٍ لُوّامُهـا[٢]

بعد أن تحدث لبيد عن ناقته ؛ ختم حديثه عنها بقوله :فبتلك الناقة أقضي حوائجي في وقت الضحى ، حين يرقص السراب اللامع .

فالصورة اللونية مفرغة من اللون ، تتصف بالحركة (الرقص) ، والرقص يحمل دلالة اللهو ، لذلك كان لمعان السراب كمن يلهو بالعطشان في حرِّ الهجير ، ومما جاء في الأثر عن السراب : (أكذب من يلمع) [٣] فحمل اللمعان دلالة الكذب

---

(١) – الجهم: العابس ، السمك: القامة. الخنساء، الديوان، ص ٢٣٢.

(٢) – اللبانة : الحاجة . التفريط : التضييع . الريبة : التهمة . ابن ربيعة، لبيد، الديوان، ص١٤٩.

(٣) – الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد،د.ت مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت:دار المعرفة) ١٦٧/٢، . العسكري، أبو هلال، جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد الحميد قطاش، ط٢(بيروت: دار الفكر ، ١٩٨٨) ١٣٧/٢. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، المزهر في علوم اللغة=

واللهو ، لذلك جاء مفرَّغاً من اللون .

اللالون (السراب) = الكذب

وقد عبَّر تأبَّط شراً عن ظهور ضوء الصباح بقوله :

إلـــى أن حَـــدا الصُـــبحُ أثنائَـــهُ وَمَـــزَّقَ جِلبابَـــهُ الأَلـــيلا[١]

يصوِّر تأبط شراً بزوغ ضوء الصباح وتلاشي ظلام الليل في صورة الجلباب الأسود الذي يمزقه النور .

فالظلام ظاهرة كونية مرعبة بالنسبة للبدوي ، تحمل المخاطر غير المتوقعة ، فهو لا يملك إزاءها إلا أن ينتظر انفراج الظلمة بظهور ضوء الصباح ، لذلك عبَّر عن هذا الانفراج بالفعل (مزَّق) فالتضعيف الذي في حرف الزاي يوحي بالشِّدة التي كان يعانيها في ظلمة الليل و فاللون الأسود يوحي بالغموض ، وهو لون " يرمز إلى الموت والسلبية والحداد " [٢] فكان الفعل (مزَّق) هو ما فرَّغ فيه تأبَّط شراً الشحنة النفسية تجاه هذا اللون المرعب .

ولكن عروة بن الورد يرى في هذا اللون مجالاً لإبراز خصاله الحميدة فيقول :

يُـريحُ عَلَـيَّ اللّيـلُ أضـيافَ ماجِـدٍ كَـريمٍ وَمـالي سـارحاً مـالُ مُقتَـرِ[٣]

=وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، ط١، (بيروت:دار الكتب العلمية ، ١٩٨٨) ٤٦٦/١.

[١] – الأليل: ذو السواد الشديد . تأبط شراً، الديوان، ط١، (بيروت: دار المعرفة،٢٠٠٣) ٤٨.

[٢] – بنوا، لوك، إشارات رموز أساطير،(بيروت: عويدات للنشر)ص ٧١ .

[٣] – يريح علي : يعطيني . الماجد : الكريم .المال : الإبل .سارحاً :ذاهبة إلى المراعي . مقتر فقير. لبن الورد، عروة،= =الديوان، ط٢، (بيروت: دار الكتاب العربي،١٩٩٧)ص ٥٣.

إنَّ المال الذي يملكه عروة بن الورد مال قليل ، ومع ذلك فإنَّ الليل إذا حلَّ بظلامه ، فإنه يدفع إليه ضيوفاً كُثُر ، وكأنه كريم غنيْ ، فاللون الأسود يشمل الصورة بأكملها ، كما أنَّه يحمل دلالة الكثرة ، ذلك أن من معاني السواد الجمع [١] فالضيوف الذين يأتون في الليل كُثُر ، تلك الكثرة يقابلها قلة في ماله .

وقد أضاف عروة بن الورد للون الأسود فاعلية في الصورة ، حين جعل الليل فاعلاً ، والشاعر مفعولاً به (علىّ) لذلك يستسلم عروة بن الورد لفاعلية السواد ، ويكرم ضيوفه مع أنَّ ماله قليل .

٣-الكناية :-

[١] – الخويسكي، زين، معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم،مادة سود.

وظَّف الشاعر الجاهلي اللون في أسلوب الكناية ، عن طريق إيراد لفظ أو تركيب لوني ، ليعبِّر به عن معنى آخر أعمق من محض الدلالة البصرية اللون .

وقد جاء اللون الأخضر في سياق التعبير عن فصل الربيع في قول عروة بن الورد :

صَبوراً عَلى رُزءِ المَوالي وَحافِظاً لِعِرضِيَ حَتّى يُؤكَلَ النَبتُ أخضَرا[١]

يفخر عروة بن الورد بصبره في زمن الجدب في الشتاء ، وبكرمه على الموالي ، فلا يزال يقري و يضيف حتى يذهب الشتاء بقحطه ، ويأتي الربيع بخيره .

وقد كنَّى عروة بن الورد عن دخول فصل الربيع بقوله (يؤكل النبت أخضرا) فاستعمل اللون الأخضر للدلالة على زمن الرخاء ، فاتخذ اللون الأخضر بعداً زمنياً ، يعبِّر عن وقت ازدهار الطبيعة فيقترن اللون الخضر بخضرة الأرض ، والتطلع لميلاد جديد ، وقد جعل عروة بن الورد هذا اللون وصفاً للمدى الزمني الذي يقري فيه الضيف ، فيتقمص عروة دلالة هذا اللون في وقت مغيبه على أرض الواقع ، فيطعم الجياع ، ويصنع المعروف ، ويبالغ في الكرم ، حتى يبرز اللون الأخضر من جديد ، ويمارس وظيفته في نشر الرزق والخير وبثِّ الحياة مرة أخرى .

وقد اتخذت الكناية دلالة التحول من حالة الجدب والتي يشير إليها الفعل (صبوراً) إلى حالة الغنى والتي يوحي بها اللون الأخضر .

والأداة (حتى) أفصحت عن لون آخر لم يصرح به الشاعر ، وهو اللون الأصفر الدال على الجدب ، حيث إنَّ هناك تركيباً محذوفاً ، دلَّت عليه الكناية ، وهو (حين كان يؤكل النبت أصفراً) ومع مجيء الربيع بلونه الأخضر ، شمل اللون الأخضر كل أجزاء الصورة ، دلَّ على هذا الشمول اللوني الفعل (يؤكل) المبني للمجهول ، والذي

---

[١] – رزء الموالي: إصابتهم من خيري. يؤكل النبت أخضرا : كناية عن ذهاب الشتاء بقحطه ومجيء الربيع بخيره . ابن الورد، عروة، الديوان، ص ٤٤.

أعطى مساحة لونية واسعة ، مما جعل اللون الأخضر يتسع للجميع بدون تعيين .

واللون الأخضر لون يكتنز بدلالة الخصب والارتواء ، وذكرُ عروة لهذا اللون يدل على معاني الخير والجمال والعطاء في نفس عروة ، " فشعور عروة بقسوة الجوع على نفسه ؛ هو ما علمه أن الحياة قاسية على الآخرين ، ولذا فهم يحتاجون إلى العون والمساعدة ، الأمر الذي جعله يتخذا الكرم والشهامة نهجاً مسلكياً له في الحياة "[١] .

وجاء اللون الأخضر كناية عن رغد العيش في قول الأعشى وهو يصف قصر ريمان في اليمن :

يا مَن يَرى رَيمانَ أمسى خاوياً خرِباً كِعابُه[٢]
وَلَقَد أراهُ بِغِبطَةٍ في العَيشِ مُخضَرّاً جَنابُه
فَخَوى وَما مِن ذي شَبا بٍ دائِمٍ أبَداً شَبابُه[٣]

يصف الأعشى قصر ريمان ، وقد اصبح خاوياً ، ثم يستحضر صورته في الماضي ، حين كان شامخاً عامراً،وقد وصف حاله في الماضي بأنه (مخضراً جنابه) كناية عن العيش الرغيد ، واستعمل اللون الأخضر ليعبِّر عن ذلك المعنى ، معتمداً على ما يوحي به اللون الأخضر من حياة ونمو .

وقد تكررت الكناية عن رغد العيش في صورة كان اللون الأخضر عمادها في قول النابغة يمدح قوماً :

يَصونونَ أجساداً قَديماً نَعيمُها بِخالِصَةِ الأردانِ خضر المناكب[٤]

---

[١] – اليوسف، يوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ط٣، (لبنان: دار الحقائق،١٩٨٣)ص ٣١٤.

[٢] – ريمان: قصر مشهور في ظفار في اليمن . كعابه : غرفه.

[٣]– خوى : تهدم . الأعشى، ميمون بن قيس، الديوان ، شرح عبد الرحمن المصطاوي، ط١، (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٥م)ص ٤٧.

[٤] –الخالصة : أي شديد البياض . الأردان : جمع ردن ، وهو مقدم كم القميص .الذبياني، النابغة، الديوان، ص١٦ .

استخدم النابغة اللون الأخضر في وصف قوم منعَّمين ، وقد أضاف هذا اللون للمنكبين ، كناية عن الخصب العظيم الذي يعيشون فيه ، وقد جاء في لسان العرب : هم خضر المناكب:أي في خصب عظيم [١] ،فاللون الأخضر لون المملكة النباتية [٢] لذلك عبَّر النابغة بهذا اللون عن الرفاهية ورغد العيش .

وقد اتخذ اللون الأخضر بعداً اجتماعياً ، إذ اختصت تلك الدلالة بالبيئة الجاهلية ، فليس من الممكن لنا أن نتعرَّف على مقصد النابغة في قوله (خضر المناكب) إلا بالعودة للمعاجم العربية ، لذلك كان مما يساعد على فهم اللون الجانب اللغوي والوسط الاجتماعي ، بما في ذلك سياق الحال متصلة بالمتكلم والمخاطب والظروف المحيطة والبيئة .

ومن رغد العيش الذي دلَّ عليه اللون الأخضر إلى ضيق العيش والفقر والشدَّة والذي حمل دلالتهم اللون الأسود في تعبير كنائي في قول عروة حين لامته زوجته على كرمه :

أبى الخَفضَ مَن يَغشاكِ مِن ذي قَرابَةٍ وَمِن كُلِّ سَوداءِ المَعاصِمِ تعتري[٣]

يخاطب عروة زوجته بأن واجب المعروف نحو الأقرباء الذين يغشون بيته ، ونحو النساء الفقيرات اللاتي اسودت معاصمهن من العمل ، ومن تحريك النار والرماد ؛ يمنعه من الركون إلى الدعة والسكون .

وقد استخدم عروة اللون الأسود كناية عن الشدَّة والفقر والجهد ، فقد أثار هذا

[١] – ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مادة خضر.

[٢] – بنوا، لوك، إشارات رموز أساطير، ص ٧١.

[٣] – الخفض : الدعة والسكون . يغشاك : يحل بك سوداء المعاصم : أي اسودت يداها من العمل وتحريك النار والرماد .تعتري : تغشى طالبة المعروف . الذبياني، النابغة، الديوان، ص ٤٨ .

اللون شفقة عروة على تلك المرأة ، فكان جاذباً للنظر ، حيث ركَّز عروة انتباه زوجته نحو هذا اللون فاتخذ عروة موقف المزيل لهذا اللون بتقديمه يد العون لتلك المرأة المسكينة .

وقد استخدم عنترة اللون الأسود كناية عن الشدة في الحرب ، فيقول مخاطباً عبلة :

يـا عَبلَ كَم مِن جَحفَلٍ فَرَّقتُـهُ وَالجَـوُّ أسـوَدُ وَالجِبـالُ تَميـدُ[١]

رأى عنترة أن الجو في وقت الشدَّة يكون ذا لون أسود ، فجعل اللون الأسود كناية عن صعوبة الموقف.

وعبَّر امرؤ القيس عن فزع الجبان في الحرب بأسلوب كنائي اعتمد فيه على اللون الأسود قائلاً :

فَـإن أُمـسِ مَكروبـاً فَيـا رُبَّ بهمـة كَشَـفتُ إذا مـا اِسـوَدَّ وَجـهُ الجَبـانِ[٢]

جعل امرؤ القيس وجه الجبان أسوداً ، فربط بين لون أعضاء الجسم وبين الانفعال النفسي ، "فاللون الأسود رمز الخوف من المجهول "[٣] لذلك جعله امرؤ القيس إشارة وعلامة على الشعور بالخوف والغم والحسرة .

أما العيون في حالة الخوف فقد اصطبغت باللون الأحمر عند عنترة في قوله :

---

[١] – الجحفل : الجيش العظيم . تميد : تضطرب . بن شداد، عنترة، الديوان، (بيروت: دار الكتاب العربي،١٤٢٥هـ،٢٠٠٤م)ص ٥٦ .

[٢] – أمسى: أدخل في المساء. مكروباً: مهموماً. البهمة: الأمر المبهم الذي لا يدرى من أين يؤخذ والبهمة: البطل الشجاع الذي لا سبيل لأحدٍ عليه. كشفت: أظهرت. الجبان: الخائف. امرؤ القيس، الديوان، ص ١٠١.

[٣] – عمر،أحمد مختار، اللغة واللون، (القاهرة: عالم الكتب،١٩٩٧)ص ١٨٦.

هلا سألت ابنة العبسي ما حسبي عند الطعان إذا ما احمرت الحدق[١]

وقد جعل زهير اللون الأصفر للأنامل كناية عن الموت في قوله :

فَيَبـــدَؤهُ بِضَـــربَةٍ أو يَشُـــكُّهُ بِنافِـذَةٍ تَصـفَرُّ مِنهُـا الأنامِـلُ[٢]

يمدح زهيراً هرماً بشجاعته في القتال ، حين ينقضُّ على خصمه بطعنة نافذة ، تصْفرُّ منها أنامله ، فقد أحالنا زهير إلى لون أنامل الخصم ، لعبِّر عن قوة ممدوحه ، وجعل اللون الأصفر هو اللون الذي اصطبغت به تلك الأنامل ليحمل دلالة الموت .

وفي حالة الخوف الشديد يصبغ الشعر باللون الأبيض في قول لبيد :

وَما يَكُ مِن شَيءٍ فَقَد رُعتَ رَوعَةً أبـا مالِـكٍ تَبـيَضُّ مِنهـا الغَـدائِرُ[٣]

استخدم لبيد اللون الأبيض للشعر ، كناية عن الفزع الشديد ، فجعل اللون الأبيض يدل على الحالة النفسية الشعورية ، متَّجهاً من داخل النفس إلى المظهر الخارجي ، فيغدو هذا اللون ترجمة للإحساس الداخلي ، ويصبح لون شعر الرأس خاضعاً للمشاعر النفسية التي يمرُّ بها الإنسان ، ودالاً عليها .

وقد يؤثر لون الشعر على تعامل الإنسان مع حوله ، فهذا عبيد بن الأبرص يشكو جفاء زوجته له حين رأت الشيب الأبيض قد علا مفرقه ، فيقول :

---

[١] – الفيصل، عبد العزيز بن محمد، شعر بني عبس في الجاهلية والإسلام حتى آخر العصر الأموي، ط١، (الرياض: مطابع الفرزدق ، ١٤١١هـ) ٢/٣٧.

[٢] – يبدؤه: يبادره. يشكه: يشقه بالرمح حتى العظم. نافذة: أي طعنة نافذة. تصفر منها الأنامل: كناية عن الموت. زهير، الديوان، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩١م)ص ٢٠٦.

[٣] – رعت روعة: من الروع وهو شدَّة الفزع. أبو مالك: جار لبيد. لبن ربيعة، لبيد، الديوان، ص ٦٥ .

زَعَمَــت أَنَّنــي كَبِــرتُ وَأَنّــي قَــلَّ مــالي وَضَــنَّ عَنّــي المَــوالي
وَصَـحا بـاطِلي وَأَصـبَحتُ شـيخاً لا يُـــــواتي أمثالَهـــــا أمثـــــالي
إن رَأَتنــي تَغَيَّــرَ اللّــونُ مِنّــي وَعَــلا الشَــيبُ مَفرِقــي وَقَــذالي[1]

يشكو عبيد من جفاء زوجته حين تغيَّر لونه ، وقد كنَّى عن كبر السن بتغيُّر اللون ، فتغيُّر اللون يصف انتقاله من حال إلى حال ، فجعل عبيد اللون مادته للتعبير عن الحالة التي آل إليها من كبرٍ في السن وتبدُّلٍ في الحال.

في مقابل الدلالة السلبية للون الأبيض ، نجد دلالة إيجابية لهذا اللون ، تحمل معنى الشجاعة عند زهير في قوله :

عَلَيهـا أُسـودٌ ضـارِياتٌ لَبوسُـهُم سَـوابِغُ بـيضٌ لا تُخَرِّقُهـا النَبـلُ[2]

وصف زهير دروع القوم باللون الأبيض ، دلالة على أن الصدأ لم يجد إليها سبيلاً ، لكثرة استعمالهم لها ، وفي ذلك كناية عن شجاعتهم ، وقوة باسهم ، فلا تزال لبوسهم بيضاء ناصعة ، فحمل اللون الأبيض في هذا البيت دلالة الشجاعة والقوة .

وفي دلالة أخرى للون الأبيض تقول الخنساء في مدح أخيها صخر :

نطّافُـــهُ أبـــيَضُ ذو رَونَـــقٍ كَـالرَجع فـي المُدجِنَـةِ السـارِيَه[1]

---

[1] – ضنَّ: بخل. يواتي: يوافق. المفرق: موضع افتراق الشعر. القذال: مابين الأذنين من مؤخرَّ الرأس. بن الأبرص، عبيد، الديوان، ص ٩٦.

[2] – اللبوس: ما يرتديه الإنسان. السوابغ: الكاملة. البيض: التي لم يجد الصدأ إليها سبيلاً.زهير، الديوان، ص ١٩٧.

[1] – معنى البيت: أي أن رداؤه أبيض، نظيف، كماء المطر الصافي. الخنساء، الديوان، ص ٢٤٢ .

تصف الخنساء أخاها بالعفة ، من خلال استخدامها للون الأبيض صفة لنطاقه، حيث أن اللون الأبيض يرمز إلى "الطهارة والنقاء والنظافة" [٢] ولكي تزيد من بريق هذا اللون ؛ وصفته بأنه (ذو رونق) فلون النطاق الأبيض يحيل إلى العفة ، وصفة العفة من الصفات ذات الحساسية العالية ، لذلك كان اللون الأبيض هو أنسب لون للتعبير عن تلك الصفة ،حيث أنه "يقاس درجة نقاء الألوان بكمية اللون الأبيض الموجود بها"[٣]

ويأتي اللون الأبيض في سياق الكرم في قول طرفة :

وَلَقَـــد تَعلَـــمُ بَكـــرٌ أَنَّنـــا واضِحو الأَوجُهِ في الأَزمَةِ غُر[٤]

يفخر طرفة بكرمه وكرم قومه ، فإذا حلَّت سنة الجدب والقحط ، كان الناس بين عابس مكفهر ، ومشرق الوجه مبتسم ، وطرفة قومه من الصنف الثاني الذين تبقى وجوههم مشرقة بيضاء إذا ما طرقهم سائل ، وقد استثمر طرفة إيحاءات اللون الأبيض للتعبير عن صفة الكرم وقت الشدة، وهو بذلك يثبت هذا اللون لنفسه ولقومه ، وينفيه عن غيرهم .

بياض الوجه ← كرم

سواد الوجه ← بخل

يحمل بياض الوجه دلالة الكرم ، في حين يدل سواد الوجه على البخل ، وقد

---

[٢] – شوقي، إسماعيل، التصميم عناصره وأسسه في الفن التشكيلي، ص ١١٧.

[٣] – السابق ، ١٠٢.

[٤] – الواضح : من الوضح ، وهو البياض والنقاوة و الإشراق . واضحو الوجوه : بيض الوجوه . طرفة ، الديوان ، ١٥٩ .

جاء في لسان العرب " فلان أبيض يعني الكرم لا لون الخلقة "[١] ويحمل اللون الأبيض دلالة أخرى في قول حاتم :

يَنامُ الضُحى حَتّى إذا يومُهُ استوى تَنَبَّــهَ مَثلــوجَ الفُــؤادِ مُوَرَّمــا[٢]

يصف حاتم رجلاً لا همَّ له في الحياة ، ينام إلى وقت الضحى ، ويستيقظ مثلوج الفؤاد ضعيفاً ، وقد جعل حاتم لون الثلج الأبيض يشكل دلالة تحمل معنى الخمول والكسل والضعف .

وفي مقابل اللون الأبيض يأتي اللون الأسود ذو الدلالة السلبية في قول طرفة :

من مبلغ عمرو بن هند رسالة فليت غراباً في السماء يناديكا[٣]

يدعو طرفة على عمرو بن هند بالنحس وسوء الطالع ، فجعل اللون الأسود لون الغراب كناية عن التشاؤم .

وحين يكون الإنسان في موقف صعبٍ شديد ، فإن الألوان تختلط عليه ، فلا يعود يميز بين النور والظلام ، يقول النابغة في وصف يومٍ شديدٍ :

تَبــدو كَواكِبُــهُ وَالشَــمسُ طالِعَــةٌ لا النورُ نورٌ وَلا الإِظلامُ إظلامُ[٤]

---

[١] – ابن منظور ،لسان العرب، مادة حمر .

[٢] – استوى : أقبل . المورم : الرجل الضخم . حاتم ، الديوان ، ٨٤ .

[٣] – الغراب: نذير الشؤم وكناية عن سوء الطالع. ابن العبد، طرفة، الديوان، ص ١٩٩ .

[٤] – ولاليل كإظلام: أي لا إظلام ليل كإظلام هذا اليوم. الذبياني، النابغة، الديوان، ص ١٠٥.

النابغة في هذا البيت يجرد الصورة الكنائية من أي لون ، كناية عن الشدة ، فالإنسان الخائف الفزع قد لا يميز ما حوله ، فتختلط عليه الأمور ، فلا يرى النور ولا يرى الظلام ، فتتخذ الصورة بعداً نفسياً ، حيث عمل النابغة على نفي التباين بين النور والظلام ، بين اللون الأبيض واللون الأسود ، ونفي التضاد والتباين بين هذين اللونين يعني عدم التمييز واختلاط الأمور .

المبحث الثاني

المشاهد اللونية الكلية

عرضنا في المبحث السابق كثيراً من مظاهر اللون التي استعملها الشاعر كصورة جزئية ، يغرس فيها عنصر اللون ، ليحدث أثره في بروز الدلالة الشعرية ، وسنعرض في هذا المبحث كيف عمد الشاعر الجاهلي إلى تشكيل الصور الجزئية اللونية تشكيلاً فنياً ، بحيث تشكل مشهداً لونياً كلياً .

فالشاعر عروة يتحدث عن القدر السوداء في صورة لونية حيث يقول :

وَإذ ما يُريحُ الحَيَّ صَرماءُجونَةٌ ... يَنوسُ عَلَيها رَحلُها ما يُحَلَّلُ[١]
مُوَقَّعَةٌ الصَفقَينِ حَدباءُ شارِفٌ ... تُقَيَّدُ أحياناً لَدَيهم وَتُرحَلُ[٢]
عَلَيها مِنَ الولدانِ ما قَد رَأيتُمُ ... وَتَمشي بِجَنبَيها أرامِلُ عُيَّلُ[٣]
وَقُلتُ لَها يا أُمَّ بَيضاءَ فِتيَةٌ ... طَعامُهُمُ مِنَ القُدورِ المُعَجَّلُ[٤]

يتحدث عروة عن حسن بلائه مع قومه ، حين أطعمهم وقت الجوع والكرب ، فيصوِّر القدر التي أصبح لونها أسوداً من كثرة الطبخ بناقة سوداء ، ظهرت عليها آثار الجروح ؛ لكثرة ما حمِّلت وركبت ، ثم راح يخاطب القدر ، ويناديها يا أمّ بيضاء، حولك فتية جياع ، لا يمكنهم الانتظار لينضج اللحم ، بل يتناولونه معجَّلاً .

وقد استخدم عروة نمطاً ثلاثياً للألوان : الأسود، الأحمر ، الأبيض ، فتتضافر صور كل من الناقة السوداء،والجروح الحمراء التي على ظهرها ، والقدر (أمَّ بيضاء) في تشكيل مشهد لوني كلي ، يدور هذا المشهد حول دلالة الجوع الشديد ، والفقر

---

(١) – الصرماء: المقطوعة الأخلاف ليذهب لبنها وتشتد قوتها. والجونة: الأم الإبل لوناً، وهي السوداء وإنَّما عرض بذكر الناقة، وهو هو يعني قدراً.

(٢) – الموقَّعة: التي على ظهرها آثار الجروح لكثرة ما حملت أو ركبت. الصفقان: الجانبان. الحدباء: المكوَّرة . الشارف من الإبل: المسنّ. تقيّد: تربط. ترحل: تستعد للسفر.

(٣) – أرامل عيّل: ذوات عيال، فقيرات .

(٤) – أم بيضاء: كناية عن القدر. المعجّل: المطبوخ بسرعة. ابن الورد، عروة، الديوان، ص ٧٨ ، ٧٩.

المدقع الذي أصاب قومه .

وفي مشهد لوني آخر يصوِّر النابغة في قصيدة الاعتذار التي ألقاها بين يدي النابغة حالة القلق الذي انتابه ، جراء غضب النعمان عليه ، فتتراءى لنا مجموعة من الصور اللونية الجزئية ، عبر دوالٍّ لونية متضادة ، فالتضاد يعكس حالة التوتر النفسي ، فحين أراد النابغة أن تتضح الرؤية عند النعمان ؛ ذكر الكحل :

رَمادٌ كَكُحلِ العَينِ لأياً أُبينُهُ وَنُؤيٌ كَجَذمِ الحَوضِ أثلَمُ خاشِعُ[١]

ولكن تأرجح مشاعره بين الخوف والرجاء ؛ جعله يعرِّج على ذكر اللون البيض ذو الدلالة السلبية ، في صورة الشيب البيض :

على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت : ألمّا أصح والشيب وازع [٢]

ثم ارتفعت الروح المعنوية لديه ، فذكر اللون الأبيض بدلالة إيجابية ، في صورة الحق الناصع :

أتاكَ بِقَولٍ هَلهَلِ النَسجِ كاذِبٍ وَلَم يَأتِ بِالحَقِّ الَّذي هُوَ ناصِعُ[٣]

ولكن مشاعر الخوف عادت لتسيطر عليه ، ويفصح عن ذلك صورة الليل التي شبه النعمان بن المنذر به :

---

[١] – لأيا: أي جهداً وشقة. الجذم: الأصل. خاشع: أي لاصق بالأرض. الذبياني، النابغة، الديوان، ص ٧٥.

[٢] – الوازع: كل كافٍ زاجرٍ عن اللهو والمجون والفسق. الذبياني، النابغة، الديوان، ص٧٦.

[٣] – الناصع: الأصل فيه الخالص البياض وهو بمعنى الواضح البيِّن. الذبياني، النابغة، الديوان، ص ٧٧.

فَإِنَّـكَ كَاللَيـلِ الَّـذي هُـوَ مُـدرِكي وَإِن خِلـتُ أَنَّ المُنتَـأى عَنـكَ واسِـعُ[١]

لم يقصد النابغة دلالة اللون الأسود ، وإنما كما رأى عبد القاهر الجرجاني أنّه قصد القدرة على الوصول إلى كل مكان ، فاستعمال الليل مناسب لحال النابغة ؛ لأنه هارب من بطش النعمان الذي يملك الوصول إليه في كل مكان ، كما يصل الليل كل مكان .[٢]

ثم عادت مشاعر الرجاء تغمر نفس النابغة ، حين شبَّه ممدوحه بالربيع ، وفي ذلك إضمار لوني ، يتضمن اللون الأخضر لون الخصب والنماء ، ولكنه لا يزال يحمل في نفسه الخوف من بطش النعمان وفتكه ، حين جعله في الشطر الثاني سيف المنية المتضمن للون الأحمر لون الدم :

وَأَنتَ رَبيعٌ يُنعِشُ الناسَ سَيبُهُ وَسَـــيفٌ أُعيرَتـــهُ المَنِيَّـــةُ قـــاطِعُ[٣]

وقد تجاوزت الألوان المتضادة : الأبيض والأسود ، الأخضر والأحمر حدّ التشبيه والاستعارة إلى صورة لونية كلية تدور حولها القصيدة ، حيث عبَّرت عن التوتر القائم في نفس النابغة ، إزاء موقفه من النعمان بن المنذر .

والشدة التي يلاقيها البدوي في الصحراء يصوِّرها طرفة في عدة صور لونية جزئية ، فيقول :

---

[١] – المنتأى: من النأي، وهو البعد. النابغة، الديوان، ص ٧٨.

[٢] –الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص٢٥٥.

[٣] – السيب: العطاء. ينعش: يجبر ويرفع. النابغة، الديوان، ص ٧٨.

وَإِنّــا إذا مــا الغَـيمُ أمســى كَأَنَّــهُ سَماحيقُ ثَـربٍ وَهـيَ حَمـراءَ حَرجَـفُ[١]
وَجــاءَت بِصُــرّادٍ كَــأَنَّ صَـقيعَهُ خِــلالَ البُيــوتِ وَالمَنــازِلِ كُرسُــفُ[٢]
نَــرُدُّ العِشــارَ المُنقِيــاتِ شَـظيُّها إلــى الحَــيِّ حَتّــى يُمــرِعَ المُتَصَـيَّفُ[٣]
وَنَحـنُ إذا مـا الخَيـلُ زايَـلَ بَينَهـا مِــنَ الطَعــنِ نَشّــاجٌ مُخِـلٌّ وَمُزعِـفُ[٤]
وَجالَت عَذارى الحَيِّ شَتّى كَأَنَّها تَــوالي صَــواراً وَالأَسِــنَّةُ تَرعَــفُ[٥]
فَفِئنــا غَــداةَ الغِــبِّ كُــلَّ نَقيــذَةٍ وَمِنّــا الكَمــيُّ الصــابِرُ المُتَعَــرِّفُ[٦]

يصف طرفة كرم قومه الذي يبرز في الأيام الشديدة ، حين تمر الغيوم البيضاء الخالية من المطر ، كأنها شحم أبيض رقيق ، وتهب الرياح الباردة الشديدة ، وينزل الصقيع الذي يشبه القطن البيض ، حينها يطعم طرفة وقومه الضيف نوقاً سمينة ، ويفخر طرفة بشجاعة قومه في القتال ، حين تقطر الرماح دماً كأنّها ترعف.

رسم طرفة مشهداً للشدة التي يلاقيها البدوي في الصحراء من خلال أربع صور لونية .

الأولى : الغيوم المجدبة التي تشبه الشحم البيض .

الثانية : الريح الباردة الحمراء ، كناية عن الشدة .

الثالثة : الصقيع الذي يشبه القطن الأبيض .

الرابعة : الرماح التي ترعف دماً أحمر في ساحة القتال .

---

[١] – السماحيق: هو كل قشرة رقيقة شبيهة بالتي تغطي قحف الرأس. الثَّرب: الشحم الرقيق الذي يلف المعدة والأمعاء وسماحيق ثرب: غُلالات رقيقة من الشحم الأبيض، بها شبَّه الغيوم. الحرجف: الريح الباردة.

[٢] – الصرَّاد: الغيم البارد. الصقيع: الجليد. الكرْسف: القطن.

[٣] – العشار: النوق. الشظي: عظم الساق. المنقيات: مخ العظام. المتصيّف: مكان نزول الصيف.

[٤] – زايل بينها: فرّق بينهم. النشّاج من الطعن: الطعن ينفذ في اللحم فيسمع له نشيج. المخل من الطعن: الطعنة تلي الطعنة. المزعف: السيف لا يسلم منه أحد والمزعف من الطعن الطعنة التي لا شفاء منها.

[٥] – عذارى الحي: الصبايا الأبكار. الصوار: البقر. الأسنّة: رؤوس الرماح. ترعف: يسيل منها الدم.

[٦] — فئنا: رجعنا. الغب: العاقبة. النقيذة =: كل ما استنقذ وخلِّص. الكمّي: الفارس اللابس السلاح. المتعرّف: المتصبّر. ابن العبد، طرفة، الديوان، ص ١٨٨ ، ١٨٩.

لقد استخدم طرفة لوناً فاتحاً (الأبيض) ولوناً آخر شديد الكثافة (أحمر) ليصوِّر مظاهر الحياة القاسية التي يعانيها العربي ، فنلحظ أن حركة الألوان من اللون الفاتح إلى اللون المشبّع ، هذه الحركة تكسب الألوان صفة التبدُّل والتغيّر ، فتعكس حالة التغيرّ الدائم في حياة الصحراء ، وبذلك تصبح صورة كل من الغيوم البيضاء ، والريح الحمراء ، والصقيع الأبيض ، والرماح التي ترعف دماً أحمراً ، صوراً لونية جزئية ، تشكّل في مجموعها مشهداً لونياً كليَّاً يحمل دلالة المشقة والشِّدة .

وفي مشهد زاخرٍ بالصور اللونية يقول امرؤ القيس في وصفه لبئر ماء ورد عليه :

وآجن ماؤه ريش الحمام به ... كأن أشباح حولياته العطب[١]
فيه من الوحش أغفال معطلة ... سيَّان مرتعها التوثيل والنَّجبُ[٢]
وردته موهناً والنسر مرتفع ... كأنه نيِّراً عينٌ لها شهب[٣]
أرسلت دلوي في حافات مظلمة ... جوفاء يقصر عن مرجوها السبب[٤]
ليلاً فجاءت بماء من معورة ... مرت عليه حديد الناب معتصب[٥]
أعمى أصم له رقشاء تألفه ... ما إن له غير إزراء به نشب[٦]

---

[١] – الأجن: الماء المتغيرِّر الكدر، الماء الآسن. الأشباح: الخيالات، الظلال. حوليَّاته: الطير التي قد أتى عليها الحول. العطب: القطن .

[٢] – الأغفال: أولاد الوحوش وصغارها الذين يغفلون معرفة أمور كثيرة. المعطلة: الهالكة. مرتعها: مرعاها. النجب: قشر الشجر. التوثيل: نبات ترعاه الوحوش.

[٣] – موهناً: ليلاً. نيِّراً: كوكبا منيراً. عين: نبع ماء. الشهب: المشاعل.

[٤] – المظلمة: البئر. الحافات: الجوانب. السب: الحبل. مرجوها: قاعها.

[٥] – المعورة: البئر التي سدت. المرت: المستوي. الحديد الناب: كناية عن الذكر من الحيات. المعتصب: المعصوب الرأس.

[٦] – رقشاء: الأنثى من الحيات. الإزراء: التقصير. النشب: كثرة المال وهنا القفز

رأى الخزايــة أن تجتــر مفعمــة دلـوي ، فجـاء علـى أعوادهـا يثـب[١]
غضبان في نابه الحوبـاء عاجلـة كالحبـل أسـود يعلـو لونــه شــهب[٢]
أهويت سوطي له لمـا برزت بـه فخرّ فوق أتـيِّ الحوض يضـطرب[٣]

يصف امرؤ القيس بئر ماء ورده ليلاً ، وقد طفا على سطحه ريش الحمام ، تتراءى على سطحه خيالات وأشباح ، كأنها قطع القطن الناصع البياض ، وظلال النجوم وأضواؤها تنعكس على صفحة الماء ، فيتلألأ الماء كأنه كوكب منير ، فيرسل امرؤ القيس دلوه في البئر ليملأها بالماء ، وإذ به حين يخرجها ؛ يخرج معها ثعبان كالحبل ، أسود اللون ، يعلو سواده بقع بيض ، فرماه امرؤ القيس أرضاً ، وشرع يضربه ، ويهوي عليه بسوطه ، حتى سقط صريعاً .

استخدم امرؤ القيس نمطاً ثنائياً متضاداً للألوان في عدة صور جزئية ،هذا النمط يتألف من اللونين : الأبيض والأسود ، فالبئر تعلو سطحها خيالات كأنها القطن الأبيض ، وصفحة الماء كأنها كوكب أبيض متلألئ ، والمشهد كان في الليل ، والثعبان كأنه حبل أسود يعلوه بياض ، ذلك التضاد القائم بين الأسود والأبيض يعكس حالة الصراع الذي كان بين الشاعر والثعبان في الليل المظلم .

وقد حاول امرؤ القيس أن يزيد من سطوع اللون الأبيض في مقابل اللون الأسود ، حتى يزداد المشهد إشراقاً ، فعلى الرغم من أنَّ المشهد في الليل ، إلا أن سطح البئر في نظر الشاعر يعلوه ما يشبه القطن الأبيض،وصفحة الماء كوكب نيِّر،

---

[١] – الخزاية: العار. المفعمة: المملوءة.

[٢] – الحوباء: بقية النفس. يعلو لونه : يغطيه. الشهب: البياض.

[٣] – السوط: الكرباج. لمّا برزت به: حين واجهت الأفعوان به وأخرجته. الأتيَ: مصب الماء في الحوت. امرؤ القيس ، الديوان، ص ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ .

والثعبان أسود يعلوه بياض ، كل ذلك الإشراق الذي أضفاه امرؤ القيس على المشهد ؛ يشير إلى أنَّه كان يغالب قسوة الظلام ، فراح يبثُّ اللون الأبيض في صور جزئية لتشكل في مجموعها مشهداً لونياً كليَّاً .

المبحث الثالث

مقوّمات الصورة اللونية .

إنَّ للصورة اللونية مقوِّمات يعتمد عليها السياق ، من خلال البعدين الفكري والوجداني ، يستمد من خلالها الشاعر الجاهلي الصور اللونية ، ويفرزها في النص الشعري ، وتمثِّل تلك المقوِّمات انعكاساً للون في النفس .

وسنتناول في هذا المبحث ثلاثة مقوِّمات هي :

- الذاكرة .
- الحواس.
- الخيال .

١-الذاكرة :

قد تتراءى في ذهن الشاعر صور لونية مختزنة في ذاكرته ، يستمدها من الماضي ، كقول عنترة يخاطب عبلة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منـي ، وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف، لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم[١]

يتذكر عنترة عبلة في المعركة ، حين تنْهلُّ الرِّماح والسيوف من دمه ، فيودُّ لوْ أنَّه قبَّل تلك السيوف اللامعة ، لأنها ذكَّرته بلمعان ثغر محبوبته عبلة ، فصورة عبلة كامنة في ذاكرة عنترة حتى وهو في المعركة ، فما إن رأى لمعان السيوف ؛ حتى استدعى ذلك في ذاكرته لمعان ثغر محبوبته عبلة ، فاستثارت الصورة اللونية صورة

[١] – ابن شداد، عنترة، الديوان، ص١٩١.

لونية أخرى مخزَّنة في ذاكرة عنترة .

وفي صورة لونية أخرى من الذاكرة يقول امرؤ القيس في وصف الهوادج التي تحمل النِّساء :

كَـأنَّ دُمـى سُقفٍ عَلـى ظَهرِ مَرمَرٍ كَسا مُزبِدَ الساجومِ وَشياً مُصَوَّرا[١]
غَرائِـرُ فـي كَـنٍّ وَصَـونٍ وَنِعمَـةٌ يُحَلَّـينَ ياقوتـاً وَشَـذراً مُفَقَّـرا[٢]

يصوِّر امرؤ القيس منظر الهوادج التي تحمل النساء على الإبل ، وهي تسير في السراب الناصع البياض ؛ بصورة دمى وتماثيل مرتفعة ، فوق أعمدة من الرخام الأبيض ، في جبل سقف بديار طيء .

فالصورة التي مثَّل لها امرؤ القيس صورة استدعاها من الذاكرة ، رآها في الماضي ، حين زار هذا الدير الذي في جبل سقف ، وبقيت هذه الصورة بما تحمله من نصاعة وبياض في مخيِّلته ، إلى أن رأى منظر الهوادج ، وهي تسير ، وحولها السَّراب الأبيض ، فتذكَّر امرؤ القيس صورة الدمى على أعمدة الرخام الأبيض ، فأقام علاقة بين المشهديْن ، علاقة قائمة على ما يربط بينهما من بياض والتماع ، فعمل اللون الأبيض عمل المثير والمنشِّط لذاكرة امرئ القيس .

---

[١] – الدمى : الصور من الرخام أو الخشب ، سقف: جبل بديار طيئ . المرمر : ضرب من الرخام . مزبد : علاه الزبد . السّاجوم : واد بجزيرة العرب . الوشي : الثياب المحلاة بالوشي .

[٢] – الغرائر : الغوافل عن الدهر . الكن: هودج النساء . الصون : الحفظ . نعمة : عيش مرفه . يحلَّين : يزيّن الياقوت . الشذر : قطع الذهب . المفقر : المثقب .

٢-الحواس :

إنَّ للصورة الحسيِّة اللونية القدرة على استثارة الحواس ، وتنبيهها ، فهي ، تولّد طاقة تعمل على تنبيه حواس المتلقّي ، فيشترك مع الشاعر في خوض التجربة الشعرية ، وعلى الرغم من ذلك فإنَّ الشاعر "يتجاوز المحسوسات من حيث وجودها العياني القائم إلى الرموز المجرَّدة من ما للشيء المحسوس ذاته من خصائص وصفات ، فالرسام يؤثر باللون الأحمر مثلاً على أعصاب المتلقي مباشرةً . . . أمَّا الشاعر فإنّه لا يستطيع أن يؤثر هذا التأثير الحسي المباشر ، لأنه لا يستخدم اللون استخداماً مباشراً ، أي لا يضعنا وجهاً لوجه أمام اللون ، وإنَّما يبعث فينا اللون من خلال الرمز الصغير الذي يدل به عليه . . . هذا اللون تتلقاه الأذن ، وتراه العين منقوشاً على هيئة حروف ، لكنها لا تنفعل به إلا عندما تعود به من صورته المجردة هذه ، إلى صورته الحسيّة المباشرة ، ولذلك فإن الشاعر يقوم في عمله الفني بعملية تشكيل وراء المحسوسات وتعلو عليها "[١]

وتنقسم الصورة الحسيَّة اللونية إلى :

- صورة بصرية .
- صورة سمعية .
- صورة شمسية.
- صورة ذوقية .
- صورة لمسيّة .

- الصورة البصرية :

يقول تأبّط شراً :

وَقَد لاحَ ضوءُ الفَجرِ عَرضاً كَأَنَّهُ بِلمحَتِهِ أقرابُ أبلَقَ أدهَمِ[٢]

---

[١] – إسماعيل، عزَّ الدين، د.ت التفسير النفسي للأدب،ط٤، (القاهرة: دار غريب)ص٤٩.

[٢] – أقراب: جمع قرب، وهو الخاصرة. الأبلق: لون هو بين الأسود والأبيض. الأدهم: الأسود. تأبَّط شراً ، الديوان ، ط١، (بيروت: دار المعرفة،٢٠٠٣)ص ٧١ .

شبّه تأبّط شراً ضوء الفجر ببياض خاصرة الفرس الأسود ، فضوء الفجر الذي يشق سواد الليل ؛ استدعى عند تأبّط شراً بياض خاصرة الفرس الأسود ، فاعتمدت الصورة على حاسّة البصر من خلال التّضاد القائم بين الأبيض والأسود. والكفن الأبيض يشبه ظهر الثور الأبيض عند عبيد بن الأبرص :

إن أشرَبِ الخَمرَ أو أُرزَأ لها ثَمَناً فَلا مَحالَةَ يَوماً أنَّني صاحي[١]

وَلا مَحالَةَ مِن قَبرٍ بِمَحنِيَةٍ وَكَفَنٍ كَسَراةِ الثَّورِ وَضّاحِ[٢]

يقرر عبيد بن الأبرص حتمية الموت ، فلا مفرّ منه ، ولا بد أن يأتي عليه يوم يكفن فيه بكفن أبيض اللون ، كظهر الثور ، وقد ربط عبيد بين بياض الكفن وبياض ظهر الثور ، فاللون الأبيض للكفن استدعى اللون الأبيض على ظهر الثور ، لوناً يستدعي لوناً آخر ، فالصورة البصرية اللونية تحمل دلالة الموت .

ومن ظهر الثور الأبيض إلى حمار الوحش الأبيض في قول زهير :

كَأنَّ بَريقَهُ بَرَقانُ سَحلٍ جَلا عَن مَتنِهِ حُرُضٌ وَماءُ[٣]

شبّه زهير التماع حمار الوحش وبريقه بالثوب الأبيض النّظيف المغسول ، فعقد زهير علاقة بين منظر حمار الوحش الأبيض وبين الثوب الأبيض النّظيف ، تلك العلاقة قائمة على اللون الأبيض ، معتمدة على حاسّة البصر .

---

[١] – الرزء: المصيبة. وأرزأ: أي أدفع.

[٢] – محنية: منعطف الوادي. سراة الثور: ظهره. وضّاح: أبيض لمّاع. عبيد ، الديوان ، ٤٥ .

[٣] – السّحل: ثوب يماني أبيض. جلا عن متنه: جلا عنه كله. الحرض: الأشنان، نبات تغسل به الأيادي.

الصورة السمعية :

يقول علقمة :

تَخَشـــخَشُ أبـــدانُ الحَديـــدِ عَلَـــيهِمُ كَما خَشخَشَت يَبسَ الحَصادِ جَنوبُ[١]

إنَّ الحديد الذي لبسه المحاربون كان يصدر صوتاً مثل صوت خشخشة الحصاد اليابس الصفر ، الذي هبّت عليه ريح الجنوب ، فقد لاحظ علقمة أنّ ثمَّة علاقة بين صوت خشخشة الحديد على أبدان المحاربين ، وخشخشة الحصاد اليابس الأصفر الذي تحرِّكه ريح الجنوب ، إذ يستدعيان إلى الأذن إيقاعاً واحداً عند علقمة ، فوظّف علقمة اللون الأصفر في صورة سمعية لونية ، تستثير حاسَّة السمع عند المتلقي .

والقوس المِرْنان تشكّل صورة لونية عند النابغة في قوله :

وَلَقَـــد أصـــابَت قَلبَـــهُ مِـــن حُبِّهـــا عَـن ظَهـرِ مِرنـانٍ بِسَـهمٍ مُصـرَدِ[٢]

ذكر النابغة القوس الرنَّانة والسهام ، ولم يرد بها القوس الحقيقية ، وإنَّما أراد القوس التي انطلقت منها سهام الحب ، فأصابت قلبه (إضمار لوني يتضمّن اللون الأحمر لون الدم) فلم يصرح النابغة بذكر القوس ، وإنَّما ذكر صوتها المرنان (عَنْ ظَهْرِ مِرْنَان) تلك القوس المِرْنَان أوقعت النابغة في مصْيدة الحب ، فنزف قلبه بدماء العشق فالصورة اللونية سمعية حسِّيّة ، دلَّ فيها اللون الأحمر على الحب والغرام .

وفي صورة القوس المِرْنان أيضاً يقول تأبَّط شراً في رثاء الشنفرى :

---

[١]- الخشخشة: صوت الثوب الجديد. البدن: الدرع من الزرد. الضبي، المفضل، المفضليات، ص ٥ ٣٩ .

[٢] — المرنان: هي القوس التي في صورتها رنين. مصرّد: أي منفذ.

يُفَـرِّجُ عَنــهُ غُمَّــةَ الــرَوعِ عَزمُــهُ وَصَـفراءُ مِرنــانٌ وَأبـيَضُ بــاتِرُ[١]

يصف تـأبّط شراً قوة الشَّنْفَرَى فـي المعركـة ، إذ يـدفع عن نفسـه الأذى عزمـه وقوسه الصفراء المِرْنان وسيفه الأبيض ، وقد صـوَّر تـأبَّط شراً القوس الصـفراء فـي صورة من يدافع عن الشَّنْفَرى ، ليفرِّجَ عنه الروع ، ولم يصرِّح باسمها ، وإنَّمـا نعتهـا باللون الأصفر (وصفْراء مِرْنان) ، وذكر صوتها المِرْنان في صورة سمعية حسِّيَّة ، وكأنَّما جعل للصفرة صوتاً .

-الصورة الشَّميَّة :

يقول الأعشى :

وَتَضــحَكُ عَــن غُــرِّ الثَنايــا كَأَنَّــهُ دُرى أُقحُــوانٍ نَبتُــهُ لَــم يُفَلَّــلِ[٢]

يصـوِّر الأعشـى ابتسـامة محبوبتـه وظهـور ثناياهـا البيضـاء ؛ بصـورة نبـات البابونج ، زهرة أبيض اللون ، ورائحتة طيِّبة ، فرائحة ثغر المحبوبة استدعت عند الأعشى رائحة نبات البابونج، فالصورة تخاطب حاسَّة الشم ، فحمل اللون الأبيض دلالة الرائحة الطيِّبة العطرة ، حيث بدا وكأنه لون للرائحة العطرية .

ورائحة نبات الخزامى تذكّر عنترة بمحبوبته حين يقول :

وَريــحُ الخُزامــى يُــذَكِّرُ أنفــي نَســيمَ عَــذارى وَذاتِ الأيــادي[٣]

---

[١] – الغُمّة: الكرب والغم. الروع: الفزع. الأبيض الباتر: سيفه .تأبّط شراً، الديوان، جمع وتحقيق علي ذو الفقار شاكر، ط١، (لبنان،درا الغرب الإسلامي، ١٩٨٤م)٨١.

[٢] – الأعشى، ميمون بن قيس، الديوان، ط١، (بيروت: دلر المعرفة، ٢٠٠٥)ص ١٤٥ .

[٣] – الخزامى: زهر متعدد الألوان طيِّب الرائحة. ابن شداد، عنترة، الديوان، ص ٦٧ .

رائحة نبات الخزامى الخضر تستدعي عند عنترة رائحة محبوبته عبلة ، فيتداخل اللون الأخضر مع الرائحة الطيِّبة في الصورة الشعرية .

ولعنترة أيضاً ولكن في صورة الحرب :

وَرَيحانَتي رُمحي وَكاساتُ مَجلِسي جَماجِمُ ساداتٍ حِراصٍ عَلى المَجدِ[١]

جعل عنترة الرمح بما يسببه من جروح يسيل منها الدم الأحمر ريحانة له ، وبالتالي تشكل الدماء الحمراء عند عنترة رائحة عطريَّة يأنس لشمِّها ، فيصبح اللون الأحمر باعثاً على الرائحة الطيِّبة .

- **الصورة الذوقية :**

يشكو طرفة من الجفاء الذي يلاقيه من محبوبته في صورة ذوقية حيث يقول :

ألا إنَّني شَربتُ أسوَدَ حالِكاً ألا بَجَلي مِنَ الشَرابِ ألا بَجَل[٢]

يتوجَّع طرفة من جفاء محبوبته ، ويصوِّر المرارة التي يقاسيها بصورة الشَّراب الأسود الحالك ، فجعل لطعم المرارة لوناً هو اللون الأسود ، حيث مزج بين السواد وبين الطعم المر، في صورة حسِّية ذوقية لونية تعبِّر عن الألم .

والدماء الحمراء تغدو خمراً يتذوقها عنترة :

---

[١] – ابن شداد، عنترة، الديوان، ص٦٨

[٢]-الأسود الحالك: الماء. بجلي: حسبي. بن العبد، طرفة، الديوان، ص٢١٧.

ألا غَنِّيـــا لـــي بالصَـــهيلِ فَإِنَّـــهُ سَـماعي وَرَقـراقُ الـدِماءِ نِـدامي[١]

استدعى تلألؤ لون الدماء الحمراء عند عنترة الدِّماء في ساحة المعركة منزلة الخمر ، فهو يسكر وينتشي لرؤيته للون الأحمر لون الدم ، كما ينتشي غيره بشرب الخمر ، فيصبح اللون الأحمر باعثاً على النشوة واللذة الحسِّيَّة .

وقد تكررت صورة اللون الأحمر الباعث على النَّشوة الحسِّيَّة عند عنترة في عدَّة مواضع :

وَيَصـحَبُني مِـن آلِ عَـبسٍ عِصـابَةٌ لَهـا شَـرَفٌ بَـينَ القَبائِـلِ يَمتَـدُّ
بَهاليـلُ مِثـلُ الأُسـدِ فـي كُـلِّ مَـوطِنٍ كَـأَنَّ دَمَ الأَعـداءِ فـي فَمِهِـم شَـهدُ[٢]

جعل للون الأحمر لون الدم طعماً حلواً في فم قومه الشجعان كطعم الشهد الحلو .

- **الصورة اللمسيَّة :**

يُـدافِعُ أعطـافَ المَطايـا بِرُكنِـهِ كَما مالَ غُصنٌ ناعِمٌ بينَ أغصانِ[٣]

يقول امرؤ القيس في وصف فرسه :

---

[١] – ابن شداد، عنترة، الديوان، ص١٩١.

[٢] – البهاليل: جمع البهلول، وهو السيد الجامع لصفات الخير. الشهد: العسل. الديوان ، ابن شداد، عنترة، الديوان، ص ٥٥_٥٦.

[٣] – الأعطاف: الجوانب. المطايل : التي تمتطى . ركنه : منكبه . امرؤ القيس ، الديوان ، ١٠٨ .

يتحدّث امرؤ القيس عن خروجه على ظهر فرسه ، والذي راح يزاحم المطايا ،

ويدفعها بمنكبيه ، كأنه غصن أخضر ناعم طريٌّ نديّ ، يتثنَّى بين الأغصان ، فقد شبَّه نعومة خيله وليونتها في التثنّي بليونة الغصن الأخضر .

فالصورة تستثير حاسَّة اللمس ، من خلال ما يدلّ عليه اللون الأخضر من نعومة وليونة .

وتشبه هذه الصورة صورة أخرى لا امرىء القيس في وصف فرسه أيضاً :

إذا أقبَلَـــــــت قُلـــــــتَ دُبّـــــــاءَةٌ مِـنَ الحُضـرِ مَغموسَـةٌ فـي الغُـدُر[١]

شبَّه امرؤ القيس خيله بالدبَّاءة الخضراء المرويَّة بالماء ، في نعومتها وليونتها ، حيث أقام امرؤ القيس علاقة بين ملمس فرسه الناعم ، وبين ملمس الدباءة الخضراء المغموسة في الماء ، فهي طريَّة ناعمة ملساء ، فحمل اللون الأخضر دلالة نعومة الملمس ، في صورة لونية لمسيَّة .

٣-الخيال :

الخيال هو الفعل النفساني المكلَّف بصياغة الصور ، وتنسيقها في أنظومة أحادية البنية ، فهو بذلك مسئول عن الصياغة والتلاحم معاً ، إنَّه يصوغ ويدمج ما يصوغ في

[١] -امرؤ القيس ،الديوان،١٧٧.

بنية عضوية واحدة .[٢]

ومن الأمثلة التي حلّق فيها خيال الشاعر الجاهلي ليُشَكّلَ صورة لونية قول تأبَّط شرّاً :

وَإنّـــي- وإن عُمِّـــرْتُ- أعلَـــمُ أنّنـــي سَـألقى سِنانَ المَوتِ يَبرُقُ أصلَعا[١]

قال المرزوقي في شرحه : "يقول أنا وإن أطيل عمري ومُدّ من نفسي بما يلحقني من وقاية الله تعالى على ما أجترحه ؛ أتيقن أنّي سألقى أجلي ، وأوافي مصرعي إذا دنا الحِين المعلوم ، بالحَيْن المحتوم ، وتراءى سنان الموت لي بارزاً بارقاً " [٢]

صوَّر تأبّط شراً الموت في صورة السنان الذي يبرق ، وجعل ذلك السنان في صورة الرجل الأصلع الذي تبرق صلعته ، صورة خيالية عناصرها الواقعية هي : (السنان ، البريق ، الرجل الأصلع ، الموت) .

نلحظ أن تأبَّط شراً قد مزج تلك العناصر الواقعية على نحو خاص بعناصر أخرى ، معتمداً على إبراز عنصر البريق واللمعان في الصورة فعبَّر عن حتمية الموت في صورة خيالية لونية ، كان البريق الأبيض سمة بارزة فيها .

وقد جعل تأبَّط شراً هذه الصورة الخيالية صورة مجسمة ، حين جسَّم مفهوم الموت في صورة السنان اللامع ، " فتشكيل الصورة يرتبط بالخيال والمجاز ، باعتبارهما اللغة الفطرية الأولى التي تمثّل أداة التجسيم ، حيث التجسيم سمة تتسرب في كيان

---

[٢] – اليوسف، يوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ط٣، (لبنان: دار الحقائق،١٩٨٣)ص ٢٩٨ .

[١] – تأبَّط شراً، الديوان ، ص ١١٨ .

[٢] – السابق، هامش ١١٩ .

الإنسان ، عميقة موغلة .....تمتزج بالنفس البشرية ، وتشدّها إلى الطبيعة "[٣] فكان نزوع تأبَّط شراً إلى تجسيم حقيقة الموت في صورة خيالية لونية ؛ سمة تميَّز بها الشاعر الجاهلي .

ومن الصورة الخيالية اللونية التي حفل الشعر الجاهلي بها قول طرفة :

وَقَــد ذَهَبَــت سَــلمى بِعَقلِــكَ كُلِّــهِ فَهَل غَيرُ صَيدٍ أحرَزَتهُ حَبائِلُه؟[١]
كَمــا أحــرَزَت أسـماءُ قَلــبَ مُـرَقّشٍ بِحُـبٍّ كَلَمعِ البَرقِ لاحَت مَخايِلُه[٢]

يتحدَّث طرفة عن تجربة الحب المؤلمة التي خاضها مع سلمى ، فقد سلبت عقله كما سلبت أسماء قلب المرقَّش في حب خادع كلمع البرق في سحابة ، تحسبها تمطر ، ولكنَّها لا تمطر .

صوَّر طرفة الحب الخادع في صورة البرق اللامع الخادع الذي لا يأتي بعده مطر ، فجعل الضوء الذي لا يعقبه فائدة ، كالحب الكاذب ، فلم يكن مراد طرفة أن يجعلنا نكتفي بهذا التصوُّر ، بل أراد أن يحملنا إلى مشارف ذلك الإحساس الذي كان لديه بمعاناته لشيء يتجاوز الضوء اللامع ، إنه ضوء لامع / حب كاذب ، وحب كاذب / ضوء لامع ، إذن هو شيء خيالي لا وجود له على الإطلاق ، ولكنه الآن بفعل البيت الشعري ماثل أمامنا ، هو إذن ذلك الشيء المستحيل الذي استطاع طرفة أن يقربنا منه ، وأن يصوِّره في صورة خيالية لونية لامعة .

---

[٣] – أحمد، عبد الفتَّاح، المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، (بيروت: دار المناهل، ١٩٨٧م)ص٨٨ .

[١] – ذهبت بعقلك: استولت على تفكيرك. أحرزته: حصلت عليه حبائله: شراكه .

[٢] – لمع البرق: كناية عن البشرى بقرب سقوط المطر. لاحت: ظهرت. المخايل: جمع المخيلة وهي السحابة التي، إذا رأيتها حسبتها ماطرة. ابن العبد، طرفة، الديوان، ص٢١٠ .

ويصوِّر النابغة الكلمة القبيحة في صورة لونية خيالية فيقول :

ألا مَـــن مُبلِـــغٌ عَنّـــي خُزَيمـــاً وَزَبّـان الَّـذي لَـم يَـرعَ صِـهري[١]
فَإيّـــاكُم وَعـــــوراً دامِيـــــاتٍ كَـــأنَّ صِـــلأهُنَّ صِـــلاءُ جَمـــرِ[٢]

بلغ النابغة أن حزيماً وزربان قد رويا شعر بدر بن حزار في هجاء النابغة ، فراح النابغة يحذِّرهما من ذلك .[٣]

وقد صوَّر النابغة الهجاء والكلمة القبيحة في صورة العوراء التي تقطر دماً أحمراً، فجعل اللون الأحمر دالاً على القبح ، وهذه صورة خياليَّة ، أقام فيه النابغة علاقة بين الكلمة القبيحة ؛ وبين الدم الأحمر عن طريق الخيال ، " فالخيال في الشعر إبداع ، لأنه يدمج ويوحِّد ، ويهدم ، ويفكك و يركّب . . . ويغيِّر نظام العلاقات بين الظواهر والأشياء "[٤] فقد استطاع النابغة أن يبعث في إحساس المتلقّي الشعور بالاشمئزاز من الكلمة القبيحة ، وذلك من خلال اللون الأحمر لون الدم ؛ حين ربط بالكلمة القبيحة ، الكلمة القبيحة / دم أحمر ، الدم الأحمر / كلمة قبيحة ، إنه يحدثنا عن علاقة لا وجود لها في الواقع العياني ، وإنَّما يمكن تصوُّرها بعين الخيال .

ويحدثنا عبيد بن الأبرص عن مهاراته الشعرية ، في صورة خيالية تضمَّنتْ تشْكيْلاً لونياً متضاداً ، فيقول :

---

[١] — خُزَيم وزبان: هما ابنا سيار بن عمرو.

[٢] — العور: جمع عوراء، وهي الكلمة القبيحة. داميات: أي يقطرن دماً. الذبياني، النابغة، الديوان، ص٥٤.

[٣] — السابق ، ٥٤.

[٤] — نصر ،عاطف جودة ، الخيال مفهوماته ووظائفه، ص ٣٥١ .

سَـلِ الشُـعَراءَ هَـل سَـبَحوا كَسَـبحي ... بُحورَ الشِعرِ أو غاصوا مَغاصي[١]
لِسـاني بـالقَريضِ وَبـالقَوافي ... وَبالأشـعارِ أمهَـرُ فـي الغَـواصِ
مِـنَ الحـوتِ الَّـذي فـي لُـجِّ بَحـرٍ ... يُجيـدُ السَبحَ فـي اللُجَـجِ القِمـاصِ[٢]
إذا مـا بـاصَ لاحَ بِصَـفحَتَيهِ ... وَبَـيَّضَ فـي المَكَـرِّ وَفـي المَحـاصِ[٣]
تُـلاوِصُ فـي المَـداصِ مُلاوِصـاتٌ ... لَـهُ مَلصـى دَواجِـنَ بِـالمِلاصِ[٤]
بَنـاتُ المـاءِ لَـيسَ لَهـا حَيـاةٌ ... إذا أخـرَجتَهُنَّ مِـنَ المَـداصِ[٥]
إذا قَبَضَـت عَلَيـهِ الكَـفُّ حينـاً ... تَنـاعَصَ تَحتَهـا أيَّ اِنتِعـاصِ[٦]
وَبـاصَ وَلاصَ مِـن مَلـصٍ مَـلاصٍ ... وَحـوتُ البَحـرِ أسـوَدُ ذو مِـلاصِ[٧]
كَلَـونِ المـاءِ أسـوَدُ ذو فُشـورٍ ... نُسِـجنَ تَلاحُـمَ السَـردِ الـدِلاصِ[٨]

يفخر عبيد بمهارته الشعرية التي تميَّز بها ، فيصوِّر نفسه بصورة الحوت الأسود الماهر في السباحة في بحر عميق ، حين يسرع في الماء كرّاً وفرّاً ؛ يحدث موجاً أبيضاً فتخاف الأسماك من أنْ يبْتلعها ، وفي ذلك إشارة إلى خوف الشعراء من مباراته في الشعر .

تلك الصورة اعتمد فيها عبيد بن الأبرص على عناصر واقعية هي :
(الحوت الأسود ، البحر العميق ، الموج الأبيض ، الأسماك)

---

[١] – غاصوا: عمّقوا.

[٢] – اللّج: معظم الماء. القماص: المضطربة.

[٣] – باص: أسرع. المحاص: الرّجوع أو المفر، ضدّ المكر.

[٤] – تلاوص: تخادع. المداص: المغاص من الماء. الملص: جمع مليص: أي السّمكة. دواجن: مقيمة. الملاص: المنسلتة.

[٥] – بنات الماء : الأسماك .

[٦] – تناعص: تحرّك.

[٧] – باص: هرب. لاص: حاد. الملص: الزّلق. ملاص: تخلُّص وانفلات.

[٨] – السّرد: الدرع من الحلق. الدّلاص: اللّيّن اللمّاع. ابن الأبرص، عبيد، الديوان، ص ٧٣ ، ٧٤ .

اعتمد عبيد بن الأبرص على تلك العناصر الواقعية في تشكيل صورة خيالية ، وقد كان التباين على مستوى العناصر ملمِّحاً بارزاً :

فمن حيث الألوان الحوت أسود/ الموج أبيض .
ومن حيث الحجم الحوت كبير / السمك صغير
ومنح حيث القوَّة والضعف الحوت قوي / السمك ضعيف
إذن الواقع هو الشاعر ماهر / غيره من الشعراء أقل مهارة منه .

فالشاعر عبيد بن الأبرص يعيش متعة من خلال التجربة الخيالية ، إنه يريد أن يشمخ ويمتد بمهارته الشعرية كما يشمخ اللون الأسود على اللون الأبيض ، في نموذج مبتكر يبصره المتلقي بعين الخيال .

ويقابلنا عنترة بن شدَّاد في صورة خيالية للغول ، بثَّ فيها عدداً من الألوان ، فيقول :

وَالغـولُ بَـينَ يَـدَيَّ يَخفـى تـارَةً وَيَعـودُ يَظهَـرُ مِثـلَ ضَـوءِ المَشـعَلِ
بِنَـواظِرٍ زُرقٍ وَوَجـهٍ أسـوَدٍ وَأَظـافِرٍ يُشـبهنَ حَـدَّ المِنجَـلِ[1]

يصوِّر عنترة صورة الغول ، وهو يختفي ثم يعود للظهور بصورة ضوء المشعل ، وقد ظهرت عيناه بلون أزرق ، وتلوّن وجهه باللون الأسود .

إن الأبيات لا تمضي في اتجاه تسجيل الوقائع ، ولكن عنترة صاغ تلك الصورة صياغة جديدة على المستوى التخييلي ، تنتج بطولة مأمولة ، كان من المستحيل

[1] –بن شداد، عنترة، الديوان، ص ١٣٧ .

بلوغها في الواقع كما هي ، فاستعان بالألوان في نسج تلك الصورة الخيالية ، فاستخدم تقنية تناوب الضوء والظلام على الصورة ، فالغول يظهر ، ثم يختفي مرة أخرى ، وقد جعل عنترة عينا الغول زرقاء ، متّكئاً على الإيحاءات السلبية التي يحملها اللون الأزرق للعين في مخيِّلة الجاهلي ، فالشاعر الجاهلي يجعل قوى الشر تتلون عيونها باللون الأزرق ، مثل عيون كلاب الصيد التي تهاجم الثور الوحشي المسكين ، وفي ذلك يقول امرؤ القيس :

فَصَبَّحَهُ عِندَ الشُروقِ غُدَيَّةً كِلابُ بنُ مُرٍّ أو كِلابُ بنُ سِنبِسِ[١]
مُغَرَّثَةً زَرقاً كَأنَّ عُيونَها مِنَ الذَمرِ وَالإِيحاءِ نُوّارُ عِضرِسِ[٢]

والعرب تعد كل أزرق العين لئيماً يتشاءمون منه [٣] كقول سويد اليشكري :

لَقَد زَرِقَت عَيناكَ يا بنَ مُكَعبَرٍ كَما كُلُّ ضَبيٍّ مِنَ اللُؤمِ أزرَقُ[٤]

ولكي يجعل عنترة الصورة أكثر رعباً ، لوّن وجه الغول باللون الأسود الذي يظهر تارة ويختفي تارة في صورة خيالية .

وقد استعان عنترة بعناصر واقعية في تشكيل الصورة الخيالية اللونية؛ وهي : (ضوء المشعل ، الظلام ، النواظر الزرق ، الوجه الأسود ، الأظافر ، حدّ المنجل)

---

[١] – فصبّحه: فأتاه صباحاً. غديّة: أول النهار.

[٢] – مغرّثة: مجوّعة. زرقاً: أى لون هذه الكلاب أزرق. الذّمْر: الزّجر والإغراء بالصيد. العضرس: شجر أحمر النور أي الزهر. نوّار: زهر. وعيون الكلاب تضرب إلى الحمرة. امرؤ القيس، الديوان، ص ١١٨ .

[٣] – الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء ، شرح محمود شاكر، (القاهرة: مطبعة المدني ، ١٩٧٤م)هامش ١٣٣/١ .

[٤] – الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني ، ط٢، (بيروت: دار الفكر) ١٠ / ٣٩٩ ، تحقيق سمير جابر.

وقد قام عنترة بالربط بين هذه العناصر الواقعية عن طريق الخيال ، فأنتج لنا صورة الغول ، "فالشعر العربي لا يعيد الواقع؛وإنما يحوِّل العناصر الواقعية المنتقاة والمركَّبة على غير المألوف إلى تجربة جديدة، يكشف فيها الشاعر ما لم يكن يعرفه ، أو ما كان يحسُّ به ولا يتبيَّنه ، فإنه لا بد من الانتباه إلى أن من مميزات التجربة التخييليّة هي أنها تشير إلى تحدي الماضي والحاضر على السَّواء "[١]

[١] –الحميداني، حميد، الواقعي والخيالي في الشعر العربي القديم، ط١، (المغرب: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٧م)ص٣٤ .

الفصل الثالث

مستوى التشكيل الرمزي

- المبحث الأول : اللون ورؤية الطبيعة.

- المبحث الثاني : اللون ورؤية الحيوان.

- المبحث الثالث : اللون ورؤية الإنسان.

المبحث الأول

اللون ورؤية الطبيعة

أَلِفَ الشاعر الجاهلي رؤية جمال الطبيعة ماثلاً حيَّاً ناطقاً ، فتعمَّق في كشف أسرارها ورموزها ، من خلال إعادة تشكيلها بصياغة تستجيب لتجربته ، فاستطاع أن يعيد رسم هذه الطبيعة من خلال تشكيلات لونية تحلّق في عوالم من الإيحاءات والرموز .

١- الشمس :

كان الشعراء الجاهليون يتحدثون عن غاراتهم في وقت ظهور الشمس ، ، كقول عنترة :

صَبَحْنَاهُمُ بِالحِنْوِ خَيْلاً مُغِيْرَةً فَما بَرِحَتْ تَحْوِي الأُسارى وتَسْلُبُ
لَدُنْ ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ حَتَى تَغَيَّبَتْ وَأَقْبَلَ لَيْلٌ يَقْبِضُ الطَّرْفَ غَيْهَبُ[١]

وقوله أيضاً :

يا عَبلُ كَم مِن غَمرَةٍ باشَرتُها بِمُثَقَّفٍ صُلبِ القَوائِمِ أسمَرِ[٢]
فَأَتَيتُها وَالشَمسُ في كَبَدِ السَما وَالقَومُ بَينَ مُقَدِّمٍ وَمُؤَخِّرِ[٣]

---

[١] — بن شداد، عنترة ، الديوان، ص ٢٤.

[٢] — المثقّف: الرمح المقوم .

[٣] — بن شداد، عنترة ، الديوان، ص ٨٤ .

وقول السُّليك :

فَمـا ذَرَّ قَـرنُ الشَمس حَتّـى أريتُـهُ قصـــارَ المَنايـــا وَالفُـؤادُ يَـذوبُ[١]

فيتمثَّل اللون الأصفر في ضوء الشمس رمزاً منقذاً للناس من سواد الليل الذي يخبئ الأشرار، فيحمل حينئذٍ اللون الأصفر دلالة إيجابية .

وفي مقابل تلك الدلالة الإيجابية لهذا اللون ، تبرز دلالة أخرى سلبية ترى أن الشمس بلونها ألأصفر ترمز للموت ، يقول قسُّ بن ساعدة :

مَنَـــعَ البَقـــاءَ تَقَلُّـــبُ الشَـــمس وَطُلوعُهـــا مِـــن حَيـــثُ لا تُمســـي
وَطُلوعُهـــا بيضـــاءَ صـــافِيَةً وَغُروبُهـــا صَـــفراءُ كَـــالوَرس
اليـــومَ أعلـــمُ مـــايجيءُ بـــهِ ومضـــى بِفَصْـــلِ قضـــائهِ أمـــس[٢]

فقد جعل قسُّ بن ساعدة اللون الأصفر لضوء الشمس يرمز إلى الموت وعدم البقاء ، وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص :

---

[١] – ذرّ قرن الشمس : أشرقت الشمس . قصار : أقصى الجهد .المنايا : الموت . الفؤاد يذوب: القلب يسيل هلعاً ابن السلكة، السليك، الديوان، ص ٥٩ .

[٢] – الثعالبي، أبو منصور عبد الملك محمد بن إسماعيل، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، (مصر:دار المعارف، ١٩٦٥)٢٣٢.

يـا عَمـروُ مـا راحَ مِـن قَومٍ وَلا اِبتَكَـروا إلا وَلِلمَـــوتِ فـــي آثـــارِهِم حـــادي[١]
يـا عمْـرو مـا طَلَعَتْ شَمْسٌ ولا غَرَبَتْ إلاَّ تقـــــرب آجَـــــالاً لمِيْعَـــــاد[٢]

لذلك كان اللون الأصفر في الشمس يذكّر الخنساء بحزنها الدفيْن على أخيها صخْر :

يُـذَكّرُني طُلـوعُ الشَـمسِ صَـخراً وَأذكُـرُهُ لِكُـلِّ غُـروبِ شَـمسِ[٣]

وبذلك رمز اللون الصفر في الشمس إلى دلالتين متقابلتين الموت والحياة .

٢- الليل :

اتخذ اللون الأسود في الليل لدى الشاعر الجاهلي دلالة سلبية ، تبرز تلك الدلالة في حديث الشعراء عن الليل في سياق المصائب والآلام.

كقول عنترة يرثي مالكاً :

لَقَد كانَ يَوماً أسوَدَ اللَيلِ عابِساً يَخافُ بَلاهُ طارِقُ الحَدَثانِ[٤]

---

[١] – راح: سار مساءً. بكر: سار باكراً في الغداة. حادي: سائق.

[٢] – ابن الأبرص، عبيد، الديوان، ص ٥٥ .

[٣]– الخنساء، الديوان ، ص ١٩١ .

[٤] – ابن شداد، عنترة، الديوان ،ص ٢٠٠ .

فقد جعل عنترة اليوم الذي توفي فيه مالك يوماً أسود الليل ، فاتخذ اللون الأسود دلالة الموت والألم .

وزهير العبسي يرثي ابنه الذي قتل آخر الليل :

بَكَيْتُ لِشَأْسٍ حِيْنَ خُبِّرْتُ أَنَّهُ بِمَاءِ غَنِيٍّ آخِرَ اللَّيْلِ يُسْلَبُ
لَقَدْ كَانَ مَأْتَاهُ الرِّدَاةَ لِحَتْفِهِ وَمَا كَانَ لَوْلاَ غِرَّةُ اللَّيْلِ يُغْلَبُ[١]

يرثي زهير العبسي ابنه شأساً ، وقد ذكر وقت مقتله وهو آخر الليل ، ويجعل سواد الليل سبباً في مقتله (وما كان لولا غرة الليل يغلب) فيحمل اللون الأسود حينئذٍ دلالة الخديعة والمخاتلة، ونلحظ استخدام زهير للأفعال المبنية للمجهول (يسلب) (يغلب) فيرتبط اللون الأسود بالأمر المجهول الذي يبعث القلق والخوف ، لذلك نجد ذكر الجن يرد مع ذكر الليل الأسود " وأهم مواضع الجن في نظر الجاهليين ؛ هي المواضع الموحشة . . . لا سيَّما في الليالي المظلمة ، وإذا دخلها مضطراً ؛ تخيَّل الأشباح والأرواح ، وهي تلعب به كيف تشاء ، وتحوم حوله ، ومن هنا ظهر عندهم القصص المروي عن مواطن الجن "[٢]

يقول تأبَّط شراً :

أتوا ناري فَقُلتُ مَنونَ أنتُم؟ فَقالوا: الجِنَّ، قُلتُ :عِموا ظَلاما[٣]

ربط تأبَّط شراً بين الجن وبين اللون الأسود ، يظهر ذلك في ردِّه عليهم بأن

---

[١] – الرداة: جمع ردْهة وهي حفيرة في وقف من الأرض تحفر أو تكون خلقه فيه يجتمع فيها الماء فتكون مورداً . القيصل، عبد العزيز بن محمد، شعر بني عبس في الجاهلية والإسلام حتى آخر العصر الأموي، ط١، (الرياض: مطابع الفرزدق،١٤١١هـ)ص١٣.

[٢] – الخطيب، محمد، المجتمع العربي القديم ، ط١، (سوريا: دار علاء الدين،٢٠٠٥م) ص١٤٠.

[٣] منون : جمع مَنْ ، يريد أن يسألهم عن هويتهم ومن هم .عموا ظلاماً : أي أنغموا وسلموا ليلاً . تأبَّط شراً،= =الديوان ، ص ٦٧ .

يتنعَّموا في الظلام الأسود ، مخالفاً للتحية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي ، وهي (عِمْ صباحاً) ، فيصبح اللون ألأسود رمزاً للأمر المجهول ، فقد عبَّر تأبَّط شراً عن جهله لهويتهم ، من خلال أسلوب الاستفهام (منون أنتم ؟) ، فكانت الإجابة أكثر غموضاً (الجن) ، فمن معاني كلمة جن :" الاستتار والخفاء ومنه سمي الجنين لاستتاره" فأتى ردُّ تأبَّط شراً عليهم محتوياً على دال لوني يدل على الخفاء والغموض وهو اللون الأسود ويلعب اللون الأسود مع حاسّة السمع دوراً في إثارة مزيدٍ من الخوف والرعب ، عند الجاهلي ، " ففي بعض القفار ، تتنادى الجن في الليالي ، ويسمع لها عزيف رهيب يتردد على الرِّمال ، ويغوص في كل جوفٍ سحيقٍ من الأرض "[١] ، وفي ذلك يقول الأعشى :

وَبَلدَةٍ مِثلِ ظَهرِ التُرسِ موحِشَةٍ لِلجِنِّ بِاللَيلِ في حافاتِها زَجَلُ[٢]

فيشكّلَ اللون الأسود مع الصوت المجهول دلالة الخوف والرعب .
لذلك كان السير في الليل المظلم مصدر فخر للعربي كقول حاتم الطائي :

وَلَيلٍ بَهيمٍ قَد تَسَربَلتُ هَولَهُ إذا اللَيلُ بِالنَكسِ الضَعيفِ تَجَهَّما[٣]

وقول عنترة :

كَم لَيلَةٍ سِرتُ في البَيداءِ مُنفَرِداً وَاللَيلُ لِلغَربِ قَد مالَت كَواكِبُهُ[٤]

ولبيد يحتقر السير في الليل فيقول متحدثاً عن نفسه :

---

[١] – ضناوي، سعدي ، أثر الصحراء في العصر الجاهلي ، ط١ ،(بيروت:دار الفكر اللبناني، ١٩٩٣م) ص ١٩٢ .
[٢] – الأعشى ، الديوان ، ١٤٩ .
[٣] – الهول : المخافة . تجهم : استقبله بوجهٍ كريه .الطائي، حاتم، الديوان ، ص ٨٣ .
[٤] – بن شداد، عنترة ، الديوان ، ص ٢٨ .

غَربُ المَصبَّةِ مَحمودٌ مَصارِعُهُ لاهي النَهارِ لِسَيرِ اللّيلِ مُحتَقِرُ[١]

يفرغ لبيد اللون الأسود من دلالته على الخوف ، ويقف متحديَّاً له ، بل محتقراً .

ويكثر ذكر الليل الأسود عند الصعاليك فالليل يغشى الكون بدياجيه الكثيفة ، فيكون ذلك أمعن في التخفّي وأقرب إلى مواتاة الفرصة[٢] ، فيقول تأبَّط شراً مفتخراً بنفسه :

عاري الظَنابيبِ مُمتَدٍّ نَواشِرُهُ مِدلاج أدهَمَ واهي الماءِ غَسّاق[٣]

فيحمل اللون الأسود عند الصعاليك دلالة التَّخفّي والتَّستُّرْ عن الناس ، في حين أنَّهم متيقّظِيْن شدِيْدِي الحذر من هذا الليل الأسود .

يقول تأبَّط شراً :

وَأخطَأهُم قَتلي وَرَقَّعتُ صاحِبي عَلى اللّيلِ لَم تُؤخَذ عَلَيَّ المَخاتِلُ[٤]

ينفي تأبَّط شراً فاعلية السواد فلا أحد يستطيع أن يباغته في الليل ، فهو دائم اليقظة ، قليل النوم ، لا يستسلم ولا يضعف أمام هيمنة اللون الأسود الذي يغطي الكون ، بل يبقى حذراً متنبِّهاً ، بل ويسعى لمقاومة هذا اللون الأسود بإيقاد النار،

---

[١] – غرب المصبَّة : أي هو واسع الخير والعطاء . محمود المصارع : أي يحمد إذا سكر لأنه يعطي ويهب . ابن ربيعة، لبيد، الديوان ، ص ٥٩ .

[٢] – خليف، يوسف، الشعراء والصعاليك في العصر الجاهلي،ص ١٨٢ .

[٣] – الظنابيب: جمع ظنبوب ، وهو حرف عظم السَّق . النواشر: جمع ناشر ، وهو العرق الظاهر بالذراع. مدلاج: الذي يسافر كثيراً بالليل. الأدهم: الليل الأسود الغسَّاق ذو الظلمة الشديدة. تأبَّط شراً، الديوان ، ص ٤٢ .

[٤] – السابق ، ٥١ .

فيقول :

وَنــارٍ قَــد حَضَــأتُ بُعَيــدَ هَــدءٍ بِــدارٍ ماأُريــدُ بِهــا مُقامــا[١]
سِــوى تَحليــلِ راحِلَــةٍ، وَعَيــرٍ أُكالِئُــهُ مَخافَــةَ أن يَنامــا[٢]

أشعل تأبَّط شراً ناره في الليل حتى لا يغلبه النعاس ، فهو يريد أن يدفع سلطة اللون الأسود عليه ، حيث أن النفس تسكن في سواد الليل فتنعس ، لكن تأبَّط شراً يقاوم هذا اللون بإيجاد عنصر الضوء الذي ينفي الظلام الأسود ويزيله .

لذلك نجد المهلهل بن ربيعة يشكو من طول ليله ، فيبحث عن النهار حتى ينفي فاعلية الظلام الأسود ، فيقول :

أَلَيلَتَنــا بِــذي حُسُــمٍ أنيــري إذا أنتِ اِنقَضَيتِ فَلا تَحوري[٣]
فَــإِن يَــكُ بِالــذَنائِبِ طــالَ لَيلــي فَقَــد أبكــي مِــنَ اللَيــلِ القَصــيرِ
وَأَنقَــذَني بَيــاضُ الصُــبحِ مِنهــا لَقَــد أُنقِــذتُ مِــن شَــرٍّ كَبيــرِ
كَــأَنَّ كَواكِــبَ الجَــوزاءِ عُــودٌ مُعَطَّفَــةٌ عَلــى رَبــعٍ كَسـيرِ[٤]

---

[١] – بعيد هدء: أي حين سكن الناس وهدأوا .

[٢] – تأبَّط شراً ، الديوان ،ص ٢٥٥ ، ص٢٥٦.

[٣] – ذي حسم: موضع. وتحوري: ترجعي.

[٤] – العوذ: الحديثات النّتاج واحدتها عائذ، وإنما قيل لها عوذ، لأن أولادها تعوذ بها. والرّبع: ما نتج في الربيع.

كـأن الجـدي فـي مثنـاة ربـقٍ أسـيرٌ أو بمنزلـة الأسـير[١]
كـأن الـنجم إذ ولّـى سـحيراً فصـال خلـن فـي يـوم مطيـر[٢]
كواكبهـا زواحـف لاغبـات كـأن سـماءها بيـدي مـدير[٣]
كواكـب ليلـة طالـت وغمَّـت فهـذا الصـبح واغمـة فغـوري[٤]

يشكو المهلهل من طول ليلته التي يقضيها بموضع يقال له ذي حسم ، فيخاطب الليل الأسود ويأمره بأن ينقضي ولا يعود ليحلَّ الضوء محلَّه ، فإن كان ليله قد طال بالذنائب لفقده أخاه كليباً ، فكم من ليلةٍ كان يستقصرها ، أماَّ ليلته هذه فنجومها لا تتحرك ، فكأن كواكب الجوزاء نياق حديثات النتاج ، تعطف على ربع مكسور لا يقوى على النهوض ، وكأنَّ الجدي أسيرٌ قد شُدَّ بحبلٍ شديدِ الإحكام ، وكأن النجم فصيل يسير ببطء في يوم مطير ، فلا يسرع خوفاً من الزلق ، فجميع كواكب الليلة تزحف زحفاً بطيئاً ، وحين أتى الصباح كان بمثابة المنقذ من تلك الليلة الثقيلة .

إنه تصوير دقيق جداً لتجربة عاشها المهلهل يحكي فيها مشكلته مع الزمن متمثّلاً في سواد الليل ، وقد جعل المهلهل اللون الأبيض منقذاً له من اللون الأسود الذي سمَّاه شراً كبيراً .

وَأنقَذَني بَياضُ الصُبحِ مِنها لَقَد أُنقِذتُ مِن شَرٍّ كَبيرِ

فيقف اللون الأبيض في مقابل اللون الأسود ، حيث يرمز اللون الأبيض إلى الخير ،

---

[١] – المثناه هاهنا: الحبل، والرّبق: الشَّدُّ. قال أبو علي: ولا أعرف الرّبق الشَّدُّ إلا عنه.

[٢] – النجم: الثريا، وإنما شبهوها بالفصال في يوم مطير لبطئها، وذلك أن الفصيل تخاف الزلق فلا يسرع .

[٣] – الزّواحف: المعييات التي لا تقدر على النّهو. واللّواغب: مثلها، كرّره توكيداً لمّا اختلف

[٤] – القالي ، أبو علي، الأمالي، تحقيق محمد عبد الجواد ، د . ت ، (مصر: مطبعة الأميرية)٢/ ١٣٠

بينما يرمز اللون الأسود إلى الشر الكبير .

ويشكو الشاعر الجاهلي من ثقل الليل الأسود حين يتلوّن 'حساسه الداخلي بالواقع الخارجي من حوله ، فيتذكر حزنه وألمه في الليل ، فيجافيه النوم ، فيطلق الشكوى من الأرق ، يقول الحارث بن حلزة :

أرقــاً بــتُّ مــا ألــدُّ رُقــاداً تَعتَريني مُبَرِّحــاتُ الأُمــور[١]
واردات وَضــاجِراتٍ إلــى أن حَسَرَ المُدلهِمُّ ضَوءَ البَشير[٢]

يشكو الحارث من الأرق في الليل الأسود وما إن ظهر ضوء الصبح ؛ حتى انجلت عنه الغمَّة التي كان الليل الأسود مثيراً لها ، فقد لعب اللون الأسود دور إثارة الهموم والأحزان ، مما جعل الحارث يفزع إلى ضوء الصبح حتى يزيل عنه تلك الهموم فسمَّاه ضوء البشير ، فأقام نوعاً من التقابل بين الظلام الأسود المتمثّل في ظلام الليل ، و ضوء النَّهار ، فحمل الظلام الأسود دلالة الهمّ ، بينما حمل ضوء النهار دلالة الاستبشار والخير .

وعنترة يفر همومه وأحزانه في الليل إلى خيال عبلة ، فهو المنقذ له من ظلمة الليل الأسود :

يا عَبلَ لَولا الخَيالُ يَطرُقُني قَضَيتُ لَيلي بِالنَوحِ وَالسَهَرِ[٣]

يصوِّر عنترة الواقع الكئيب في زمن معيَّن وهو الليل الأسود ، ويربط هذا

[١] – مبرحات الأمور: شدادها.

[٢] – حسر: كشف. المدلهم: الليل الشديد السواد. البشير: ناقل الخبر المفرح. الحارث بن حلزة ، الديوان ، ٧٠

[٣] – ابن شداد، عنترة، الديوان ، ص ٨٣ .

الليل الأسود بالنوح والسهر والألم ، وفي نفس الوقت يبحث عما ينتشله من هذا الواقع المؤلم ، إنه خيال عبلة ، فنجد أن اللون الأسود يومئ إلى موقف عنترة الذي يواجه من خلاله الحب والحياة ، فيغدو رمزاً للعذاب الذي يعانيه في واقعه الأليم .

ونجد الخنساء تذكر صخراً في الليل فتبكي وتنوح :

بَكَت عَيني وَعاوَدَتِ السُهودا وَبِتُّ اللَيلَ جانِحَةً عَميدا[١]

إنّي أرَقتُ فَبِتُّ اللَيلَ ساهِرَةً كَأَنَّما كُحِلَت عَيني بِعُوّارِ[٢]

ولها أيضاً:

إنّي تَذَكَّرتُهُ وَاللَيلُ مُعتَكِرٌ فَفي فُؤادِيَ صَدعٌ غَيرُ مَشعوبِ[٣]

تكرار لفظ الليل الأسود في الأبيات السابقة ، واتفقت جميعها على أن الليل الأسود قد ذكَّر الخنساء بهمِّها وثكْلِها .

إن اللون الأسود يثير في أعماق الخنساء الشعور بالحزن فيغدو بذلك رمزاً للمشاعر النَّفْسية المؤلمة .

٣- البرق :

حين يتلألأ البرق بلونه الأبيض في سماء الصحراء المجْدبة ، يفرح البدوي

---

[١] – عاودت: راجعت. الخنساء، الديوان ، ص٥٢.

[٢] – العوار : الرَّمص الذي يعترض في العين طولاً . الخنساء، الديوان ، ص ١٦٥ .

[٣] – معتكر: كثير الظلم. الخنساء، الديوان ، ص ١٨٣ .

فرحاً شديداً ، ويستبشر بغيثٍ يحيي الأرض الميتة ، وينبت الكلأ ، فترعى الأغنام،ويعمَّ الخير .

يقول امرؤ القيس :

أعِنّي عَلى بَرقٍ أراهُ وَميض ... يُضيءُ حَبيًّا في شَماريخَ بيض[١]

وَيَهدَأُ تاراتٍ سَناهُ وَتارَةً ... يَنوءُ كَتَعتابِ الكَسيرِ مَهيض[٢]

وَتَخرُجُ مِنهُ لامِعاتٌ كَأَنَّها ... أُكُفٌّ تَلَقّى الفَوزَ عِندَ المَفيض[٣]

يخاطب امرؤ القيس صاحبه ، طالباً منه أن يساعده في النَّظر إلى البرق الذي يسطع في السماء ، فيراه يسكن تارة ، وتارة يتثاقل في حركته ، كحركة الإنسان الذي كسرت رجله ثم جبرت ثم كسرت فاضطر أن يمشي معتمداً على العصا ، وهذا السحاب تخرج منه بروق لامعات كأنَّها أكف تمتد لتنال مايفيضه الياسر المقامر الذي يضرب القداح للفوز .

إنَّ بروز اللون الأبيض واضح جداً في الأبيات السابقة ، فقد كرر امرؤ القيس هذا اللون في دوالَّ عدَّة ، (وميض) (يضيء) (سناه) (لامعات) وكلُّها دوال تجسد التألق والفرح بهذا البرق المبشِّر بالخير ، فيعكس اللون الأبيض حالة الأمل والفرح الذي يحدو الشاعر وهو يرى هذا العرس الكوني ، فالمطر الذي يصحب البرق

---

[١] – برق: لمع. وميض: لمعان خفيف. الحبِّي: السحاب المتداني بعضه إلى بعض. شماريخ: أعالي الجبال.

[٢]– تارات: أحياناً. سناه: نوره. ينوء: يرزح تحته. التعتاب: المشي على ثلاث قوائم. الكسير: الذي كسرت رجله. المهيض: هو الذي يمشي على رجل كسرت ثم جبرت ثم كسرت فيمشي على ثلاث قوائم ، رجلين وعصا طويلة.

[٣]– اللامعات: البروق. الفوز: القهر والغلبة. تلقى: تتلقى. المفيض: الياسر المقامر الذي يضرب القداح ليظفر ويفوز. امرؤ القيس، الديوان ، ص٨٨ .

"عرس كوني ، فيه حلم وفرح وأمل بالتجدد ، وكل هذا ناتج عن فاعلية المطر الذي يزلزل وجه الأرض ، ليعيد تشكيلها ورسمها من جديد ، بشكل يتحقق فيها حلمه وأمله، ليعيد التلاؤم والانسجام للحياة ؛ لأن عودتها تعني حياة هانئة زاهية فرحة "[١]

فيصبح اللون الأبيض رمزاً للخير والنَّماء ، على مستوى الذات الشاعرة ، وعلى مستوى الجماعة في البيئة الجاهلية .

وقد كان الشعراء يقلقون ويأرقون في عتمة الليل ، ينتظرون البرق الأبيض يلوح في السماء ، فتأتي عبارات القلق والتوتر بكثرة في الشعر الجاهلي :-

يقول عبيد بن الأبرص :

يـا مَـن لِبَـرقٍ أبيـتُ اللّيـلَ أرقُبُـهُ مِن عارِضٍ كَبَياضِ الصُبحِ لَمّاحِ[٢]

ويقول أيضاً :

يـا مَـن لِبَـرقٍ أبيـتُ اللّيـلَ أرقُبُـهُ فـي مُكفَهِرٍّ وَفـي سَـوداءَ مَركومَـه[٣]

وقال أيضاً :

أرقـتُ لِضَـوءِ بَـرقٍ فـي نَشـاصٍ تَـلألأَ فـي مُمَـلأةٍ غِصـاص[٤]

---

[١] – ربابعة، موسى، الشعر الجاهلي مقارنات نصيَّة ، (الأردن: دار الكندي ،٢٠٠٣)، ص٦٨ .

[٢] – العارض: السحاب المعترض في السماء. لماح: لَمّاع لشدة بياضهن الأبرص، عبيد، الديوان ، ص٤٥ .

[٣] – مكفهر: السحاب المتراكب بعضه فوق بعض. سوداء: أي ليلة سوداء. مركومة: أي تراكمت ظلمتها. السابق، ص ١١١.

[٤] الأرق: قلة النوم. النشاص: السحاب المرتفع بعضه فوق بعض. تلألأ: لمع. المملأة: أي المملؤة ماء. غصاص: أي غصَّت بالماء. السابق ، ص ٧٢.

وقال امرؤ القيس :

هــل تأرقــان لبــرق بــت أرقبــه كمــا تكشَّــف عنهــا البلــق أجــلالا[١]

وقال النابغة الذبياني :

أصــاحِ تَــرى بَرقــاً أُريــكَ وَميضَــهُ يُضــيءُ سَـناهُ عـن رُكـامٍ مُنَضَّـدِ[٢]

وقال الأعشى :

يـا مَـن يَـرى عارضـاً قَـد بِـتُّ أرقُبُـهُ كَأَنَّمـا البَـرقُ فـي حافاتِـهِ الشُـعَلُ[٣]

وقال لبيد :

- أصــاحِ تَــرى بَريقــاً هَــبَّ وَهنــاً كَمِصــباحِ الشَــعيلَةِ فــي الــدُبال[٤]
أرقــتُ لَــهُ وَأنجَــدَ بَعــدَ هَــدءٍ وَأصــحابي عَلــى شُــعَبِ الرحــال[٥]

- يــا هَــل تَــرى البَــرقَ بِــتُّ أرقُبُــهُ يُزجــي حَبِيَّــا إذا خَبــا ثَقَبــا[٦]
قَعَــدتُ وَحــدي لَــهُ وَقــالَ أبــو لَيلــى: مَتــى يَغــتَمِن فَقَــد دَأبــا[٧]

---

[١]- امرؤ القيس، الديوان، ص٢٩٠.

[٢]-الذبياني، النابغة، الديوان، ص٤٢.

[٣]- الأعشى، اميمون بن قيس، الديوان، ص١٤٩ .

[٤]- هب: لمع . وهناً: بعد هزيع من الليل. الشعيلة: النار. الذبال: الفتيلة.

[٥]- أنجد: ذهب باتجاه ناحية نجد. بعد هدء : أي بعد فترة من الليل. شعب الرحال: عيدان الرحال.

[٦]- أرقبه: أي أرقب البرق وأرصده. يزجي الحيي والحيي : السحاب. إذا خبا : أي إذا سكن . ثقب البرق: أي أضاء.

[٧]- قعدت وحدي له : أي قعدت أرقبه وحدي. أبوليلى: صاحبه. يغتمن: يسكن. بن ربيعة، لبيد، الديوان، ص٩٥ ، ص٣٨ .

ويقول المرقّش الأصغر :

أرَّقَنِي اللَّيْلَ بَرْقٌ ناصِبٌ ولَمْ يُعِنِّي على ذاكَ حَمِيمْ[١]

نستطيع أن نقول إنَّ غياب اللون الأبيض يشكّل قلقاً وأرقاً يمنع الشاعر من النوم ، وحضور هذا اللون في صورة البرق ، يبعث الارتياح في نفس الشاعر .

في مقابل تلك الدلالة الإيجابية للون الأبيض في البرق ، نجد دلالة أخرى سلبية يحملها هذا اللون ، وهي دلالة الكذب ، يقول عنترة :

إذا كَـذَبَ البَـرقُ اللمـوعُ لِشـائِمٍ فَبَرقُ حُسامي صادِقٌ غَيرُ كاذِبِ[٢]

نسب عنترة صفة الكذب للبرق الأبيض الذي لا يعقبه مطر ، فجعل اللون الأبيض في هذه الحالة رمزاً للكذب .

ويقول امرؤ القيس حين بلغه خبر وفاة والده :

عجبـت لبـرقٍ بليـل أهـلَّ يضـيء سـناه بـأعلى الجبـل[٣]
أتـاني حـديثٌ فكذبتـه وأمـرٌ تزعـزع منـه القلـل[٤]
لقتـل بنـي أسـدٍ ربهـا ألا كـل شـيء سـواه جلـل[٥]

عجب امرؤ القيس من ظهور برق أبيض في السماء ، فتشاءم من ذلك ،

---

[١]- ناصب: من النصب، وهو التعب. الحميم: القريب. الضبي، المفضل، المفضليات، ص ٢٤٨ .

[٢]- الشائم: الناظر إلى السحاب أو البرق ليرى أين المطر. الحسام: السيف. بن شداد، عنترة، الديوان ، ص٣٧.

[٣]- أهلّ: أطلّ. سناه : نوره .

[٤]- تزعزع: تحرَّك بقوة. القلل: أعالي الجبال.

[٥]- ربَّها: سيدها. جلل: حقير. امرؤ القيس ، الديوان ، ص٢٦٨.

وصدق حدسه حيث أتاه خبر لم يصدَّقه وهو خبر مقتل والده حجر على يد بني أسد .

وقد ربط امرؤ القيس هذا الخبر السيئ بظهور البرق الأبيض في السماء ، فلم يكن ظهور البرق مبشِّراً له ، وإنَّما كان مصدر قلق ومبعث تشاؤم ، ربَّما لأن هذا البق لم يعقبه مطر ، حيث أننا لا نجد ذكراً للغيث بعد ذكر البرق ، فحمل اللون الأبيض دلالة التشاؤم وتوقُّع الشر .

٤- النبات :

تشكل النباتات بلونها الأخضر عنصراً مهماً في حياة الإنسان الجاهلي ، حيث أنَّه ينتقل من مكان إلى آخر بحثاً عن الكلأ وبحثا عن الخضرة ، تعد النخلة من أهم النباتات عند الجاهلي ، فقد كانت تشكّل مقوِّماً مهماً من مقوِّمات حياة البدوي في الصحراء ، فأولاها اهتماماً كبيراً .

ورأى الجاهلي أنَّ هناك شبهاً بينه وبينها ، "وربَّما لجأ الشاعر الجاهلي إلى تشبيه المرأة بالنخلة ، لما تثيره النخلة في نفسه من حرمان تجاه المرأة ، خاصة عن رحيلها عن الديار ، أو شعوره بالخيبة ، فالمرأة رمز الإخصاب والخير ، تكدُّ وتتعب من أجل البقاء ، وتقاوم صروف الدهر ، تماماً كالنخلة التي تقاوم الجفاف من حولها ، وتنشر الخضرة على سعة المكان ، وتنمو من الرمال التي تحاصرها ، وتكاد تخنقها على الرغم من لفح الريح "[١]، فكلاً من النخلة الخضراء والمرأة يمثّلان فكرة الخصب ، ويبرز اللون الأخضر في النخلة ليظهر هذه العلاقة ، فاللون الأخضر "يمثّل الخصب وحالة الأمومة "[٢]، لذلك حين يتحدَّث الشاعر الجاهلي عن النخلة يجعلها مثمرة خضراء مرتوية ،

---

[١] عالم، إسماعيل أحمد ، من مواطن ورود النخلة في الشعر الجاهلي ، مجلة بحوث جامعة حلب ، العدد ١٢ ، (سوريا: مطبعة جامعة حلب ، ١٩٨٨م)، ص١٨٠ .

[٢] كولبير ، غراهام، الفن والشعور الإبدعي ، (دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد الثقافي، ١٩٨٣) ص ٢٥٢.

والإثمار والارتواء صورة من صور الخصوبة .

يقول عبيد بن الأبرص في وصف الظعينة :

كَأنَّ أظعانَهُم نَخلٌ مُوَسَّقَةٌ سودٌ ذَوائِبُها بِالحَملِ مَكمومَه[١]

شبَّه عبيد الظعائن بنخلٍ كثر حمله ، واخضرت غصونه حتى اسودَّت من شدَّة الخضرة ، " والعرب تسمِّي الأخضر الشديد الخضرة أسوداً ،لأنه يُرى كذلك"[٢]، فاللون الأخضر عند تشبيه النخل بالظعائن يصبح رمزاً للخصوبة ، كما أنَّ ذوائب النخل في قوله (ذوائبها) تستدعي ذوائب المرأة ، وحمل النخل للثمر في قوله (بالحمل) يستدعي حمل المرأة للجنين ، فمعاني الخصب تحيط بالصورة من كّل جانب .

ولبيد بن ربيعة يشبِّه ظعائن محبوبته بأشجار نخيلٍ تشرب المياه ، وتحمل الثمر الكثير :

فَكَأنَّ ظُعنَ الحَيِّ لَمّا أشرَفَت بِالآلِ وَارتَفَعَت بِهِنَّ حُزومُ[٣]
نَخلٌ كَوارِعُ في خَليجٍ مُحَلِّمٍ حَمَلَت فَمِنها موقِرٌ مَكمومُ[٤]

شبَّه لبيد الظعائن بالنخيل الأخضر المرتوي بالماء ، والذي أثقل بالثمر ، اللون

[١] الأظعان: الجمال عليها النساء. الموسَّقة: المثقلة بثمارها. السود: هنا الخضر. الذوائب: الأطراف. المكمومة: المغطَّاة. الكمام: يعني سعفها المستور من شدَّة ما غطِّيت به. الأبرص، عبيد، الديوان، ص ١١٠ .

[٢] الخويسكي، زين، معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم ، مادة:" سود ".

[٣] ظعن الحي: النساء في الهوادج. أشرفت: ارتفعت. الآل: السراب. الحزوم: جمع حزم، الغليظ من الأرض.

[٤] كوراع: تشرب من الماء، لأنها من جوانب الخليج. محلم: هو نهر في البحرين. الموقر: المحمل من وقر النخل، أي ثقل بالثمر. المكموم: المغطى لئلا يسرقه أحد. العامري ، لبيد، الديوان، ص١٢٧ .

الأخضر الدال على الخصوبة يبرز بوضوح ، حيث دلَّ عليه ارتواء تلك النخلة بالمياه ، ودلَّ عليه كذلك قوله (حملت) والحمل مؤشر صريح لفعل الخصوبة ، فيكون عندئذٍ اللون الخضر للنخلة في صورة الظعينة رمزاً للخصوبة .

وقد استمدَّ الشاعر الجاهلي من اللون الأخضر في النخلة معاني أخرى ، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى :

وَهَل يُنبِتُ الخَطِّيَّ إلا وَشيجُهُ وَتُغرَسُ إلا في مَنابِتِها النَخلُ[١]

يمدح زهير هرم بن سنان والحارث بن عوف بعدَّة أبيات يختمها بالبيت السابق، فيقول ؛ وهل تنبت الرماح إلا الرماح ، ولا تغرس النخل إلا في منابتها ، فلا يولد الكريم إلا في موضع كريم .

ويقول زهير أيضاً :

حَتّى إذا ما اِلتَقى الجَمعانِ وَاِختَلَفوا ضَرباً كَنَحتِ جُذوعِ النَخلِ بِالسَفَنِ[٢]

يصف القتال في ساحة المعركة ، وتبادل الضرب بين الفريقين بنحت جذوع النخل الخضراء ، فيرمز اللون الأخضر إلى القوَّة والصبْر في ساحة القتال .

وحين تمتلئ الديار بالنخل ، ويبرز لونها الأخضر تصبح رمزاً للفخر عند الشاعر الجاهلي ، يقول الأعشى :

---

[١] الخطي: الرماح، نسبها إلى الخطِّ، وهي جزيرة في البحرين ترْفَأُ إليها سكون الرماح. والوشيج: القنا الواحدة وشيجة. أبو سلمى، زهير، الديوان ، طبعة دار الكتاب العربي ، ص ١٠٧ .

[٢] السابق ، ص ١١٠ .

فَإن يَلقَ قَومي قَومَهُ تَرَ بَينَهُم قِتالاً وَأكسارَ القَنا وَمَداعِصا[١]
أَلَم تَرَ أَنَّ العَرضَ أصبَحَ بَطنُها نَخيلاً وَزَرعاً نابِتاً وَفَصافِصا[٢]

ويقول المرار بن منقذ ، وقد عيَّرته زوجته بقلة إبله ، فرد عليها مفاخرا بما يملك من نخل :

وَكائِن مِن فَتى سَوءٍ تَرَيهِ يُعَلِّكَ هَجمَةٌ حُمراً وَجُونا[٣]
يَضَنُّ بِحَقِّها وَيُذَمُّ فيها وَيَترُكُها لِقَومٍ آخَرينا[٤]
فَإِنَّكِ إِن تَرَي إِبلاً سِوانا وَنُصبِحُ لا تَرَينَ لَنا لَبُونا[٥]
فَإِنَّ لَنا حَظائِرَ ناعِماتٍ عَطاءَ اللَّهِ رَبِّ العالَمِينا[٦]
طَلَبنَ البَحرَ بِالأَذنابِ حَتّى شَرِبنَ حِمامَهُ حَتّى رَوِينا
تُطاوِلُ مَخرِمَي صُدُدَي أُشَيٍّ بَوائِكَ ما يُبالِينَ السنينا[٧]
كَأَنَّ فُرُوعَها في كُلِّ ريحٍ جَوارٍ بِالذَّوائِبِ يَنتَصينا[٨]

---

[١] المداعص: الرماح .

[٢] الأعشى، ميمون بن قيس، الديوان، ص ١١٤ .

[٣] تريه : ترينه. التعليك: أن يشد يديه من بخله على إبله فلا يقري منها ضيفاً. الهجمة: المائة من الإبل. الجون هنا السود.

[٤] يظنُّ بحقها: حق الإبل أن يمنح منها ويقري ، وتعطى في الحمالات. يذمُّ فيها. يذمها الناس فيها لبخله، أي من أجلها.

[٥] سوانا: عند غيرنا. اللبون: ذات البن من الشاة والإبل.

[٦] حظائر: جمع حظيرة، وهي ما أحاط بالشيء من قصب وخشب، وأراد بها النخل. ناعمات: حسنة الغذاء. الماء

[٧] أشيء: بصيغة التصغير: موضع في اليمامة. وصدداه: جانباه. المخارم: جمع مخرم، وهو منقطع أنف الجمل بوائك: ضِّخام .

[٨] جوار: جمع جارية وهي الشابة. الذوائب: الضفائر. ينتصينا: من المناصاة وهي المجاذبة.

بَنـــاتُ الـــدَّهرِ لا يَحفِلـــنَ مَحـــلاً إذا لَـــم تَبـــقَ ســـائِمَةٌ بَقينـــا[١]
إذا كـــانَ السّـــنونَ مُجَلِّحـــاتٍ خَـرَجنَ وَمـا عَجِفـنَ مِـنَ السِـنينا[٢]
يَسِـيرُ الضَّـيفُ ثُـمَّ يَحُـلُّ فيهـا مَحَلّـاً مُكرَمـاً حَتّـى يَبينـا[٣]
فَتِلـكَ لَنـا غِنـىً وَالأجـرُ بـاقٍ فَغُضِّـي بَعـضَ لَومِـكِ يـا ظَعينـا[٤]
بَنـاتُ بَناتِهـا وَبَنـاتُ أُخـرى صَـوادٍ مـا صَـدِينَ وَقَـد رَوَينـا[٥]

يفاخر المرار بما يملك من نخل ، فيوجِّه نظر زوجته إليها وإلى خضرتها الدائمة بدلاً من الإبل التي تلحقها الآفات فتفنى ، فهذه النخيل الضاربة بجذورها في أعماق الأرض ، ترتوي من الماء في يسرٍ وسهولة ، فبنات بناتها ما صدين ، ولا اقترب الظمأ منهن .

يرمز اللون الخضر في الصورة السابقة إلى دوام النعمة واستمرارها ، حيث أن خضرة النخيل خضرة دائمة ، لا يلحقها ما يلحق الإبل من آفات ، كما أنه يرمز إلى الخصوبة والأمومة ، فالنخلة عند الشاعر أمٌّ لها بنات ، وجدٌّ لها أحفاد .

بَناتُ بَناتِها وَبَناتُ أُخرى صَوادٍ ما صَدِينَ وَقَد رَوِينا

ويقول الأعشى عن النخل:

---

(١) بنات الدَّهر: يبقين على الدهر. لا يحفلن: لا يبالين. المحل: الجدب.السائمة: الإبل الراعية والغنم.

(٢) مجلحات: مجدبات يذهبن بالمال. ماعجفن: ما هزلن.

(٣) يبين: يفارق.

(٤) فغضي: فانقصي، ظعينا: يا ظعينة. والظعينة المرأة.

(٥) الصوادي: الطوال. ما صدين: ما عطشن، والصدى: العطش. المفضل، ضبي، المفضليات، ص٧٢ــ٧٤.

وَأيّــامَ حَجــرٍ إذ يُحَــرَّقُ نَخلُــهُ تَأرنــاكُمُ يَومــاً بتَحريــقِ أرقَــمِ
كَـأنَّ نَخيـلَ الشَـطِّ غِـبَّ حَريقِـهِ مَـآتِمُ سـودٌ سَـلَّبَت عِنـدَ مَـأتَمِ[١]

يفاخر الأعشى بأنه وقومه أحرقوا نخل أعدائهم ، فغدت كأنَّها نساء لبسن الأسود قائمات في مأتم .

يرمز ذلك التحوُّل اللوني من الأخضر للأسود إلى القوَّة التي عملت على إحداث هذا التغيير ، فبعد أن كان النخيل الأخضر مصدر فرح وبهجة لأعداء الأعشى ، أصبح بفعل قوَّة قومه نخيلاً أسود يوحي بالحزن والألم .

شجر الأرطى :

نجد شجر الأرطى يظهر دائماً في قصة ثور الوحش ، حين يبيت إلى شجر الأرطى ليلاً .

يقول بشر :

فَباتَ في حَقفِ أرطاةٍ يَلوذ بِها كَأنَّهُ في دُراها كَوكَبٌ يَقِدُ[٢]

[١] الأعشى، ميمون بن قيس، الديوان، ص ١٧٧.

[٢] الحقف: ما اعوجَّ من الرمل واستطال. الأرطاة: شجر تنبت بالرمل، تنموعصيّاً من أصل واحد يطول قدر قامة. الذَّري: كلَّ ما استتر به الإنسان أو هي في كنف الأرطاة وسترها. يقدّ : يضيء. الأسدي، بشر بن أبي خازم، الديوان، ص ٥٣ .

ويقول النابغة :

وَباتَ ضَيفاً لأرطاةٍ وَألجَأهُ مَعَ الظلامِ إليها وابلٌ سارِ[١]

ويقول الأعشى :

يَلوذ إلى أرطاةِ حِقفٍ تَلُفُّهُ خَريقُ شَمالٍ تَترُكُ الوَجهَ أقتَما[٢]

ويقول أيضاً :

وَباتَ في دَفِّ أرطاةٍ يَلوذُ بها يَجري الرَبابُ عَلى مَتنَيهِ تَسكابا[٣]

ويقول امرؤ القيس :

وَباتَ إلى أرطاةَ حِقفٍ كَأنَّها إذا ألتَفَتها غَبيَةٌ، بَيتُ مُعرِسِ[٤]

لجأ ثور الوحش إلى شجر الأرطى ، ليحتمي بها من البرد والمطر ، فتحتضنه تلك الشجرة ، وتستضيفه ، تحت أغصانها الخضراء الورافة ، كما تحتضن الأم ابنها، فيصبح اللون الأخضر رمزاً للأمومة والعطف والحنان ، كما يغدو رمزاً للحماية في وقت الشدة والكرب .

---

[١] الأرطاة: جمع الأرطى، وهو ضرب من الشجر نوره كنور الخلاف وثمره كالعنَّاب، وهي مرَّة تقتات عليها الإبل غضَّة. السَّاري: هو المطر الذي يسحّ في الليل. الذبياني، النابغة، الديوان ، ص ٥١ .

[٢] الحقف: ضرب من الرمل. الأعشى، ميمون بن قيس، الديوان، ص ١٨٠ .

[٣] الدفء: من كل شيء جنبه. الرباب: السحاب الأبيض. السابق ، ص ٤٠ .

[٤] الثقتها: بلّتها وندَّمها. الغبية: الدفعة من المطر، المطرة. المُعرس: الباني بأهله. امرؤ القيس، الديوان ، ص ١١٨.

- **بقية النباتات :**

استخدم الشاعر الجاهلي اللون السود عند حديثه عن المسك،فرمز اللون الأسود في المسك إلى الرفاهية والغنى ، يقول زهير في مدح قوم :

لَهُم راحٌ وَراوُوقٌ، وَمِسكٌ تُعَلُّ بِهِ جُلودُهُمُ وَماءُ[١]

يمدح زهير قوما بغناهم، فيذكر أن لهم خمرا مصفاة، ولهم مسكا يعطرون به أبدانهم، فهم قوم مرفهون.

وامرؤ القيس يتغزل في نساء مرفهات، فيقول:

غَرائِرُ في كَنٍّ وَصَونٍ وَنِعمَةٌ يُحَلَّيـنَ يـاقوتـاً وَشَـذراً مُـفَقَّـرا[٢]
وَريحَ سَنـاً في حُقَّـةٍ حِميَرِيَّـةٍ تُخَصُّ بِمَفروكٍ مِنَ المِسكِ أذفَرا[٣]

إن هؤلاء النساء غرائر غافلات ،لديهم قوارير عطور المسك ، تحاكي قوارير ملوك العرب من حمير، فرمز اللون الأسود في المسك إلى الغنى و رغد العيش.

في مقابل ذلك نرى عبيد بن الأبرص يتحدث عن المسك في سياق الموت،

---

[١] الراح: الخمر. الراووق: المصفي، خرقة تصفى بها من الخمر. تعل به: تطيب به.أبو سلمى ، زهير ، الديوان، ص ١٤٨ .

[٢] الغرائر: الغوافل عن الدهر. الكن: هنا تعني هودج النساء. الصون: الحفظ. نعمة: عيش مرفه الشذر: قطع الذهب. المفقر: المثقب. امرؤ القيس، الديوان ، ص ٧٥.

[٣] السنا: النور وهي هنا ضرب من الطيبة. الحقة: علبة الطيب. المفروك: المسك الذي فتقت نافجته فانتشرت رائحته وقويت. الأذفر: القوي الرائحة. تخص: تميز .السابق ، ص ٧٥.

فيقول:

صَبراً عَلى ما كانَ مِن حُلفائِنا مِسكٌ وَغِسلٌ في الرُؤوسِ يُشَيَّبُ[١]
فَليَبكِهِم مَن لا يَزالُ نِساؤُهُ يَومَ الحِفاظِ يَقُلنَ أينَ المَهرَبُ[٢]

يهدِّدُ عبيد حلفاؤه بالقتل على أيدي قومه لأنَّهم نقضوا العهد الذي بينهم ، وبأنَّهم

سيقتلون وتغسل رؤوسهم بالمسك والخطمي ، فتبكيهم نساؤهم ، وتصيح : أين المفر؟ فَرَمَزَ اللون الأسود لون المسك إلى الموت ، حيث أنَّه يستعمل في غسل شعر الميِّت .

ويرمز اللون الأبيض في زهر الأقحوان إلى الجمال ، حيث استخدمه الشعراء في حديثهم عن بياض أسنان المحبوبة ، يقول طرفة :

تضحك من مثل الأقاصي حوى من ديمة سكب سماء دلوح[٣]

ويقول الأعشى :

وَتَضحَكُ عَن غُرِّ الثَنايا كَأَنَّهُ دُرى أُقحُوانٍ نَبتُهُ مُتَناعِمُ[٤]

---

[١] حلفاؤهم: بنو جديلة، وقيل : بنو فزارة. الغِسْل: الخطميّ وورق السِّدر. يشيب: يخلط.

[٢] الحفاظ: الدِّفاع عن المحار . الأبرص، عبيد، الديوان، ص ٣٢-٣٣.

[٣] حوى: ضم واحتوى. الديمة: المطر المتواصل ، هادئاً، لا رعد فيه ولا برق. السكب: الهطلان الدائم. السماء: هنا السحابة. الدلوح: المثقلة بالماء. ابن العبد، طرفة، الديوان، ص ٨٣ .

[٤] الأعشى الأكبر، ميمون بن قيس، الديوان، ص ١٧٢.

ويقول بشر :

يُفَلِّجنَ الشِفاهَ عَن اِقحُوان جَلاهُ غِبَّ سارِيَةٍ قِطارُ[١]

ولكن المرقّش الأكبر جعل اللون الأبيض في زهر الأقحوان رمزاً لكبر السن :

رأتْ أُقْحُوانَ الشَّيْبِ فَوْقَ خَطِيطَةٍ إذا مُطِرَتْ لم يَسْتَكِنَّ صُؤَابُها[٢]

ويرمز اللون الأخضر في شجر البان إلى جمال قوم المرأة ، يقول الأعشى :

نِيافٌ كَغُصنِ البانِ تَرتَجُّ إن مَشَت دَبيبَ قَطا البَطحاءِ في كُلِّ مَنهَلِ[٣]

وكذلك شوك السيال الأبيض يرمز إلى جمال أسنان المرأة في بياضها ، يقول امرؤ القيس :

مَنابِتُهُ مِثلُ السُدوسِ وَلَونُهُ كَشَوكِ السِيالِ فَهوَ عَذبٌ يَفيصُ[٤]

وشجر العرارة بلونه الأصفر يرمز إلى الرائحة الطيبة ، يقول الأعشى :

بَيضاءُ ضَحوَتُها وَصَفـ ـراءُ العَشِيَّةِ كَالعَرارَه[٥]

ويرمز اللون الأخضر إلى القوَّة في عدَّة نباتات منها النبْع الذي تتخذ منه القسي والسهام ، يقول عبيد بن الأبرص :

---

[١] يفلِّجن: أي يفتحن أفواههن عن ثغر. الأسدي ، بشر بن أبي خازم، الديوان، ص٥٨.

[٢] الأقحوان: نبت له زهر أبيض، وهو البابونج. الخطيطة: أرض لم تمطر بين أرضين ممطورتين. الصؤاب: بيض القمل. لم يستكن: لم يجد شعراً يأوي إليه . الضبي، المفضل ،المفضليات، ص٢٣٦.

[٣] نياف: طويلة. الأعشى الأكبر، الديوان، ص ١٤٥.

[٤] منابته: أصوله، وهنا يريد بمنابته اللِّثات. السُّدوس : كساء أخضر لا تفصيل ولا خياطة، أي الطيلسان. شوك= =: إبر الشجر والنباتات والأزاهير. السيَّال : نبات ذو شوك أبيض طويل يخرج منه مثل اللبن حين يترع، وشوكه أشبه شيء بالأسنان. عذب: طيِّب الطعم. يفيض: يبرق ويتقطر ماؤه. امرؤ القيس، الديوان ، ص ١٨٩.

[٥] العرارة: نبت له نور أصفر. الأعشى الأكبر، الديوان ، ص ٩٣.

فيهِ الحَديدُ وَفيهِ كُلُّ مَصونَةٍ نَبعٍ وَكُلُّ مُثَقَّفٍ وَحُسامِ[١]

ويقول الأعشى :

وَنَحنُ أُناسٌ عودُنا عودُ نَبعَةٍ إذا اِنتَسَبَ الحَيّانِ بَكرٌ وَتَغلِبُ[٢]

وشجر العرعر الأخضر يرمز كذلك للقوَّة ، ذلك لصعوبة الوصول إلى منابته لوعورة المسلك ، يقول بشر :

وَصَعبٌ يَزِلُّ الغَفرَ عَن قُدُفاتِهِ بِحافاتِهِ بانٌ طِوالٌ وَعَرعَرُ[٣]

ويقول عامر بن الطفيل :

أفراسُنا بِالسَهلِ بَدَّلنَ مَذحِجاً دُرى شَعَفٍ شَنّاً وَباناً وَعَرعَرا[٤]

---

[١] الحديد: السلاح. المصونة: المحفوظة. المثقف: الرمح المصلح. الحسام: السيف القاطع. الأبرص، عبيد، الديوان، ص ١١٥.

[٢] الأعشى الأكبر ، الديوان ، ص ٣٨.

[٣] صعب: جبل. ولد الأروى: وهي الوعول التي تسكن شعاف الجبال. القذفات: ما أشرف من رؤوس الجبال. البان: شجر يسمو ويطول في استواء وبه شبهت المرأة في قامتهم. العرعر: شجر السرو. الأسدي، بشر بن أبي خازم، الديوان، ص٦٩.

[٤] الذرى: جمع ذروة وهي القمة الأعلى من كل شيء ، مثل ذروة الجبل. الشعف: جمع شعفة وهي رأس الجبل. الشث: نبتة طيبة الرائحة. البان: شجر معتدل القوام يشبه به القد لطوله. العرعر: شجر شبيه بالسرو .ابن الطفيل، عامر ، الديوان ، ص ٤٨.

ويقول عروة :

فيوماً على نجد وغارات أهلها ويوماً بأرضٍ ذات شث وعرعر[١]

ووعورة منبت الأثل الأخضر ؛ جعل الشعراء يستشهدون به عند ذكرهم للغزو والغارات ، فأصبح اللون الأخضر رمزاً للقوَّة ، يقول عروة:

فَإِنَّكُمُ لَن تَبلِغوا كُلَّ هِمَّتي وَلا أَربَي حَتّى تَرَوا مَنبتَ الأَثلِ[٢]

ويرمز اللون الأخضر كذلك في نبت الأثل إلى العز والمجد ، يقول الأعشى :

وَلَقَد عَلِمتُم حينَ يُنـ سَبُ كُلُّ حَيٍّ ذي غَضارَة
أَنّا وَرِثنا العِزَّ وَال مَجدَ المُؤَثَّلَ ذا السَرارَه[٣]

في مقابل رمز القوة تقابلنا عدَّة نباتات خضراء ترمز إلى الضعف ، منها السدر،

يقول المفضل النكري :

وَجَدنا السِدرَ خَوّاراً ضَعيفاً وَكانَ النَبعُ مَنبِتُهُ وَثيقُ[٤]

---

[١] الشث والعرعر: من النبات الصحراوي. بن الورد، عروة، الديوان ، ص ٥٢.

[٢] همتي: رغبتي. أربي: مطلبي. الأثل: نوع من الشجر موجود في أرض بني القين. السابق، ص٧٥.

[٣] ذو السرارة: ذو النسب الصريح. الأعشى الأكبر، الديوان ، ص٩٦.

[٤] الأصمعي، أبو سعيد عبد الملكبن قريب، الأصمعيات،تحقيق عبد السلام هارون و أحمد شاكر، (مصر: دار المعارف، ١٩٥٥م)ص٢٣٣

والهرم شجر ضعيف سريع التكسُّر بالوطء ، لا سيَّما تحت أخفاف البعير الثائر ، لذلك كان اللون الأخضر يرمز إلى الضعف وسرعة التحطُّم ، يقول الحارث بن وعلة الجري :

ووطئتنا وطئاً على خنق وطء المقيد نابت الهرم[١]

وعد اللون الأبيض رمزاً للكرم حين يقترن بصورة شجر الراء الأبيض ، فلكثرة كرم قوم بشر ؛ ترى بقايا الشَّحم من قطع أسْنمة الإبل قد تلبد على لحاهم ، حتى لتبدو كزهر شجر الراء الأبيض :

تَرى وَدَكَ السَديفِ عَلى لِحاهُم كَلَونِ الراءِ لَبَّدَهُ الصَقيعُ[٢]

ويتشكل اللون الأخضر في شجر الألاء (الدفلى) في صورة الرجل المنافق ، ذلك أن لهذه الشجرة ظلالاً وارقة ومنظراً حسناً ، ولكن طعمها مر ، يقول بشر :

فَإِنَّكُمُ وَمِدحَتَكُم بُجَيراً أبا لَجأٍ كَما اِمتُدِحَ الألاءُ[٣]
يَراهُ الناسُ أخضَرَ مِن بَعيدٍ وَتَمنَعُهُ المَرارَةُ وَالإباءُ[٤]

---

[١] الشمنتري، أبو الحجاج يوسف بن سليمان ، شرح حماسة أبي تمام ، ط١، (دمشق: دار الفكر ، ٢٠٠١)، ٣٢١/١.

[٢] الودك: دسم اللحم والشحم. السّديف: قطع السنام. الراء: شجر له زهرة بيضاء ليّنة كأنها القطن. لبّده: ضم بعضه إلى بعض. الصقيع: الندى المتجمد. الأسدي، بشر بن أبي خازم، الديوان، ص٩٩.

[٣] بجير: هو ابن أوس بن حارثة بن لأم وكنيته أبو لجأ. الألاء: شجر الدّفلى ويكون حسن المنظر مر المذاق. الأسدي، بشر بن أبي خازم، الديوان، ص ٢٠ .

[٤] الإباء: الكراهة. السابق ، ص ٢٠.

يرى بشر أنه من يمدح أبا لجأ ، كمن يثني على شجر الدفلى ، فهو أخضرُ من بعيد ، ولكنه مر المذاق ، فرمز اللون الأخضر في شجر الدفلى إلى النفاق والخداع .

واللون البيض في نبات الفقع يرمز إلى الذل والمهانة ، ذلك لأنه حقير في منبته ، ينبت على وجه الأرض ، ويوطأ بالأرجل ، لا يرتفع له غصن ، ولا تظهر له ورقة ، وإنَّما تنشقهُ الأرض وتلفظه ، يقول طرفة :

فَأصبَحتَ فَقعاً نابِتاً بِقَرارَةٍ تَصَوَّحُ عَنهُ وَالدَليلُ دَليلُ[١]

شبَّه طرفة زوج أخته عمرو بن مرثد ، حين أوغر صدر الملك عليه ؛ بالفقع الأبيض الذليل الذي ينبت على وجه الأرض ، ولا يرتفع على غصن .

فرمز اللون الأبيض في الصورة السابقة إلى المهانة والمذلَّة ، فكانت الصورة غاية في التحقير والذم .

٦-النار :

لقد كان اللون الأصفر الناري محلَّ اهتمام الشاعر الجاهلي ، فالنار الصفراء تمنح الدفء في ليالي الشتاء الباردة ، وتدلُّ الضيف في الليالي المظلمة .

وقد تعددت النيران عند العرب في الجاهلية وتنوَّعت ، فمنها نار القرى وهي التي أشار الجاحظ أنَّها "النار التي تُرفع للسفر ولمن يلتمس القرى "[٢]

وقد أكثر حاتم من ذكرها كثيراً في ديوانه ، فقال :

---

[١] الفقع: الأبيض الرخو من الكمأة، وهو أراد نوعها . القرارة: القاع المستدير.تصوّح عنه : تنشق عنه. ابن العبد، طرفة، الديوان، ص٢٠٤.

[٢] الجاحظ، الحيوان ، ١٣٣/٥.

أُشاوِرُ نَفسَ الجودِ حَتّى تُطيعَني وَأترُكُ نَفسَ البُخلِ لا أستَشيرُها
وَلَيسَ عَلى ناري حِجابٌ يَكُنُّها لِمُستَوبِصٍ لَيلاً وَلَكِن أُنيرُها[١]

يحدِّثنا حاتم عن حوار يدور داخل نفسه تجاه قيمة الكرم ، تتنازعه نفسان : نفس تأمره بالجود والبذل ، ونفسٌ تأمره بالإمساك وعدم الإنفاق ، ثمَّ يبرز اللون الأصفر الناري في البيت الثاني ، فيحسم الأمر ، ويعلن غلبة نفس الجود على نفس البخل ، فالنار "نقيض لعالم السر الذي يستسلم فيه المرء خالياً لوساوس النفس الآمرة بالشح ، والناهية عن البذل ، والمخوفة بعواقب الأيام "[٢]

فيحمل اللون الأصفر دلالة الإعلان والكشف ، خروجاً من الحيرة والتردد اللذين يعتملان في نفس الإنسان الكريم .

كما أنَّ اللون الأصفر في نار القرى يرمز إلى الحياة ، لأن الضيف تائهٌ في الصحراء ، يبحث عمن يؤويه ويشبع جوعه ، فإذا ما رأى اللون الأصفر الناري من بعيد ؛ هرع إلى صاحب تلك النار ، ليطعمه ويسقيه .

ويتجلى اللون الأصفر الناري عند الشاعر الجاهلي في نار أخرى ؛ وهي نار الحرب ، يقول عنترة :

جَزى اللّهُ الأَغَرَّ جَزاءَ صِدقٍ إذا ما أوقِدَت نارُ الحُروبِ[٣]

ويقول ايضاً:

---

[١] يكنّها: يسترها. المستوبص: المستضيء بالنار ليلاً. الطائي، حاتم، الديوان ، ص ٨٩ .

[٢] السريحي، سعيد ، حجاب العادة ، ط١، (الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٦)، ص٢٣.

[٣] جزى من المجازاة ، والأغر فرسه. ابن شداد، عنترة، الديوان، ص٣١.

وَدَنَت كِباشٌ مِن كِباشٍ تَصطَلي نارَ الكَريهَةِ أو تَخوضُ لَظاها[١]

إنَّ اللون الأصفر في نار الحرب يحمل دلالة الخطر والشر ، وقد جاء في لسان العرب : "وقعت بينهم نائرة ، أي عداوة ، ونار الحرب ونائرتها : شرُّها وهيجها ، ونوَّرت الرجل : أفزعته ونفَّرته "[٢] .

لذلك سميت نار الحرب بنار الكريهة ؛ لأنها تحمل معنى الشَّرِّ والإكراه ، يقول تأبَّط شراً :

إنّي إذا حَمِيَ الوَطيسُ وَأوقَدَت لِلحَربِ نارُ كَريهَةٍ لَم أنكُلِ[٣]

الجاهلي حين يقدم على الحرب فإنَّه يُكره نفسهُ على ذلك ، لذلك كانت صفة الشجاعة من المفاخر التي يفخر بها العربي ، وهنا تلتقي نار الحرب بنار القرى " ولمَّا كانت نار القرى ونار الحرب من باب واحد ؛ جاز أن يكون للقرى نار تبصر ، وأن يكون للحرب نور يُصطلى ، فالنار والنور كالقرى والحرب ، يفضي كلٌ منهما للآخر ، ليس لأنَّ كليهما إعلان للخروج من ضيق النفس إلى سعة العالم فحسب ؛ بل لأنَّ كليهما إخراجٌ للنفس عمَّا تطمئن إليه وحملها على مالا تود من الإنفاق مما تملك من المال ، أو التفريط فيما تركن إليه من حب السلامة "[٤]

---

[١] السابق ، ص٢١٠.

[٢] ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مادة نور.

[٣] الوطيس: قيل هي التنور الذي يحمى به الحديد، وقيل هو حفرة تحفر بالأرض ويختبر فيها. والوطيس المعركة. وحمى الوطيس: أي اشتعلت المعركة. تأبَّط شراً، الديوان، ص٥٧.

[٤] السريحي، سعيد، حجاب العادة، ص٣٩.

فيحمل اللون الأصفر في نار الحرب حينئذٍ دلالة الإكراه ، وحمل النفس على مالا تود ، لأن في ذلك إقدام على الموت ، وهكذا يحمل اللون الأصفر صورة رمزية للحياة في نار القرى ، كما أنَّه يمثّل الشر والإكراه والموت في نار الحرب .

ومن السياقات التي يظهر فيها اللون الأصفر الناري :- سياق الحديث عن المحبوبة وما يقاسيه الشاعر من وجدٍ وشوقٍ ، يقول عنترة :

نَعيمُ وَصلِكِ جَنّاتٌ مُزَخرَفَةٌ وَنارُ هَجرِكِ لا تُبقي وَلا تَذَرُ[١]

جعل عنترة هجر محبوبته له ناراً موقدة ، لا تبقي ولا تذر ، فحمل اللون الأصفر بعداً نفسياً يرمز للعشق والحب ، كما أنَّه يرمز للخصوبة التي تحملها المرأة ، " فتجربة الاحتكاك بين قطعتين من الخشب لإنتاج النار ؛ ذات صلة وثيقة بالعلاقة بين الذكر والمؤنَّث ، حيث التلقيح ثم الولادة "[٢] لذلك كان للون الصفر الناري حضور قوي في علاقة الرجل بالمرأة في الشعر العربي

[١] بن شداد، عنترة، الديوان، ص٨٠.

[٢] المنصوري، جريدي، النار في الشعر وطقوس الثقافة، (الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ٢٠٠٤م)، ص٣٩.

المبحث الثاني

اللون ورؤية الحيوان .

هذه المجموعة المتنوعة من الألوان والتي لوّن الشاعر الجاهلي بها ما يراه من حيوان يحيط به أخذت طابعاً رمزياً أبعد مما تحمله الدلالة البصرية، فكان الجاهلي يصارع بعض الحيوان فيقتله ويصطاده ، فيعبر التشكيل الرمزي للون عن ذلك الصراع بألوان ساخنة ، وكان يستأنس بعضَ الحيوان ويألفه ، فيعبر التشكيل الرمزي عن تلك الألفة بألوان تحفل بالحياة .

١ــ الإبل :

اتخذت الناقة بُعْدَين رمزيين متناقضين ، أبرزا لنا مفارقةً بين رمزي الحياة والموت ، في هذا المخلوق الذي رافق البدويَّ أينما حلَّ وارتحل .

وقد نظر العرب إلى ألوان الإبل ، وكان لهم رأي خاصٌّ في تلك الألوان ، ومما جاء من قولهم في هذا الشأن "خير الإبل حمرها وصهبها [١]"[٢]فالعرب تفضل ألواناً خاصة للإبل ، لاعتقادهم بأن لكل لون تأثيراً خاصاً ، " قال أبو نصر : هجِّر بحمراء ، وأسْرِ بورقَاء ، وصبِّح القوم على صهباء ، قيل له : ولم ذلك ؟ قال : لأن الحمراء أصبر على الهواجر ، والورقاء أصبر على طول السرى ، والصهباء أشهر وأحسن حين ينظر إليها "[٣]

وفي اختيارهم للإبل الحمراء في وقت الهجيرة وتقديمها في الذكر دلالة على شدة تحملها لحرارة الشمس اللافحة في الصحراء ، كما نلمح في اللون الأحمر للإبل لون الدم والقتلى والحروب ، الحروب التي تخلف القتلى ، فتتخذ الإبل فيها

---

[١] -الأصهب من الإبل الذي ليس بشديد البياض، تخالط بياضه حمرة، إبراهيم، عبد الحميد، قاموس الألوان عند العرب ، مادة صهب، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩)

[٢] — اللسان مادة حمر.

[٣] — المرجع السابق مادة حمر.

دية تحقن تلك الدماء ، وهذا يشير إلى بعد الحياة في الإبل ، حيث تهب القاتل حياة جديدة بدلاً من إزهاق نفسه .

يقول لبيد:

فـاقطع لبَانَـة مـن تعَـرَّضَ وصـلهُ ولشـرٌّ واصـلِ خُلَّـةٍ صـرَّامها[١]
بِطلِـيح أسـفارٍ تـركنَ بقيـة منهـا فـأحنقَ صُـلْبُهَا وسَـنامُهَا[٢]
فلهـا هبـابٌ فـي الزمـامِ كأنهـا صـهباء[٣]خفَّ مع الجنوبِ جهامُها[٤]

يتحدث لبيد عن ناقته التي اعتادت على الأسفار فهي نشيطة في سيرها، تشبه في ذلك سحابة حمراء ذهبت للجنوب وهرقت ماءها ،ومن خلال استقرائي لعشرين ديواناً في الشعر الجاهلي لم أجد شاعراً وصف السحاب باللون الأحمر غير لبيد ، وإنما جاء وصفه عند غيره من الشعراء باللون الأسود دلالة على غزارة مائه ، كقول عنترة :

لَعِبَت بها الأنواءُ بَعدَ أنيسِها وَالرامِسـاتُ وَكُـلُّ جَـونٍ مُسـبَل[٥]

لقد وصف عنترة السحاب بالجون وهو اللون الأسود ؛ ليبيِّن أن تلك السحب

---

(١) – اللبانة: الحاجة، خلة: المودة التناهية، الصرام: القطع.

(٢) – الطليح: المعي، أسفار: جمع سفر، أحنق: أضمر.

(٣) – السحب الصهباء: الحمراء، الخويسكي، زين، معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم، مادة صهب.

(٤) – الهباب: النشاب،الصهباء: الحمراء، خفَّ : أسرع ، الجهام: السحاب قد أراق ماءه. الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص ٩٢ – ٩٣.

(٥) – الأنواء: جمع نوء ، أي نزلت بالديار أمطارها فمحت رسومها، أنيسها: من أقام بها وسكنها، الرامسات: الرياح، الجون: الأسود من السحاب. بن شداد، عنترة، الديوان، ص١٢٥.

كانت ثقيلة ومحملة بالمطر الغزير الذي نزل بشدة على ديار المحبوبة ؛ مما أدى إلى تغير معالم تلك الديار واختلافها عما كانت عليه من قبل ، فالقتامة والسواد الغالب على السحاب أدى إلى حدوث موجة من التدمير على منازل المحبوبة ، فانعكس ذلك سلباً على الشاعر ، فراح ينظر لتلك الديار بمنظار أسود غابت عنه المحبوبة مصدر النور والإشراق .

وكما وصف السحاب باللون الأسود جاء وصفه أيضاً باللون الأبيض عند الخنساء حين قالت :

ككرفئة الغيث ذات الصبـ ـيرترمي السحاب ويُرمى بها [١]

شبهت الخنساء الكتيبة التي يقودها أخوها معاوية في الحرب حين تُوصل بكتيبة أخرى بالسحاب الأبيض الخالص الذي ينضم بعضه لبعض ، هذا السحاب الأبيض جاء في معرض مدح الخنساء لأخيها معاوية ، فالممدوح يوصف بالبياض دائماً في الشعر الجاهلي – كما سيمر بنا في المبحث القادم – لذلك كانت الكتيبة التي يقودها في الحرب مثل السحاب الأبيض النقي من كل شائبة تشوبُه .

نستنتج مما سبق أن الشعراء الجاهليين قد وصفوا السحاب بلونين هما : الأبيض والأسود ، ولم ينعت أحدهم السحاب باللون الأحمر غير لبيد ، لماذا فعل لبيد ذلك ؟

إن تشبيه الناقة بالسحاب عند لبيد فيه دلالة على الحياة ، إذ السحاب يرمز إلى دورة الماء في الطبيعة ، فالسحاب يتكون من بخار الماء المتصاعد ، ثم ينزل

[١] – الكرفئة: السحاب الثقال، الصبير: السحاب الأبيض. الخنساء ، تماضر، الديوان، ص ٤٤.

المطر ، ثم يعود ليتبخر مكونا السحب مرةً أخرى ، وهذا يعني للبدوي زيادة الخصب والكلأ ؛ ذلك قبل أن يتراءى السحاب موسوماً باللون الأحمر عند لبيد:

فلهـا هبـابٌ فـي الزمـام كأنهـا صهباءُ خفَّ مع الجنوبِ جهامُها[١]

فقد كشف اللون الأحمر عن المقارنة بين الحياة متمثلة في المطر والسحاب ، وبين الموت المتمثل في السحاب الأحمر الذي شبه لبيد به ناقته ، فالإبل تحمل المعنيين الحياة والموت ، يكشف عن ذلك كتب تعبير الأحلام " فمن رآه – يعني الجمل – في حائطه أو بستانه فإنه ينال خيراً وبركة وراحة، فإن رأى إبلاً كثيرةً في بلد فإنه يقع في تلك البلد موت وحرب "[٢] فيتواشج اللون الأحمر عند لبيد مع الدم تواشجاً قوياً يفرز عنه دلالة الموت ، وهذا ما جعله يذكر الضرب والكدم في الأبيات اللاحقة :

أو ملمـع وسـقت لأحقـب لاحـه طرد الفحول وضربها وكدامها[٣]

شبه لبيد ناقته بحمار الوحش شديد الغيرة على أتنه ، فهو يسوقها سوقاً عنيفاً يتخلله الضرب والكدم .

والضرب والكدم ينتج عنهما احمرار في الجلد ، فاللون الأحمر نجده يعود للظهور في صورة حمار الوحش ، وقد كان مصدر هذا اللون الأحمر هو الناقة حين شبهها بالسحاب الأحمر ثم أتبع ذلك التشبيه بتشبيه آخر ، حين شبهها بحمار الوحش ، ولم يخلُ هذا التشبيه من اللون الأحمر الذي يرمز للموت هذا اللون ارتبط بالناقة

---

[١]– الزوزني، ، شرح المعلقات السبع، ص ٩٣.

[٢] – القادري ، أبو السعد يعقوب، التعبير في الرؤيا ، ط١، (بيروت: عالم الكتب، ١٩٩٧)ص ٨٤.

[٣] – ألمعت الأتان فهي فهي ملمع: أشرف طيبها باللبن، وسقت: حملت وسقاً، الأحقب: البعير الذي في وركيه بياض أو في خاصرتيه لاحه غيره ويروى طرد الفحولة ضربها وعذامها ، الفحول: الفحول والفحولة والفحال والفحالة، جموع فحل، الكدام: المعارضة. الزوزني، ، شرح المعلقات السبع، ص ٩٣.

بشكل أوضح في صورة ساقها عبيد بن الأبرص بعد أن وقف على أطلال محبوبته قائلاً :

لـــــولا تُسَـــــلِّيكَ جُمالِيَّـــــةٌ أدمـــــاءُ دامٍ خُفُّهـــــا بـــــازِلُ[١].

فقد هاله ما رآه من رسوم تقادم عهدها ودرست ، فراح يسلي نفسه بسيره على ناقته التي دمى خفها ، فيعود لنا الدال الأحمر للظهور ، رغم كونه اتخذ الناقة وسيلة لتناسي الهموم ،ولكن الهموم تعود إليه متمثلة في الأداة التي أراد أن يتسلى بها ، من خلال لون الدم الذي اصطبغ به خف ناقته ، مستحضراً شبح الموت بوعي منه أو بغير وعي،ذلك الذي فرَّ منه في لوحة الطلل وجده قد عاد إليه في الناقة، مما جعل الصورة تتناسل وتسيلُ دماً أحمراً مشؤوماً يذكره حروب قبيلته وأيامها :

يـــا أيُّهـــا الســـائِلُ عَـــن مَجـــدِنا إنَّـــكَ عَـــن مَســـعاتِنا جاهِـــلُ[٢]
إن كُنـــتَ لَـــم تَأتِـــكَ أيّامُنـــا فَاِســـأل تُنَبَّـــأ أيُّهـــا الســـائِلُ[٣]
ســـائِل بنـــا حُجـــراً وَأجنـــادَهُ يَـــومَ تَـــوَلّى جَمعُـــهُ الجافِـــلُ[٤]

فاتخذ عبيد الناقة رمزاً للحرب والدمار ، حيث ذكر بعد ذلك ما يشير إلى أنها ربة الحرب تلقح الألسنة والرماح :

قَومي بَنو دودانَ أهلُ النُهى يَومـــــاً إذا أُلقِحَتِ الحائِلُ[٥]

اللون الأحمر لون قد ارتبط بالناقة ربطاً وثيقاً ، فأصبحت الناقة تدرُّ هذا الدم بدلاً

---

(١)– تسلِّيك: تنسيك ، الجماليَّة: الناقة الوثيقة الخلق كالجمل، الأدماء: البيضاء، دام خفُّها: سال الدم منها، البازل: التي برز نابها. ابن الأبرص، عبيد، الديوان، ص٩٣.

(٢) – المسعاة: المكرمة والمفضل.

(٣) – المعنى يدعوه إلى الاستفهام عن آبائه، ليعلم سموَّمجدهم ، وجليل فضلهم.

(٤) – تولَّى: فرَّ، الجافل: الهارب المذعور. المرجع السابق،٩٣.

(٥) – النُّهى العقل، القحت: حبلت، الحائل: العاقر، المرجع السابق، الديوان ، ٩٤.

من الحليب ، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت :

وَنَحنُ إذا ما الحَربُ صرَّ صِرارُها وَجادَت عَلى الحُلابِ بِالمَوتِ وَالدَمِ[١]

هذه الصورة قائمة على تحطيم الحواجز ، والثورة على مبدأ التناقض ، فقد اندمجت المتنافرات المفهومية ، لتصبح الناقة حرب .

النـــاقة [حي] [محسوس] والحليب الناتج هنا أيضاً محسوس.
الحرب [حي] [مجـــرد] نتائجها تدرك بالحواس.

هناك إذن لفظان يفترقان من حيث الحسية والتجرد ؛ لذلك نجد توتراً بينهما ، فالشاعر جعل الناقة تدرُّ أمراً محسوساً (الدم وأمراً مجرداً (الموت) فدمج بين الناقة والحرب من خلال دمج الألوان داخل الصورتين (صورة الحرب) وصورة الناقة التي تحلب)

الحليب ← الدم
الأبيض← الأحمر

فالحليب أبيض اللون ، يتحول هذا البياض الناصع إلى لون الدم الأحمر ، فيتعكر هذا الحليب الأبيض بالدم الأحمر ، فتنعكس دلالة اللون من الإتحاد بالصفاء والطهر إلى الدلالة المنذرة بالحظر والتي يحملها اللون الأحمر وهي الإنذار من خطر الحرب والدماء التي تسيل في تلك الحرب ، فالنص الشعري هنا قائم على المفاجأة والإبهام والمراوغة ، فقد ذكر حسان بن ثابت لفظ (الحلاب) والذي يستدعي اللون

[١] – ابن ثابت، حسان، الديوان، تحقيق سيد حنفي، (مصر:الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧٤) ص١٨٣

الأبيض لون الحليب،لكنه فاجأ المتلقي بلون آخر وهو اللون الأحمر ، فجعل اللوحة تصطبغ بكثير من القتامة بعد أن كانت مشرقة مضيئة ، ليصبح اللون الأبيض لون الموت

ويبدو أن هناك تراثاً خصباً قد وجه حسان بن ثابت إلى صياغة هذا البيت بهذه الصورة (الناقة الدم) وذلك لأننا نجد هذه الصورة أيضاً عند الخنساء في قولها :

شَدَدتَ عِصابَ الحَربِ إذ هِيَ مانِعٌ فَألقَت بِرِجلَيها مَرِيّاً فَدَرَّتِ[١]

وَكانَت إذا ما رامَها قَبلُ حالِبٌ تَقَتَهُ بِإيزاغٍ دَماً وَاِقمَطَرَّتِ[٢]

وَكانَ أبو حَسّانَ صَخرٌ أصابَها فَدوَّخَها بالخيل حَتّى أقَرَّتِ[٣]

صورة حركية لونية مضادة للصورة السابقة عند حسان، حيث الناقة تجود عند حلبها بالموت والدم ، لكن عند الخنساء تتمنع عن حالبها وتتقيه بإيزاغ الدم إذا الحالب غير صخر.

عند الخنساء في الماضي الحالب ←تدميه الناقة (لون أحمر)

عند الخنساء في الحاضر صخر الحالب ← يدرُّ دم الناقة (لون أحمر)

في كلتا النتيجتين اللون الأحمر حاضر واللون الأبيض غائب مع وجود لفظ (الحالب) ، معنى هذا أن:

الحليب ← دم

الناقة ← الموت.

---

[١] – عصاب الحرب: استكراه عليها، فألقت برجليها مريًّا: أي سامحت كما تسامح المريَّ، والمريَّ: التي تحلب على يد الراعي، درَّت: أي أعطى أهلها ما يراد منهم.

[٢] – تقته بإيزاغ: أي أدْمته وكلمتْهم، تقتْهُ: الإتقاء ؛ أن تتقي مكان درَّها بدمهم، واقْمطرَّتِ: أي أن تعقد عنقها وتشول بذنبها.

[٣] – سما لها: أي قصد لها، دوَّخها: ذلَّلها، أقرَّت: ذلَّت. الخنساء، الديوان، ص١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤.

وقد ظل طائف الموت يطوف بالناقة منذ أن كان عقر ناقة سيدنا صالح سبباً في هلاك ثمود ، وعقر ناقة البسوس سبباً في حرب دامت أربعين عاماً ، فتركزت الناقة في اللاشعور الجمعي مجسدة الموت ، وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى :

وَمـا الحَـربُ إلا مـا عَلِمـتُم وذقـتُمُ ... وَمـا هُـوَ عَنهـا بِالحَـديثِ المُـرَجَّمِ[١]
مَتـى تَبعَثوهـا تَبعَثوهـا ذَميمَـةً ... وَتَضـرَ إذا أضَـريتُموها فَتَضـرَمِ[٢]
فَتَعـرُككُم عَـركَ الرَحـى بِثِفالِهـا ... وَتَلقَـحْ كِشَـافاً ثُـمَّ تنـتج فَتُتـئِمِ[٣]
فَتُنـتَج لَكُـم غِلمـانَ أشـأمَ كُلُّهُـم ... كَأحمَرِ عـادٍ ثُـمَّ تُرضِـع فَـتَفطِمِ[٤]

حذر زهير من استمرار حرب داحس والغبراء وما خلّفته من ويلات ، فيصور الحرب أيضاً على صورة ناقة،تلد غلمان شؤم ينشؤن في ظل هذه الحرب ، فيعتادون على إثارة المشاكل وعلى القتل والتدمير ، كما حصل مع ثمود حين عقر قُدَّار بن سالف – وكان أحمراً – ناقة سيدنا صالح-عليه السلام - فكان سبباً لوقوع العذاب عليهم ، ولكنَّ زهيراً لم يصرح بذكر ثمود وإنما قال أحمر عاد ، فنسبه إلى عاد ، وقد توقف الشرَّاح أمام هذه الجملة ، فقال بعضهم : إنه قال أحمر عاد لإقامة الوزن لما لم يمكنه أن يقول كأحمر ثمود،قال أبو عبيد:وقال بعض النساب إن ثمود من عاد"[٥] لذلك قال الله عز وجل :

---

[١]– الذوق: التجربة، الحديث المرجَّم: الذي يرجم فيه بالظنون.

[٢] – الضَّرَى: شدة الحرص واستعار ناره، وكذلك الضراوة والفعل ضرى يضرى، والاضراء والتضرية: الحمل على الضراوة، ضرمت النار تضرم ضرماً واضطرمت وتضرمت: التهبت، وأضرمتها وضرمتها: الهبتها ذميمةً: أي تذمون على اثارتها ويشتد ضرمها إذْ حملتموها على شدة الضَّرَى فتلتهب نيرانها.

[٣] – ثفال الرحى: خرقة أو جلدة تبسط تحتها ليقع عليها الطحين، تلقح: اللقاح حمل الولد، الكشاف: أن تلقح النعجة في السنة مرتين، أنتجت الناقة انتاجاً: أي ولدت ،الأتآم: أن تلد الأنثى توأمين.

[٤] – الشؤم: ضد اليمن والأشأم أفعل الشؤم وهو مبالغة المشئوم. الزوزني، شرح المعلقات السبع ، ص ٧٦,٧٥ .

[٥] – ابن منظور، ، لسان العرب" مادة حمر".

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأولى) [١] فقد كان يقال لثمود عاد الصغرى[٢] ،ولكن بعض الشراح لهذا البيت رأوا أنه قال ذلك على سبيل الغلط ، منهم أبو بكر الأنباري[٣]، وابن قتيبة[٤].

لقد ترسبت في الذهنية العربية الجمع بين عاد وثمود ، وعزز ما تلك الترسبات ما تراكم في الذاكرة من حكايات حول قصة تلك القبيلتين ، فقوم عاد سكنوا الأحقاف وتكبروا عن الحق الذي دعاهم إليه نبيهم سيدنا هود عليه السلام ، فوقع عليهم غضب الله وعقابه جزاء كفرهم واستكبارهم[٥] ، وهذا ما حصل أيضاً لقوم ثمود ، حيث دعاهم نبيهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، لكنهم عاندوه وتكبروا ، وطلبوا منه أن يأتي لهم بآية دليلاً على صدقه ، فتحولت صخرة صماء بقدرة الله إلى ناقة ، لكن طائفة منهم كفرت واجتمعت بقيادة قدار بن سالف فعقروا الناقة ، فوقع عليهم غضب الله وعقابه[٦].

قوم عاد وقوم ثمود كانت رسالتهما رسالة الكفر والضلال والاستكبار والتدمير في الأرض ، لذلك لجأ زهير بن أبي سلمى إلى الإحالة على ذلك التاريخ من خلال التناص الذي قدمه (أحمر عاد) وجعل تلك الإحالة تركز على اللون الأحمر و حيث يفجر طاقة تاريخية دينية ، فهو يطرح نسقاً متنوع الأزمان ، يمتد من زمن عاد إلى زمن ثمود ، هذا النسق يلقي بظلاله على الواقع المعيش بالنسبة للشاعر ، حيث التكبر والعزة بالإثم والقتل والتدمير .

---

[١] – النجم آية ٥٠.

[٢] – القيرواني، ابن رشيق، العمدة، ط١، (بيروت: دار الكتب العلمية)ص ٥٢ .

[٣] – الأنباري، أبو بكر، شرح القصائد السبع الطوال ،(بيروت، المكتبة العصرية ، ٢٠٠٤)، ص٢١٤.

[٤] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ط١، (بيروت:دار إحياء العلوم، ١٩٨٤)ص٢٩١ .

[٥] – انظر تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمرو، تفسير ابن كثير، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠١هـ)٤ / ٦١.

[٦] – انظر المرجع السابق، ٢/٢٢٩,٢٣٠.

فالبنى الرمزية تتشكل في:

عـــــــــاد دعـــــوة ← اســـــتكـبـار ← عقاب (دم) لون أحمر .
ثـــمـــــــود آية (ناقة) ← قتل الناقة (دم) ← عقاب (دم) لون أحمر .
عبس وذبيان سبـــــاق ← رصـد الكـــمين ← حرب (دم) لون أحمر .

فاللون الأحمر أخذ دلالة الإنذار بالخطر ، خطر تلك الحرب الدامية ، كما أنه إشارة تنبيه للوقوف وعدم الاستمرار في القتال ، كما أنه يحمل في طيَّاته طابع الشؤم ، لذلك نرى تأبط شراً يذم ناقة حمراء ، ذلك لأنه قتل صاحبها ثم ركبها فسارت به مسرعة إلى الحيِّ الذي يسكنه صاحبها المقتول ، فرمى تأبط شراً بنفسه عن تلك الناقة خشية أن تطرحه في أيدي القوم ، فانكسرت رجله فكانت شؤماً عليه:

وَيـا ركبَـة الحَمـراءِ شَـرَّة ركبَـةٍ وَكـادَت تَكونُ شَرَّ ركبَـةِ راكِبِ[١].

تأبط شراً لم يصرح بذكر الناقة ولكنه سماها ركبة الحمراء ، ونلحظ أنه نعتها بلونها الأحمر ، وجعلها (شرة ركبة) فاللون الأحمر أوقعه في الخطر والشر بعد أن كانت مثيراً له للهجوم و الغزو ، حين أقدم على قتل صاحب الناقة أخذ اللون الأحمر دلالة المراوغة والمخادعة ، فتحول من لون مثير للهجوم إلى رمز للمشقة والشدة والخطر والشر[٢] .

وقد كانت الأدماء (البيضاء) مظهراً من مظاهر الفخر عند الشاعر الجاهلي،

---

[١] – الحمراء: اسم للناقة التي قيل إنما كانت سبب في إصابة قدمه، شرَّة: هي الشر. تأبط شراً، الديوان،ط١، (بيروت: دار المعرفة،٢٠٠٣)ص ١٦.

[٢] – انظر عمر ، أحمد مختار، اللغة واللون، ص ٧٥ ، ١٨٤.

قَـــومٌ إذا كَثُـــرَ الصِـــياحُ رَأيـــتَهُم وُقُـــراً غَـــداةَ الـــرَوعِ وَالإنفـــارِ[١]
تَمشـــي بِهِـــم أُدمٌ كَـــأنَّ رِحالَهـــا عَلَـــقٌ هُريـــقَ عَلَـــى مُتـــونِ صُـــوارِ[٢]

يقول النابغة :

وقد تكرر الفخر بالإبل الأدماء (البيضاء) بنفس التركيب (تمشي بهم أدم) عند عبيد بن الأبرص حين قال :

تَمشـــي بِهِـــم أُدمٌ تَـــئِطُّ نُســـوعُها خـــوصٌ كَمـــا تمشـــي الهجـــانُ الرَبـــرَبُ[٣]

من خلال لون الأدمة نستطيع أن نقرأ التركيب قراءتين ، القراءة الأولى دالة على الشجاعة ، والقراءة الثانية دالة على الخوف وغياب الأمن .

القراءة الأولى .

تمشي : إلى ساحة الموت

بهم : برجال القبيلة .

أدم : الإبل الأدماء البيضاء وسيلة الموت .

فتصبح الإبل الأدماء البيضاء وسيلة تطهير ، تطهر القبيلة من العار ، عار المذلة والهوان و لذلك كانت الإبل تسير بهم إلى حياض الموت إبلٌ ذات لون أبيض شديد البياض ، كما نلحظ تكرار التركيب (تمشي بهم أدم) عند عبيد بن الأبرص وعند النابغة مع إسقاط الموصوف (إبل) وإثبات الصفة (أدم) على نفس التركيب

---

[١] – وقراً : جمع وقور، الروع: الهلع والخوف، الإنفار: الخوف والفزع.

[٢] – الأدم: هي الإبل العتاق، العلق: الدم، الصوار: القطيع من بقر الوحش. الذبياني، النابغة، الديوان، ص ٥٦.

[٣] – أدم: إبل بيض، تئط نسوعها: تصيح، نسوع: جمع نسع وهو السَّير خوص: جمع أخواص وخوصاء: غائرة العيون، الهجان: البقر البيض، الربرب: جماعة البقر، شبَّهها بالبقر لبياضها.ابن الأبرص، عبيد، ، الديوان، ص ٣٠.

للألفاظ.

فهناك تكرار على مستوى المعجم ،و تكرار على مستوى التركيب

عبيد	تمشي	بهم	أدم
النابغة	تمشي	بهم	أدم

تمشي + بهـــم + أدم

فعل + مفعول به + فاعل

في هذا التركيب تقديم وتأخير ، كما نلحظ تبادلاً في الوظيفة النحوية بين الإنسان والحيوان / الناقة الأدماء ، فالتركيب في أساس وضعه

تمشي الرجال بإبل أدم.

فــعل + فــاعل + مفعول به.

ذلك لأن الإنسان هو الذي يقود الناقة ويسير بها حيث شاء ، فهو بذلك يكون الفاعل (الإنسان) وتكون هي المفعول به (الناقة الأدماء) ، لكن الشاعران جعلا الإنسان مفعولاً به ، والإبل الأدماء فاعلاً تسير بالقبيلة وتوردها حياض الموت .

فالقراءتان تصوران حالتين متناقضتين ، حالة الشجاعة والقوة ، وحالة الهلاك والقتل ، بيد أن القراءة الثانية هي المهيمنة على المعنى العام والذي كشفت عنه القراءة التفصيلية ومما يزيد في تعضيد القراءة الدالة على الهلاك النظر في معاني مادة أدم .

فالآدم من الناس الشديد السمرة.

و الآدم من الإبل الشديد البياض.

والآدم من الظباء البيض تعلوهن جدد فيها غبرة[١].

لون السمرة يستدعي السمر (الرماح)
ولون البياض يستدعي لفظ البيض (السيوف)

والسمر والبيض أدوات للقتل والهلاك ، فالسمر والبيض لونان متضادان ، يكمل بعضهما بعضاً ، إذ كل واحد مهما له نفس الوظيفة

القتل = { البيض + السمر / السيوف + الرماح }

فالقتامة / السمر، والإشراق / البيض يخيمان على تلك اللوحة ، فيغدو الفخر بالسير في ساحة القتال بالإبل الأدم من مراسم التشييع الجنائزي ، حين تقدم القبيلة أبناءها قرباناً في سبيل تحقيق القوة والسيادة .

وقد كان البياض الذي تخالطه حمرة (الصهبة)[٢] لوناً للإبل التي تساق إلى البيت

حَلَفتُ بِرَبِّ صُهبٍ مُعمِلاتٍ إلى البَيتِ المُحَرَّمِ مُنتَهاها[٣].
لَئِن جَزِعَت بَنو عَمروٍ عَلَيهِ لَقَد رُزِئَت بَنو عَمروٍ فَتاها[٤].

الحرام ، تقول الخنساء :

---

[١]– ابن منظور، لسان العرب" مادة أدم".

[٢] – ابراهيم، عبد الحميد، قاموس الألوان عند العرب ، مادة صهب .

[٣] – الصَّهب: الإبل في ألوانها [صهبة] والصهب من الإبل: جمع أصهب وصهباء؛ وهو الذي يخلط بياضه حمرة، يحمرُّ ذفراه وعنقه وكتفاه .، البيت: بيت الله المحرَّم، حرّمه الله؛ فهو محرم.

[٤] – رزئت: أصيبت، والرزء: المصيبة، فتاها: رجلها. الخنساء، الديوان، ص ١٥٩.

تجربة الثكل والفقد عند الخنساء، وحبها لأخيها جعلها تحلف برب الإبل الصهب التي تساق في الحج إلى البيت الحرام أن أخاها يستحق من قبيلته أن تجزع لفقده ، والإبل الصهب بما تحويه من بياض وحمرة ، تمثل تقديم القرابين لله تعالى ، حيث تسفك دماؤها بغية تطهير النفس ، وصخر يهب حياته لقبيلته ويسعى في الدفاع عنها والحياض عن وردها مسلماً ببياض أخلاقه ، مدافعاً عن دماء قبيلته ، فالعرب لم تكن تنكر شيئاً مثل إنكارها للهوان والضيم "فهما السوأة الكبرى ، والمثلبة العظمى إذ يعنيان الذل ، وأن القبيلة استبيحت ، فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها ، وكل شئ إلا الهوان "[١].

لذلك كان صخر يستحق من الخنساء بل من القبيلة كلها أن تجزع لفقده ، وحق لها أن تحلف على ذلك برب الإبل الصهب.

وقد كانت العرب تقول : قريش الإبل صهبها وأدمها[٢]، فكما أن قريشاً هي أفضل العرب ، كانت الإبل الصهب أحسن أنواع الإبل .

[١] – ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، ط٨، (مصر: دار المعارف،) ص٦٩ .

[٢] – ابن منظور، لسان العرب، مادة إبل.

٢ – الخيل :

لقد شغف العربي بالخيل ، فاتخذها صديقاً حميماً في الشدة والرخاء ، فأولاه كل اهتمامه وعنايته ، فكان مجال فخر للعربي يحميه من عوارض الزمان .

تقول الخنساء :

يـــا مَـــن يَـــرى مِـــن قَومِنـــا فارســـاً فـــي الخَيـــلِ إذ تَعـــدو بِـــهِ الضـــافِيَه[١]
تَحنَّـــــكَ كَبـــــداءٌ كُمَيـــــتٌ كَمـــــا أُدرِجَ ثَـــوبُ اليُمانيـــة الطاوِيَـــه[٢]

الكميت من الخيل ما كان لونه بين الأسود والأحمر[٣]، وهو لون محبب عند العرب ، يفخرون بامتلاك خيل يحمل هذا اللون ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخيل الكميت :- (عليكم بكل كميت أغرمحجل)[٤].

يقول الكلحبة :

تســـائِلني بنـــو جشـــم بـــن بكـــرٍ أغـــراء العـــرادة أم بهـــيم[٥]
هـــي الفـــرس التـــي كـــرت علـــيهم عليهـــا الشـــيخ كالأســـد الكلـــيم[٦]
كميـــت غيـــر محلفـــة ولكـــن كلـــون الصـــرف عُـــلَّ بـــه الأديـــم[٧].

---

(١) – الضافية: الفرس متباهيةً بذيلها الطويل.

(٢) – كبداء: عظيم المركل. الخنساء، الديوان ، ص٢٤٢.

(٣) – الخويسكي، زين، معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم، مادة كمت.

(٤) – أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود ، (بيروت: دار الفكر)٢٢/٣.

(٥) – غراء:مؤنث الأغر، وهو الذي في جبهته بياض. البهيم مالونه واحد لايخالطه غيره.

(٦) –الكليم: الجريح.

(٧) الكميت: مالونه بين السواد والحمرة، غيرمحلفة: خالصة اللون لايحلف عليها أنها ليست كذلك، الصرف: صبغ أحمر تصبغ به الجلود، علّ: سقي به مرة بعد اخرى، الأديم الجلد، الضبي، المفضل، المفضليات، ص٣٣.

يصف الكلحبة فرسه الكميت التي كرت على بني جشم بن بكر ، فأبلت بلاءاً حسنا ، ثم وصف لونها بأنه كميت خالصة اللون ، ولا يستطيع أحد أن يحلف أنها ليست كذلك .

فهو سعيد لامتلاكه هذه الخيل التي استطاع من خلالها أن يحصل على ما يريد ، فهو لم يفخر بقوتها ، وإنما وجه جل اهتمامه بلونها الكميت .

وقد كان المرقش متفائلاً بخيله الكميت حين قال:

غَـدَوْنا بِصـافٍ كالعَسِـيبِ مُجَلَّـلٍ طوينـاهُ حِينـاً فَهْـوَ شِـزبٌ مُلَـوَّحُ[١]
أسِـيلٌ نَبِيـلٌ لـيسَ فيـهِ مَعابَـةٌ كُمَيْتٌ كَلَوْنِ الصِّرْفِ أرْجَلُ أقْرَحُ[٢]
علـى مِثْلِـهِ آتِـي النَّـدِيَّ مُخـايِلاً وأغْمِـزُ سِـرّاً أيُّ أمْـرَيَّ أرْبَـحُ[٣]

جعل الفرس الكميت وسيلة للربح،حيث يأتي به على النادي طمعاً في الربح، وقد جاء في الأثر عن الشعبي مرفوعاً : "التمسوا الحوائج على الفرس الكميت"[٤]، لذلك كانت العرب تقوده في المعارك والحروب.

يقول عامر بن الطفيل :

وَما بَرِحَت في الدَهرِ مِنّا عِصابَةٌ يَذودونَ عَن أحسابِنا مَن تَعَرَّما[٥]

---

[١]- أي غدونا للصيد بفرس صافي اللون، العسيب: طرف السعفة،مجلل عليه الجلال،طويناه:ضمرناه، الشزب: الضامر، الملوح الشديد الضمرة.

[٢]-الأسيل: الأملس، الصرف: صبغ أحمر، أرجل: المحجل بثلاث قوائم مطلق بواحدة، أقرح: ذو قرحة وهي بياض في الوجه مثل الدرهم.

[٣] -الندي والنادي: المجلس، المخايل: من الخيلاء، أي أمري: يريد النجاء أو الطلب. الضبي، المفضل، المفضليات، ص٢٤٢، ٢٤٣

[٤]- أبو عبيدة، الخيل، ص ٨ .

[٥] – يذودون: يدافعون، تعرّم: من تعرّم من كان جاهلا، أو أصابه عرام، والعرام الأذى الشديد.

يَقودونَ جُرداً كَالسَراحينِ تَستَمي صُدورَ العَوالي مِن كُمَيتٍ وَأدهَما[١]

يفخر بقيادتهم للخيل الكميت والأدهم ، "فالأدهم من الخيل الأسود ، والعرب تقول : ملوك الخيل دهمها"[٢]، وجاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم :(خير الخيل الأدهم الأقرح الأرثم)[٣]، فالدهمة عند العرب من ألوان الخير والأمل ،"ادهامَّ الزرع؛ علاه السواد ريَّاً ، وفي التنزيل العزيز ، (مدهامتان)[٤] أي سوداوان من شدة الخضرة من الري"[٥].

ومن أشهر من عرف بخيله الأدهم عنترة بن شداد:

لَمّا رَأيتُ القَومَ أقبَلَ جَمعُهُم يَتَذامَرونَ كَرَرتُ غَيرَ مُذَمَّمِ[٦].
يَدعونَ عَنتَرَ وَالرِماحُ كَأَنَّها أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدهَمِ[٧]
ما زِلتُ أرميهم بِثُغرَةِ نَحرِهِ و لَبانِهِ حَتّى تَسَربَلَ بِالدَمِ
فَازوَرَّ مِن وَقعِ القَنا بِلَبانِهِ وَشَكا إِلَيَّ بِعَبرَةٍ وَتَحَمحُمِ[٨]
لَو كانَ يَدري ما المُحاوَرَةُ اِشتَكى وَلَكانَ لَو عَلِمَ الكَلامَ مُكَلِّمي[٩]

عنترة يواجه سواد الواقع ورماح الموت بـ "بئر لبان الأدهم" وإذ ذاك يصبح السواد (الدهمة) ذا دلالة إيجابية ، خاصة عند مجئ الدال المائي (بئر) ، عندها يغدو

---

[١] الجرد: الخيل قصار الشعر، السراحين: جمع سرحان الذئب، العوالي: الرماح، ابن الطفيل، عامر، الديوان، ص ٧٩ ، ٨٠.

[٢] ابن منظور، لسان العرب، مادة دهم.

[٣] الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي ،(بيروت:دار إحياء التراث العربي) ٢٠٣/٤.

[٤] الرحمن، آية ٦٤.

[٥] ابن منظور، لسان العرب مادة دهم.

[٦] التذامر: الحض على القتال.

[٧] الشطن: الحبل الذي يستسقى به، اللبان: الصدر.

[٨] الازورار: الميل التحمحم: من صهيل الفرس.

[٩] الزوزني، شرح المعلقات السبع ،ص١٤٠

هذا السواد لون تفاؤل يجلب الخير لصاحبه ، كحال صاحب الزرع حين يدهامَّ زرعه وتشتد خضرته ، مما يجلب له الخير والأمل والسعادة،حيث يصبح الخيل الأدهم وسيلة للتصدي لحالة الجدب المكاني "فالذهنية الجاهلية منشغلة في لاوعيها بفكرة المائية لإحداث عالم الحياة الخصبة"[١].

فأغلب الصراعات والحروب تنشأ جراء رغبة القبائل بسط سلطتها على المراعي الخصبة ، لذلك نجد فكرة الخصب تراود الشعراء عند حديثهم عن خيلهم في الحروب ، فتجعل الخيل دهماً مكتنزة بالخصب كالزرع لتسقيهم من بئر الحياة في لحظات الحرب .

ويبدو أن ارتباط فكرة الخصب بالخيل الدهم امتد إلى عصر الإسلام ، "قال أبو الحسن : جرى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخيل ، وسابق بينهم و فجاء فرس له أدهم سابقاً ، فجثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال : ماهو إلا بحر"[٢].

واستعمل العرب في تعبيرهم عن سواد الخيل لفظ(الجون)، كقول مروان بن زنباع :

تعقّى الجون من تأبيد شهرٍ ألم تعلم عدوي وانطلاقي[٣]
إذا برئ القروح يكون همي عتاق الخيل كالعسب الدقاق[٤].

يصف خيله الجون بأنه استراح ونما لحمه واكتنز ، جراء بقائه دون ركوب

---

[١]- يوسف عليمات ، جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهلي نموذجاً ١٥٥.

[٢]- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين ،١/ ٢٢٧.

[٣] –تعفى: استراح ونما لحمه، تأبيد البقاء في مكان واحد.

[٤]- العسب: جمع عسيب ، وهو جريدة النخل،الفيصل، عبد العزيز بن محمد، شعر بني عبس في الجاعلية والإسلام حتى آخر العصر الأموي، ط١، (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١١هـ)١٦/٢.

مدة شهر ،فالجون لون يوحي بالخصوبة ، ذلك لأن من معانيه "النبات تضرب خضرته إلى سواد "[١] ، ومن ذلك قول الخنساء :

إذْ نحـــن بـــالأتم نرعـــاه ويعجبنـــا جون خصيب به تستأنس السُّربُ[٢].

تتحسر الخنساء على ما مر من أيام كانت تنزل فيها قرى الأتم فتستمع بمرعاه الخصيب الجون .

فاكتناز خيل مروان بن زنباع (تعفى الجود من تأبيد شهرٍ) ، يرمز إلى معنى الخصوبة والخير ، ونلمح من ذلك علاقته بالحياة .

يقول علقمة بن عبده :

فَوَاللّـهِ لـولا فـارِسُ الجَـونِ مِـنهُمُ لأبـوا خَزايـا وَالإيـابُ حَبيـبُ [٣]

يمدح فارس الجون الحارث بن أبي شمر ، حين أبلى بلاءً حسناً في الحرب، وأنقذ قبيلته من عار الهزيمة ، ولم يصرح باسمه ، وإنما سماه (فارس الجون) ، نعته بلون خيله ، لأنه لون حياة يصارع الموت ، ذلك لأنه يشترك مع الشمس في اللفظ ، فالجونة كما يقول ابن سيده: "الشمس لاسودادها إذا غابت ، وقد يكون لبياضها وصفائها ، وهي جونة بينت الجونة فيهما"[٤] .

فكما أن الشمس تمنح الحياة بتجدد طلوعها ، وتحارب ظلام الليل ، كذلك

---

[١] الخويسكي، زين، معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم مادة جون.

[٢] الأتم : اسم موضع، الخنسا، الديوان، ص ١٤١.

[٣] الضبي، المفضل، المفضليات، ص ٣٩٤.

[٤] ابن منظور، لسان العرب مادة جون.

الخيل الجون بلونه الأسود ، يبعث في فارسه حرارة تسري في جسده ودمه ، فينقض على خصمه في قوة عنيفة مدافعاً عن قبيلته في بسالة وشجاعة .

هذا وقد وردت حكاية على لسان أعرابي تشير إلى ارتباط الفرس بالشمس:

"تكاذب أعرابيان ، فقال أحدهما : خرجت مرة على فرس لي ، فإذا أنا بظلمة شديدة ، فيممتها حتى وصلت إليها ، فإذا قطعة من الليل لم تنتبه ، فما زلت أحمل بفرسي عليها حتى أنبهتها فانجابت"[١]

فالليل عند العربي وحشي مفترس يهاجم البشر ويرعبهم ويجلب لهم الهموم :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي [٢].

فكان لابد من الانتقام من هذا الليل ، بإيجاد أداة تنوب مناب الشمس ، فتوقظه من غفوته ليرحل عنه ويريحه ، تلك الأداة هي الفرس الذي يحارب الظلام .

وكثيراً ما يأتي ذكر غروب الشمس أو الليل مقترناً بذكر الفرس ، من ذلك قول امرئ القيس:

وَمُرقَبَةٌ كَالزجِّ أشرَفتُ فَوقَها أُقَلِّبُ طَرفي في فَضاءٍ عَريض[٣]
فَظِلتُ وَظَلَّ الجَونُ عِندي بِلَبدِهِ كَأنّي أُعَدّي عَن جَناحٍ مَهيض[٤]

---

[١]– المبرد ، الكامل، تحقيق زكي مبارك ، (القاهرة : مطبعة البابي الحلبي ، ١٩٣٧) ، ٥٤٨/٢.

[٢]– امرؤ القيس ، الديوان، ص ٣١.

[٣] –المرقبة: أعلى مكان في رأس الجبل، الزج: الحديدة في طرف الرمح الأسفل.

[٤] – لبده: سرجه مصنوع من اللبد، أعدي : أتكئ على الجناح، المهيض: المكسور.

فَلَمّــا أجَــنَّ الشَــمسَ عَنّــي غِيارُهــا نَزَلــتُ إلَيــهِ قائِمــاً بِالحَضــيضِ[١]
يُبــاري شَــباهَ الــرُمحِ خَــدٌّ مُــذَلَّقٌ كَصَــفحِ السِـنانِ الصُـلَّبِيِّ النَحـيضِ

يذكر وقوفه بجوار فرسه الجون يرقب نزول المطر ، فلما غابت الشمس ركب فرسه ورجع إلى أهله ، وقد شبه خدَّ خيله في لمعانه بلمعان طرف الرمح ، وهذا يدلنا على أن فرسه الجون كان أبيضاً.

ونلحظ من الأبيات السابقة أن امرأ القيس ركب فرسه الجون عند غروب الشمس ، فالخيل كانت هي الأداة الفاعلة للتغلب على وحشة ظلمة الليل ، كما أن فرسه الجون كان أبيضاً ، فغياب الشمس (الجونة) عوض عنه الفرس (الجون) حيث يواجه ظلمة الليل المخيفة ، فيبث فيه روح الحياة ويزيل حالة الموت المؤقت التي تصيب الكون جراء الظلام المطبق ، كما أيقظ فرس الأعرابي قطعة الليل فانجابت ورحلت.

[١] –أجن: أظلم ،غيارها: غيومها، نزلت إليه: هبطت إليه، الحضيض: المستوي من الأرض ،أسفل الأرض، امرؤالقيس، الديوان، ص٩٠

٣ــ الثور الوحشي :

تناول الثور في الشعر الجاهلي كثير من الشعراء ، وقد جاء ذكره في صورة الصيد ، وكانت هناك خطوط مشتركة عند رسم تلك اللوحة ، فالثور أسحم الخدين ، تعلو ظهره خطوط بيض وحمر ، قوائمه موشاة ، قرنه حالك اللون ، يبيت إلى شجر الأرطى ، في ليلة ظلماء ، ثم تشرق الشمس ويأتي الصائد بكلابه التي تهاجم الثور ، فيتصدى لها ويدافع دفاع المحارب ، فينقض عليها كالكواكب الدري ، فيطعنها بروقية فتخر الكلاب خوفاً منه .

فاللوحة تحفل بعده ألوان اشترك فيها أغلب الشعراء الجاهليين ، مثل بشر بن أبي خازم [١] ، وزهير[٢] ولبيد[٣] وامرئ القيس[٤] والأعشى [٥] والنابغة ومن ذلك قوله :

كَأَنَّمــا الرَحــلُ مِنهــا فَــوقَ ذي جُــدَدٍ ... ذَبِّ الريــادِ إلــى الأشــباح نَظّــار[٦]
مُطــرَّدٌ أُفــردَت عَنــهُ حَلائِلُــهُ ... مِن وَحشٍ وَجرَةَ أو مِن وَحشِ ذي قار[٧]
مُجَــرَّسٌ وَحَــدٌ جَــأبٌ أطــاعَ لَــهُ ... نَبــاتُ غَيــثٍ مِــنَ الوَســميِّ مِبكــار[٨]
سَــرائُهُ مــا خَــلا لَبانَــهُ لَهــقٌ ... وَفــي القَــوائِمِ مِثــلُ الوَشــمِ بِالقــار[٩]
باتَــت لَــهُ لَيلَــةٌ شَــهباءُ تَســفَعُهُ ... بِحاصِــبٍ ذاتِ إِشــعانٍ وَأَمطــار[١٠]

---

[١]- الأسدي، بشر بن أبي خازم ، الديوان ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

[٢] – زهير ، الديوان ، ص ١٧٨.

[٣] – ابن ربيعة، لبيد ، الديوان ، ص ١٧٥.

[٤] – امرؤ القيس، الديوان، ص ١١٨.

[٥] –الأعشى، ميمون بن قيس، الديوان ،ص١٧١.

[٦] – ذوجدد: الثور الوحشي الذي تعلو ظهره خطوط بيض وحمر، الذب: الدفع، الرياد: هو الارتياد والتجول.

[٧] – مطرد: مشرد، أفردت عنه حلائله: أبعدت عنه زوجاته.

[٨] – المجرس: الخائف لسماعه جرس الإنسان، جأب:صلب شديد، الوسمي :أول المطر.

[٩] –لبانه: صدره، لهق: أبيض.

[١٠] –تسفعه: تلفحه وترميه، الحاصب: الريح القاذفة للحصى.

وَبـــاتَ ضَـــيفاً لأرطـــاةٍ وَألجَـــأهُ مَـــعَ الظَـــلامِ إلَيهـــا وابـــلٌ ســـارِ[١]
حَتّـــى إذا مـــا انجَلَـــت ظَلمـــاءُ لَيلَتِـــهِ وَأســـفَرَ الصُـــبحُ عَنـــهُ أيَّ إســـفارِ
أهـــوى لَـــهُ قـــانِصٌ يَســـعى بِأكلُبِـــهِ عـــاري الأشـــاجِعِ مِـــن قُنّـــاصِ أنمـــارِ[٢]
حَتّـــى إذا الثَـــورُ بَعـــدَ النَفـــرِ أمكَنَـــهُ أشـــلى وَأرسَـــلَ غُضـــفاً كُلُّهـــا ضـــارِ[٣]
فَكَـــرَّ مَحمِيَّـــةٌ مِـــن أن يَفِـــرَّ كَمـــا كَـــرَّ المُحـــامي حِفاظـــاً خَشـــيَةَ العـــارِ[٤]
فَشَـــكَّ بِـــالرَوقِ مِنـــهُ صَـــدرَ أوَّلِهـــا شَـــكَّ المُشـــاعِبِ أعشـــاراً بِأعشـــارِ[٥]
ثُـــمَّ انثَنـــى بَعـــدُ لِلثـــاني فَأقصَـــدَهُ بِـــذاتِ ثَغـــرٍ بَعيـــدِ القَعـــرِ نَعّـــارِ[٦]
وَأثبَـــتَ الثالِـــثَ البـــاقي بِنافِـــذَةٍ مِـــن باسِـــلٍ عـــالِمٍ بِـــالطَعنِ كَـــرّارِ[٧]
وَظَـــلَّ فـــي سَـــبعَةٍ مِنهـــا لَحِقـــنَ بِـــهِ يَكُـــرُّ بِـــالرَوقِ فيهـــا كَـــرَّ إســـوارِ[٨]
حَتّـــى إذا مـــا قَضـــى مِنهـــا لُبانَتَـــهُ وَعـــادَ فيهـــا بِإقبـــالٍ وَإدبـــارِ[٩]
اِنقَـــضَّ كَالكَوكَـــبِ الـــدُرِّيِّ مُنصَـــلِتاً يَهـــوي وَيَخلِـــطُ تَقريبـــاً بِإحضـــارِ[١٠]

شبه النابغة الناقة بثور اجتمعت فيه كل العناصر التي جاءت متفرقة عند غيره من الشعراء (ثور في ليلة حالكة ، يلوذ بشجر الأرطى ، تشرق عليه الشمس ، يظهر الصائد والكلاب) .

---

[١] الأرطاة: شجرة مرة تقتات عليها الإبل، الساري: المطر الذي يسح في الليل.

[٢] الأشاجع: أصول الصابع التي تتصل بعصب ظاهر اليد، أنمار: قبيلة عربية أشتهرت بالصيد.

[٣] أشلى: دعا كلابه، الضاري: المعتاد على الصيد.

[٤] محمية: محافظة.

[٥] الروق: القرن،المشاعب: النجار الذي يشعب القدح، القدح السهم قبل أن ينصل ويراش.

[٦] أقصده :رماه، القعر: الغور والعمق، نعّار:ذونعير وصوت.

[٧] النافذة :الطعنة الماضية، الباسل : الشجاع والأسد.

[٨] الإسوار: الرامي الحاذق.

[٩] اللبانة: الحاجة.

[١٠] الدري: اللامع المتلألئ، التقريب: ضرب من السير، وكذا الإحضار، الذبياني، النابغة، الديوان ، ص ٥٠ ، ٥١، ٥٢.

وقد قدم وصفاً لمظهر الثور (ذي جُدد " تعلو ظهره خطوط بيض وحمر " ، أبيض الظهر قوائمه سوداء ، اصطبغ قرنه باللون الأحمر جراء طعنه للكلاب ثم غلب عليه اللون الأبيض حين انقض على الكلاب كالكوكب الدري)

نلحظ وجود صراع بين الألوان ، فهناك نمط رباعي لوني يسيطر على لوحة الثور : أسود ، أحمر ، أبيض ، أخضر .

أسود	أحمر	أبيض	أخضر
القوائم والصدر ظلمة الليل	الخطوط الحمراء على ظهره الدم الذي اصطبغ به قرنه	ظهره عند تشبيهه بالكوكب الدري	شجر الأرطى

فاللوحة تحفل بألوان ساخنة : أسود ، أحمر

وألوان باردة : أبيض ، أخضر.

وهذا يوحي بقوة الصراع ، فاللون الأسود -كما يتضح في الجدول السابق – يضم عنصرين وكذلك اللون الأحمر ، يقابلهما اللون الأبيض بعنصرية والأخضر بعنصر واحد ، مما يوضح غلبة حدة الألوان الساخنة على الألوان الباردة ، مما أسفر عن صراع تعيشه الذات الإنسانية في العصر الجاهلي تجاوز حد التشكيلات اللونية إلى الأبعاد النفسية بكل ما تحويه من عمق وغموض ، إنه صراع شخصية تعيش حياة على غير هدى ، حياة لم تتضح فيها معالم الطريق بعد ، رأت في الحياة الدنيا غاية منتهاها ، فظلت تجاهد وتناضل لتحقيق أقصى ما تستطيعه من متعة ، لكنها مع ذلك ظلت تشهد تقابلا بين ثنائية الوجود / العدم

الأمن / الخوف

الحياة / الممات

لذلك نجد لوحة الثور تنتهي بانتصاره على الكلاب عند الشاعر الجاهلي ، على

خلاف شعر عصر الإسلام ، الذي تنتهي فيه هذه اللوحة بمقتل الثور كما عند أبي ذؤيب الهذلي ، حين يرسم لنا ثوراً قوياً ينتصر على كلاب الصيد ، إلا أن ذلك الانتصار لا يدوم ، حيث يسقط الثور بسهم من الصائد ، فيهوي صريعاً .

قال أبو ذؤيب الهذلي :

فَكَبَــا كَمَــا يَكبــو فِنيــقٌ تــارِزٌ بِالخَبَــتِ إلاّ أنَّــهُ هُــوَ أبــرَعُ[١]

وفي الصورة التي قدمها النابغة تقل الأضواء وتغلب القتامة التي ينشرها الليل والسحب الداكنة السوداء والريح العاصفة،فازدادت قيمة الضوء حسياً ونفسياً ، مما يوحي بصراخ متصل للتعبير عن الجوع الفظيع إلى الضوء والدفء ، فظهور الشمس عبر عن الإضاءة بكل درجاتها ، والجوع إلى الضوء وإلى جميع مايماثله من قيم خيّرة كان طاغياً على الشعر الجاهلي ، فتطلع الشاعر إلى عوالم جديدة خارج المحيط الإنساني ، امتدت تلك التطلعات إلى المحيط الحيواني متمثلاً في الثور ، لذلك نرى أن الثور في قصيدة النابغة وعند غيره من الشعراء يتم وصفه وصفاً دقيقاً ، يتراءى للقارئ من خلال :

ألوان ثابتة : تعلوه خطوط حمراء وبيضاء .

ظهره أبيض.

قوائمه سوداء.

وألوان عارضة : اصطباغ قرنه باللون الأحمر جراء طعنه للكلاب.

اللون الأبيض عند تشبيهه بالكوكب الدري .

تلك الألوان الثابتة تمثل تسجيلاً للحركة الدائمة للوجود ، والألوان العارضة تمثل

[١] –كبا: يعني الثور، سقط لوجهه، الفنيق: فحل الإبل، التارز: اليابس، الخبت: المطمئن من الأرض، ليس به رمل، أبرع: أكمل وأتم. الضبي ،المفضل، المفضليات، ص ٤٢٤.

عرضاً لتوازن مهدد وغير مستقر نتيجة لتفاعل قوى متصارعة على مستوى الذات الإنسانية داخلياً وخارجاً ، وعلى مستوى الجماعة الإنسانية في ذلك الوقت ، فهناك تحليل للسطح المتساوي للون إلى بقع وخطوط لونية على الثور (ذي جدد) مما يعبر عن الشعور بواقع مثير وديناميي ودائم التغير ، وهناك أيضاً سواد في قوائمه يوحي بالثقل والثبات الناتج عن ثقل الألوان في قوائم الثور أسفل اللوحة ، "ذلك لأن إحساسنا الغريزي يتطلب أن نرى ثقلاً راسخاً على الأرض وليس معلقاً في السماء "[١].

فثنائية التغير / الثبات يتنازعان في نفسيَّة الشاعر ، وهذا ما أفصح عنه البعد الرمزي للألوان الثابتة والعارضة .

كما تبرز أهمية الحركة اللونية التي يتمتع بها المكان في قصيدة النابغة ، فالمكان يبدو متحولاً باستمرار ، في الليل يعلو المشهد كثير من القتامة ، ويتفق ثور النابغة مع بقية الشعراء في هذا المشهد الليلي ، فبشر بن أبي خازم الأسدي يقول :

كَـــأخنَسَ ناشِـــطٍ باتَـــت عَلَيـــهِ بِحَربَـــةٍ لَيلَـــةٌ فيهـــا جَهـــامُ[٢]
فَبـــاتَ يَقـــولُ أصـــبِح لَيـــلُ حَتّـــى تَجَلّـــى عَـــن صَـــريمَتِهِ الظَـــلامُ[٣]

تلك القتامة زاد عليها غياب القمر الذي أخفته الغيوم ، كما أن نزول الأمطار زاد من حدة الموقف وصعوبته على الثور.

---

[١] رياض، عبد الفتاح، التكوين في الفن التشكيلي، ص ١١٦.

[٢] الأخنس: الثور، الناشط: الذي خرج من بلد إلى بلد آخر، حربة: موضع، جهام: سحاب قد هراق ماءه.

[٣] صريمته: رملته التي كان فيها،تجلى عن صريمته: تكشف الظلام، الأسدي، بشر بن أبي خازم، الديوان، ص ١٢٦ ، ١٢٧.

يقول النابغة :-

باتَــت لَــهُ لَيلَــةٌ شَــهباءُ تَســفَعُهُ بِحاصِـبٍ ذاتِ إِشـعانٍ وَأَمطـارِ[١]

ذلك الظلام الحالك وهيمنة اللون السود زاد من قلق الثور، فالمساحة القاتمة في اللوحة كانت واقعية ونفسيَّة ، فدفعه ذلك إلى البحث عن لون آخر يمنحه الدفء ويخرجه من حالة الخوف والقلق إلى الشعور بالتفاؤل ، فيلجأ إلى شجر الأرطى ، فتتحرك الخريطة اللونية من الأسود إلى الأخضر.

ليل ← شجر الأرطى.
أسود ← أخضر.

والتحليل النفسي الحديث للألوان يرى أن من يختار اللون الأخضر فإنه يحب لأرائه أن تسود ، وأن يعترف به كممثل لمبادئ أساسية ثابتة ، ويرغب في ترك أثر قوي على الغير ، و أن يجد طريقه إلى الصمود في وجه المعارضة[٢].

ذلك التحليل النفسي يتفق مع المعنى المعجمي للثور وهو السيد ، وكان الثور لقباً لعديد من الفرسان مثل عمرو بن معد يكرب [٣] .

والثور حين ينقض على الكلاب يصبح كالكوكب الدري المتلألئ .

---

[١] الذبياني، النابغة، الديوان ، ص ٥١.

[٢] عمر، أحمد مختار، اللغة واللون ، ص ١٩١.

[٣] ابن منظور ، لسان العرب، مادة ثور.

يقول النابغة :

اِنقَـضَّ كَالكَوكَـبِ الـدُرِّيِّ مُنصَـلِتاً يَهـوي وَيَخلِـطُ تَقريبـاً بِإحضـارِ[١]

الثور ينقض على الكلاب كالكوكب الدري ، لوحة مستوحاة من الضوء ، فيها توهج وسطوع وبريق والتماع ، وقد جاء ذكر الوضاءة والإشراق عند تصوير لحظة هجوم الثور على الكلاب في مسافات متنوعة عند عدد من الشعراء ، كوضاءة النجم عند الأعشى :

هجـــن بـــه فانصـــاع منصـــلتاً كـــالنجم يختـــار الكثيـــب أبـــل [٢]

شبه الأعشى الثور بالنجم في وضاءته وشدة انقضاضه ، حين ينقض يختار الكلب القريب منه ، فيطعنه بقرنه.

فقصة ثور الوحش ليست قصة ساذجة خاوية من أي مغزى ، وإنما تحمل ثقلاً وجدانياً عظيماً ، يتجلى فيها الصراع بين الليل / النهار ، الخير / الشر، النور / الظلام فظهر أثر ذلك في ثنائية الألوان القاتمة / المضيئة في المساحة اللونية التي شغلت تلك اللوحة لوحة الثور الوحشي في القصيدة الجاهلية.

[١]- الذبياني، النابغة ، الديوان ، ص ٥٢

[٢]- الإبل: الممتنع، الأعشى، ميمون بن قيس، الديوان ، ص١٧١.

المبحث الثالث

اللون ورؤية الإنسان

١- المرأة :

شبهت المرأة بالشمس في لونها فهي صفراء ، يقول النابغة الذبياني متغزّلاً :

صَفراءُ كَالسِيَراءِ أُكمِلَ خَلقُها كَالغُصنِ في غُلَوائِهِ المُتَأَوِّدِ[١]

يجعل النابغة المرأة مثل الشمس الصفراء ، التي تمنح الدفء والخصب ، لذلك فهي مفعمة بالحيوية (كالغصن) .

ومن اللون الأصفر إلى اللون الأبيض المرتبط بالشمس أيضاً ، يقول النابغة :

بَيضاءُ كَالشَمسِ وافَت يَومَ أسعَدِها لَم تُؤذِ أهلاً وَلَم تُفحِش عَلى جارِ[٢]

المرأة عند النابغة صفراء وبيضاء مثل أشعة الشمس التي يتغير لونها في أوقات النهار فهي عندما تكون بيضاء ؛ لا تؤذي بأشعَّتها الناظر إليها ، مثل هذه المرأة البيضاء التي لا تؤذي أهلها ولا تفحش على جيرانها .

وهي كذلك مصدر للضوء ، يقول امرؤ القيس :

تُضيءُ الظَلامَ بِالعِشاءِ كَأَنَّها مَنارَةُ مَمسى راهِبٍ مُتَبَتِّلِ[٣]

حيث تبعث المرأة اللون الأبيض ، ليقضي على اللون الأسود في الليل.

---

[١] السيراء: ثوب من الحرير صفراء اللون، ليِّنة البشر ة لطيفة .غلواء : ارتفاع الغصن ونماؤه . المتأود: المتثني، وذلك لطوله ونعمته .الذبياني، النابغة، الديوان ، ص ٣٩.

[٢] السابق ، ص٤٨.

[٣] تضيء: تنير .بالعشاء : في العشاء . كأنها منارة : كأنها سراج منارة . امرؤ القيس، الديوان،ص٢٩.

٢- أغربة العرب :

ارتبط اللون الأسود بدلالات رمزية مرتبطة بالشؤم والخطيئة والشر ، ففي الديانة اليهودية اقترن السواد باللعنة والعبودية منذ أن دعا نوح على ابنه حام (كنعان) : "ليكن كنعان ملعوناً ، وليكن عبد العبيد لإخوته "[١] .

"لذلك كان العبيد السود منبوذين في المجتمع الجاهلي ، بسبب لونهم الأسود ، فاللون الأسود كان يمارس سلطة التقسيم الطَّبقي ، فأفرز طبقة أغربة العرب "وهم مجموعة من أبناء الحبشيات السود ، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم ،مثل السليك بن السلكة وتأبّط شراً والشنفرى "[٢]

وبالنظر إلى شعر هؤلاء الأغربة ؛ نجد أنَّ اللون قد شكّل ، لديهم هاجساً مقلقاً ومؤلماً ، فقد اهتموا بالألوان اهتماماً شديداً ، وبخاصة اللونين أو الرمزين الأبيض والأسود ، ونحن لا ننسى هنا أن نذكر أن الاهتمام باللون يعتبر جزءاً من اهتمامهم بالتفاصيل ، حيث يشدّ هذا شعرهم إلى الواقعية أو الطبيعة في شعرهم "[٣].

يرمز اللون الأسود في شعر عنترة إلى القيم والفضائل ، يقول عنترة :

يَعيبونَ لَوني بِالسَوادِ جَهالَةً وَلَولا سَوادُ اللَيلِ ما طَلَعَ الفَجرُ
وَإِن كانَ لَوني أسوَداً فَخَصائِلي بَياضٌ وَمِن كَفَّيَّ يُستَنزَلُ القَطرُ[٤]

---

[١] كاظم، نادر ، تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيِّل العربي الوسيط ، ط١، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ٢٠٠٤)، ص١٤٦.

[٢] ضيف، شوقي ، الشعر الجاهلي، ط٨، (مصر: دار المعارف)ص ٣٧٥.

[٣] بدوي، عبده ، الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، (مصر : دار قباء ، ٢٠٠٠م)، ص ٣١٦ ، ٣١٧.

[٤] بن شداد، عنترة ، الديوان ، ص٨٩.

فاللون الأبيض في عالم الحس مقدمة لظهور النور ، والنور يرتبط بالسواد بداية ونهاية ، والنتيجة في ذلك أنَّ السواد الذي هو لون الشاعر يقود إلى فضائل بيض كما يقود السواد في الليل إلى نور الفجر[١].

إنَّ عنترة يحاول أن يستر اللون الأسود بالدلالات الإيجابية للون الأبيض " وما رغبة هؤلاء في التبرؤ من سوادهم والمفاخرة ببياض أخلاقهم إلا دليل على تحرُّجهم من ألوانهم ، وتمثلهم من ثم لدلالات هذه الألوان كما في هذه الثقافة ومتخيَّلها الاجتماعي "[٢]، فيوجِّه عنترة الاهتمام من المستوى الشكلي إلى المستوى المعنوي :-

تُعَيِّرُني العِدا بِسَوادِ جِلدي وَبيضُ خَصائِلي تَمحو السَوادا[٣]

فيتحوَّل اللون الأسود إلى لون أبيض يحمل دلالة إيجابية مقبولة على المستوى الإجتماعي ، في بيئة تُولي مكارم الأخلاق مكانة رفيعة ، فاستغلَّ عنترة اهتمام مجتمعه بفضائل الأخلاق كالشجاعة والبطولة ، فلوَّنها باللون الأبيض ، بحثاً عن دائرة تجمع بينه وبين فرسان القبيلة الأحرار ، ليكون جديراً بالاحترام والتقدير .

وتكشف الصورة اللونية عند عنترة عن إحساسه العميق بعقدة اللون ، فنراه يقول في مقدمة معلَّقته :

---

[١] عودة ، خليل ، المستوى الدلالي للون في شعر عنترة ، مجلَّة الدارة ، السنة الثانية والعشرون ، العدد الثاني ، ص٢٣١.

[٢] كاظم ، نادر ، التمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط ، ص٥٠٣.

[٣] بن شداد، عنترة ، الديوان ، ص٤٩.

هَـل غـادَرَ الشُـعَراءُ مِـن مُتَـرَدَّمِ أم هَـل عَرَفـتَ الـدارَ بَعـدَ تَـوَهُّمِ[١]
أعيـاك رسـم الـدار لـم يـتكلم حتـى تكلّـم كالأصـم الأعجـم[٢]
ولقـد حبسـت بهـا طـويلاً نـاقتي أشـكو إلـى سـفع رواكـد جـثم[٣]

جعل عنترة شكواه موجهة إلى الأثافي السود ، فاتّجه بعقله الباطن إلى ما يماثله في اللون ، ليشكو إليه همَّه ، فهو خير من يتفهّمه .

ومحبوبته عبلة تسير في ليل مظلم أسود :

إن كُنـتِ أزمَعـتِ الفِـراقَ فَإِنَّمـا زُمَّـت ركـابُكُمُ بِلَيـلٍ مُظلِـمِ[٤]
مـا راعَنـي إلا حَمولَـةُ أَهلِهـا وَسطَ الدِيارِ تَسَفُّ حَبَّ الخِمخِمِ
فيهـا اِثنَتـانِ وَأَربَعـونَ حَلوبَـةً سوداً كَخافِيَـةِ الغُـرابِ الأسحَمِ[٥]

صور عنترة فراق عبلة في سواد مكثّف ، الليل مظلم لا قمر فيه ، وركاب عبلة فيها نياق سود كخافية الغراب الأسحم ، ذلك لأن عبلة مصدر النور ، فعند رحيلها يحل اللون الأسود والظلمة المكثّفة عند عنترة ، يكشف عن ذلك عدَّة مفردات : ليل ، مظلم ، سوداً ، الغراب ، الأسحم ، فرمز اللون الأسود إلى الخراب والموت الذي حلَّ عند فراق المحبوبة .

---

[١] متردم : من ردمت الشيء إذا أصلحته وقوّيت ما وهى منه . التوهّم : الإنكار .
[٢] أعياك رسم الدار : خفى رسم الدار عليك لدروسه فلم تستبن به الدار إلا بعد إنكار وتثبُّت .
[٣] الرواكد : المقيم الساكنة . السفع : السود تضرب إلى الحمرة. الجثّم : اللائطة بالأرض الثابتة فيها. بن شداد، عنترة، الديوان ، ص ١٤٧ ، ١٤٨.
[٤] أزمعت : أجمعت وعزمت .
[٥] بن شداد، عنترة ، الديوان ، ص ١٥٤.

ويعقد عنترة بينه وبين الغراب الأسود تشابهاً فيقول :

لِمَـــن طَلَـــلٌ بِـــالرَقمَتَينِ شَـــجاني ... وَعاثَـت بِـهِ أيـدي البِلـى فَحَكـاني
وَقَفـتُ بِـهِ وَالشَـوقُ يَكتُـبُ أسـطُراً ... بِـأقلامِ دَمعـي فـي رُسـومِ جَنـاني[١]
أُســـائِلُهُ عَـــن عَبلَـــةٍ فَأَجـــابَني ... غُـرابٌ بِـهِ مـا بـي مِـنَ الهَيَمـانِ[٢]
يَنـوحُ عَلـى إلـفٍ لَـهُ، وَإذا شَـكا ... شَـــكا بِنَحيـــبٍ لا بِنُطـــقِ لِســـانِ
وَيَنـدُبُ مِـن فَـرطِ الجَـوى فَأَجَبتُـهُ ... بِحَســـرَةِ قَلـــبٍ دائِـــمِ الخَفَقـــانِ[٣]
ألا يا غُرابَ البَينِ لَو كُنتَ صاحِبي ... قَطَعنـــا بِـــلادَ اللَـــهِ بِالـــدَوَرانِ
عَسى أن نَرى مِن نَحوِ عَبلَةَ مُخبِراً ... بِأَيَّـــةِ أرضٍ أو بِـــأَيِّ مَكـــانِ[٤]

إن الغراب الأسود يغدو صاحباً لعنترة (ألا ياغراب البين لو كنت صاحبي) تلك الصحبة قائمة على اللون الأسود ، فيتوحَّد عنترة مع الغراب الأسود ، فيخاطبه بضمير الجمع :(قطعنا) (نرى) ، فيرمز اللون الأسود إلى الألم والفراق والشعور بالحسرة .

---

[١] جناني: قلبي.

[٢] الهيمان: الحب الشديد .

[٣] الجوى: شدة الوجد والاحتراق من عشق أو حزن .

[٤] ابن شداد، عنترة ، الديوان ، ص١٩٨.

٣-الشيب الأبيض :

يبرز اللون الأبيض – لون الشيب – إحساس الشاعر الجاهلي بالزمن ، وشعوره بوطأة العمر المفلت ، وتسرب الأمل بالحياة شيئاً فشيئاً .

فظهور اللون الأبيض في الرأس يعني فقدان الشباب بملذَّاته وقوته ، وبداية مرحلة العجز والضعف ، يقول عبيد بن الأبرص :

وَقَد عَلا لِمَّتي شَيبٌ فَوَدَّعَني ... مِنها الغَواني وَداعَ الصارِمِ القالي[١]
بانَ الشَبابُ فَآلى لا يُلِمُّ بِنا ... وَاِحتَلَّ بي مِن مُلِمِّ الشَيبِ مِحلالِ[٢]
وَالشَيبُ شَينٌ لِمَن يَحتَلُّ ساحَتَهُ ... لِلَّهِ دَرُّ سَوادِ اللِمَّةِ الخالي[٣]

يتحسر عبيد على أيام الشباب ويتالم لظهور الشيب الأبيض في رأسه ، فيغدو اللون الأبيض مصدراً ألمٍ لشاعر ، لأنه يترتب عليه غياب اللذة والقوة، ونهاية الحياة السعيدة ، و زوال رموز الخصب الباعثة للحياة والمتمثلة في الغواني ، وفي ذلك يقول الأعشى :

أثوى وَقَصَّرَ لَيلَةً لِيُزَوَّدا ... وَمضى وَأَخلَفَ مِن قُتَيلَةَ مَوعِدا
وَمَضى لِحاجَتِهِ وَأَصبَحَ حَبلُها ... خَلَقاً وَكانَ يَظُنُّ أن لَن يُنكَدا
وَأَرى الغَوانِيَ حينَ شِبتُ هَجَرنَني ... أن لا أكونَ لَهُنَّ مِثلِيَ أمرَدا

---

[١] اللمة: شعر الرأس . الغواني : جمع غانية ، الحسناء التي تستغني بجمالها وحسنها عن الزينة. الصارم : القاطع . القالي: المبغض .

[٢] بان: فارق . آلي : أقسم . الَمَّ به : زاره . احتلَّ : نزل . المحلال : الكثير .

[٣] الشين : البغيض . أرسي : نزل . لله در : تعجب . الخالي : الماضي . ابن الأبرص ، عبيد ، الديوان، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥.

إنَّ الغَــوانِيَ لا يُواصِــلنَ اِمــرَأً فَقَـدَ الشَـبابَ وَقَـد يَصِـلنَ الأمـرَدا
بَـل لَيـتَ شِـعري هَـل أعـودَنَّ ناشِـئاً مِثلــي زُمَــينَ أحُــلُّ بُرقَــةَ أنقَــدا
إذ لِمَّتَــي سَــوداءُ أتبَــعُ ظِلَّهــا دَدَنــاً قُعــودَ غَوايَــةٍ أجــري دَدا[١]
يَلــوينَني دَينــي النَهــارَ وَأجتَــزي دَينــي إذا وَقَــذَ النُعــاسُ الرُقَّــدا[٢]

يتـألم الأعشـى لفـراق الشـباب حـين كـان شـعره أسـود اللـون (إذ لمتـي سوداء) ويتمنى أن تعود تلك الأيام ، لأن الغواني قد هجرنه حين ظهر الشيب الأبيض في رأسه ، فيصبح اللون الأبيض في الشيب بمثابة المدمر للواقع السعيد .

يقول زهير :

صَحا القَلبُ عَن سَلمى وَأقصَرَ باطِلُه وَعُـرِّيَ أفـراسُ الصِـبا وَرَواحِلُـه[٣]
وَأقصَــرتُ عَمّــا تَعلَمــينَ وَسُــدِّدَت عَلَـيَّ سِوى قَصـدِ السَـبيلِ مَعادِلُـه[٤]
وَقَــالَ العَــذارى إنَّمــا أنــتَ عَمُّنــا وَكــانَ الشَـبابُ كَـالخَليطِ نُزايلُـه[٥]
فَأصــبَحنَ مــا يَعــرِفنَ إلاّ خَليقَتــي وَإلاّ سَوادَ الرَأسِ وَالشَيبُ شامِلُه[٦]

يصوِّر زهير معاناته لظهور اللون الأبيض في رأسه ، مما جعل العذارى

---

[١] الددن والدد بمعنى : اللهو واللعب .

[٢] وقد : غلب. الرقّدا : النوم. الأعشى، ميمون بن قيس، الديوان ، ص٧٧.

[٣] أقصر: كفّ. الباطل : اللهو.

[٤] أقصرت عما تعلمين: أي كففت عما عهدتني فيه من الباطل . المعادل : جمع معدل كل ما عدل فيه عن القصد.

[٥] إنما أنت عمُّنا: إشارة إلى أنه أصبح مسناً وكن يدعونه أخاً حين كان شاباً . الخليط : الصاحب المخالط. يزايله: نفارقه.

[٦] الخليقة: الطبيعة والشيمة . سواد الرأس والشيب شامله: أي عمه الشيب وخالطه . أبي سلمى ، زهير، الديوان طبعة دار الكتاب العربي ، ص ١٨٧ ، ١٨٨.

ينعتونه بالعمِّ ، فآلمه ذلك ألماً شديداً .

وبهذا يرمز اللون الأبيض لزوال متع الحياة والضعف والوهن واقتراب الموت، لذلك ظهر اللون الأبيض لون الشيب عند الشعراء الجاهليين في صورة " تنبئ بكرههم للكبر والشيخوخة كرهاً واضحاً ، ظهر فيه ومحاولتهم إبعاد هواجس الشيخوخة عن أفكارهم . . . وذلك كله نتج لديهم عن تجارب ذاتية ومن معاناة شعورية ، كانوا يصدرون فيها عن رؤيتهم الشخصية الخاصة بتلك المرحلة "[١] .

فكان اللون الأبيض يمثّل غياب المجد والقوة ، مما يبرز صراع الزمان مع الإنسان ، هذا الصراع ينتهي باستسلام الإنسان حين تعلوه الراية البيضاء فوق رأسه ، ويبدأ العجز والوهن يدب في جسمه .

[١] الزيتوني، عبد الغني أحمد، الإنسان في الشعر الجاهلي ،ط١، (الإمارات : مركز زايد للتراث ،٢٠٠١م)، ص٤٤٣.

الفصل الرابع

مستوى التشكيل الإيقاعي

المبحث الأول: الموسيقى الخارجية.

المبحث الثاني: الموسيقى الداخلية.

المبحث الأول

الموسيقى الخارجية

تعد الموسيقى الشعرية ركناً أساساً في الشعر العربي، من حيث أنها تشدُّ انتباه السامع وتجذبه، كما أنها تلعب دوراً في التعبير عن دلالة النص الشعري.

إن الشاعر حين يجذب انتباه السامع من خلال موسيقى الشعر؛ يصيح قادراً على التأثير فيه، "ذلك أن الإنسان عندما يرغب في تحويل الكلمات إلى أشياء محسوسة وفاعلة؛ يلحُّ على مظاهر الكلمة التي تمنحها كثافة وقوة، بما يحيل على أن الأصل في الكلام الشعري أنه أداة من أدوات العزم البشري والرغبة البشرية"[١].

وقد التزم الشاعر الجاهلي بأوزان ثابتة، فكان الإطار الموسيقي معياراً يطرح من خلاله تجربته الشعرية،" فيؤلف بيت الشعر من العصر الجاهلي، سواء من الوجهة الإيقاعية، أو من وجهة المعنى كلاً واحداً، يسجل الفنان ضمن هذا الإطار الصلب الضيق فكراً ينزع دوماً إلى حد أعلى من الكثافة"[٢]،وذلك لأن الشاعر ملزم بإطار موسيقي معين، فهو يحاول أن يعبر تجربته تعبيراً مكثفاً بوزن محدد، وقافية معينة.

ورأت طائفة من النقاد المعاصرين أن فكرة التجاذب بين الوزن الشعري والموضوعات الشعرية، كاختصاص البحور الطويلة بالأغراض الجادة، والبحور القصيرة بموضوعات الهزل والرشاقة؛ فكرة غير صحيحة، فكل بحر عروضي قابل لاستيعاب جميع الأغراض، فهو بمثابة القالب الذي تصاغ فيه التجربة الشعرية، فيصطبغ بصبغتها[٣].

---

[١]– المناعي، مبروك، الشعر والسحر،ط١، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٤) ،ص٤ ٥.

[٢] – بلاشير،ت إبراهيم الكيلاني، تاريخ الأدب العربي، (دمشق :دار الفكر ، ١٩٩٨) ، ص ٤٠٧ .

[٣] – انظر عبد الرحمن، إبراهيم، الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية،(مصر: الشركة المصرية الغربية للنشر_لونجمان)، ص٢٢٧_٢٣١، وأيضاً إسماعيل، عز الدين، د.ت التفسير النفسي للأدب، ط٤، (القاهرة: دار غريب)ص ٧٠_٧٤ .

وحين نتتبع النماذج الشعرية في الرسالة نجد أن معظمها نظم على البحر الطويل، فنماذج الطويل تقترب من الخمسين، وجاء الوافر خمساً وعشرين مرة، والبسط سبعة عشر نموذجاً، ونظم على البحر الكامل اثنا عشر نصاً، ونظم على البحر المتقارب خمسة نصوص، ومثله البحر الخفيف، والرجز نظم عليه ثلاثة نصوص، أما البحر السريع والمنسرح فيأتيان في المرتبة الأخيرة، إذ وجدنا نصين على السريع ونصين على المنسرح.

وتعد القافية عنصراً أساسياً في القصيدة الجاهلية، وتبرز وظيفتها العروضية في "كونها تنبئ بنهاية البيت الشعري، وتنظم أنساق المقطوعات الشعرية، وأهم من هذا كله أن للقافية معنى، وهي بالتالي عنصراً أساسياً في قوام العمل الشعري"[١].

والوقفة التي يقفها الشاعر آخر البيت تعدُّ فرصة للتعبير عن دفعة شعورية، فيصبح للحركة معنى، وللسكون معنى.

وبين أيدينا قصيدة لبشر بن أبي خازم يتحدث فيها عن تجربته من اللون الأبيض متمثلاً في الشيب، يقول بشر:

أجَدَّ[٢] من آل فاطـــمة اجتناباً وأقصر[٣] بعد ما شابت وشابا
وشاب لِدَاتُهُ[٤] وعدلن[٥] عنـه كما أبليـــت من لبس ثيـــابا

[١] – ويلك، رنيه، وآخرون،ت. عادل سلامة، نظرية الأدب، (الرياض: دار المريخ، ١٩٩٢)٢١٦ .
[٢] – أجدّ: بمعنى جدّد، أي أحدث معهم اجتناباً جديداً.
[٣] – بمعنى كفّ وامتنع، وهنا عن الغزل والصّبا.
[٤] – اللّدات: جمع لِدة، وهو التّرب والصّديق من سنّ واحدة.
[٥] – عدلن : عدل بمعنى مال.

فإن تك نبلها طاشـــــت ونبلي فقد نرمي بها حقباً صيابـا[١]
فتصـطاد الرجـــال إذا رمتهم واصطاد المخبَّأة الكَعَابَـا[٢]

يتحدث بشر عن علاقته المتوترة بمحبوبته فاطمة، والتي أهملته بعد أن علا مفرقه الشيب الأبيض.

جاء الروي على حرف الباء، وحرف الباء حرف مجهور، وهو أيضاً الحرف الثالث من كلمة(شيب)، فأصبحت القصيدة كلها صدى لتجربة بشر تجاه الشيب الأبيض، وقد ربط الروي القصيدة بعلاقات صوتية متشابكة على نحو عمودي.

شا(بـا)
ثيا(بـا)
صيا(بـا)
الكعا(بـا)

فبشر يريد أن يجهر بألمه النفسي وحزنه الدفين الذي سببه له اللون الأبيض، كما أن القافية المطلقة تناسب الجو النفسي الكئيب، حيث تمنح الصوت امتداداً للتنفيس عن التجربة الحزينة، فيتكرر الصوت المطلق عند نهاية كل بيت، ليعكس آهات الشاعر المتصاعدة.

---

[١] – الحقب: جمع حقبة وهي الفترة من الزمن.صائب : جمع صائب وهو سهم المصيب.

[٢] – المخبأة الكعاب: الفتاة في خدرها وقد كعب ثديها أي نهد. الأسدي، بشر بن خازم، الديوان، ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي،١٩٩٤)ص٣٨ .

ويتجاوب حشو البيت مع القافية اللونية على نحو أفقي

..... وأقصر بعدما (شابت)و(شابا)

و(شاب) لداته وعدلن عنه .....

تجاوب صوتي بين القافية (اللون) وحشو البيت.

ونلحظ تماثلاً في الوزن الصرفي

شاب(ت) فعل(ت)

شابا فعل

شاب فعل

فضلاً من التماثل في البنية الصوتية (ش،ا،ب).

والقصيدة من بحر الوافر، وهو بحر مركب يتألف من تفعلتين (مفاعلتن، فعولن)، وهذا البحر المركب قالب مناسب للتعبير عن تجربة بشر، حيث أن اللون الأبيض- لون الشيب- جعل علاقة بشر بمحبوبته علاقة معقدة، وتصوير هذه العلاقة شعورياً يستلزم إيقاعاً مركباً يتسع لهذه التجربة الشعرية التي يحكمها اللون الأبيض، فهو إذن تعقيد يمس الشكل الموسيقي كما يمس المضمون.

يقول امرؤ القيس بن ربيعة الملقب بالمهلهل في تجربته مع الليل الأسود:

أليلــتنا بذي حسم أنيري إذا أنت انقضيت فلا تحوري

فإن يك بالذئاب طال ليلي فقد أبكي من الليــل القصير

وأنقذني بيـاض الصـبـح منها لقد أنقذت من شر كبيـــــر

كأن كواكب الجوزاء عود معطفه على ربع كسيـــــر
كأن الجدي في مثـناة ربق أسير أو بمنزلة الأسيـــــر
كأن النجم إذ ولى سحيراً فصال خلن في يوم مطيـــر
كواكبها زواحف لا غابت كأن سماءها بيدي مديـــــر
كواكب ليلة طالت وغمت فهذا الصبح واغمة فغوري[١]

يتحدث المهلهل عن ليلة ثقيلة على النفس، عبّر فيها عن تجربته بقافية مطلقة، رويّها متحرك بالكسر، وهذا يعكس انكسار نفس المهلهل لسلطة الليل الأسود عليه وثقله على نفسه.

وقد وردت صيغة فعيل في القافية خمس مرات(قصير، كبير، كسير، أسير، مطير)، وحرف المد يوحي بانطلاق النفس سابحاً في الهواء، فهو يطلق الكلمة ويحررها من الانحباس في جوفه كي لا تحرقه ويحرقها، كما أن الياء توحي بامتداد الزمن الليلي، مما يشكل فضاءً لونياً مطلقاً، فعمل وزن فعيل على رفع طاقة القصيدة الإيقاعية، وحركها تحريكاً دائم التناغم.

والتجربة الشعرية مع الليل الأسود تجربة ثقيلة على النفس، لذلك استلزمت إيقاعاً مركباً يتسع للتعبير والتنفيس عن الذات الحائزة إزاء هذا اللون، وبحر الوافر بتفعيلتيه (مفاعلتن، فعولن)يتسع للتعبير عن هذه التجربة، فيصبح التشكيل الإيقاعي الصوتي في القصيدة انعكاساً للإيقاع النفسي الناشئ عن الثقل الذي حمله اللون الأسود.

والليل الأسود يثير الخنساء همومها، فتوظفه في إيقاع حزين، فتقول:

[١] – القالي، أبو علي، الأمالي، (مصر: مطبعة الأميرية).

يا عين جودي بدمعٍ منك مغزار وابكي لصخر بدمع منك مدرار
إني أرقت فبت الليل ساهرة كأنما كحلت عيني بعوار
أرعى النجوم وما كلفت رعيتها وتارة أتغشى فضل أطماري
وقد سمعت ولم أبجح بها خبراً محدثاً جاء ينمي رجع أخباري
يقول صخر مقيم ثم في حدث لدى الضريح صريع بين أحجار
فاذهب فلا يبعدك الله من رجل دراك ضيم وكلاب بأوتار
قد كنت تحمل قلباً غير مهتضم مركباً في نصاب غير خوار
مثل السنان تضيء الليل صورته مر المرارة حرٌّ وابن أحرار
وسوف أبكيك ما ناحت مطوقة وما أضاءت نجوم الليل للساري [١]

في القافية حركة انكسارية متكررة، تشير إلى أن كل شيء في الحياة لابد أن يصل إلى السقوط والنهاية، وهذا ما تقابله تجربة الخنساء مع أخيها صخر، وهي تجربة متصلة بحياة الخنساء، عمل اللون الأسود على إثارتها وتحريكها، مما جعلها تبكي بكاءً متصلاً في الليل، وتكرر الحركة الانكسارية عند كل روي، وها ما يثبت أن التشكيل الإيقاعي في هذا النص هو تشكيل نفسي قبل أن يكون تشكيلاً صوتياً.

ويتقابل اللون الأسود مع اللون الأصفر عند حاتم الطائي حيث يقول:

أشاور نفس الجود حتى تُطيعني وأترك نفس البخل ما أستشيرها
وليس على ناري حجاب يَكُنُّها[٢] لِمُسْتَوْبِصٍ ليلاً، ولكن أُنِيرُها[٣]

هذه الأبيات على وزن بحر الطويل، والذي يتألف من تفعيلتين (فعولن، مفاعيلن)

[١] – الخنساء، الديوان، ص ١٦٥_١٦٧ .
[٢] – يكنّها: يسترها.
[٣] – المستوبص: المستضيء بالنار ليلاً. الطائي، حاتم، الديوان، ط٣، ص ٨٩ .

هذه الازدواجية في تفعيلة البحر تعكس ازدواجية اللونين الأسود والأصفر في النص، فاللون الأسود يمثل ظلمة الليل، واللون الأصفر لون نار القرى، فعبّر حاتم عن قيمة الكرم من خلال هذين اللونين في إيقاع يتألف من تفعيلتين، فعمل بذلك عمل الفنان، حيث أنه في فن الرسم" يعمل الفنان على تنويع وضع العنصر الزخرفي، مرة بلوه فاتح، وأخرى بلون قاتم، مع تكرار هذه العناصر فينشأ عن هذا التكرار شكل متماثل إيقاعي"[١].

وهذا ما فعله حاتم حيث أنه أتى بلون فاتح(أصفر) وآخر قاتم (أسود)، عبر إيقاع مزدوج التفعيلة، فينشأ عن تكرار التفعيلة وتنويعها تماثل إيقاعي.

لقد رأى الإنسان مظهرين اثنين للواقع، يبدو الواقع أحياناً متصلاً، ويبدو منقطعاً أيضاً، فالاتصال والانفصال يتجاوران، وعلى هذا حاول الإنسان أن يوجد صيغة تؤلف بين هذه الجوانب المتضادة، فالإنسان يسكن متى أراد، وينقطع عن الترحال والحركة، ويتحرك متى أراد[٢].

وفي الأبيات التي بين أيدينا نجد اللون الأسود عند حلول الليل يعطي طابع الشعور بالسكون والتوقف، واللون الأصفر الناري يعطي طابع الحركة، وبحر الطويل بتفعيلاته (فعولن،مفاعيلن)قد استوعب الجوانب المتقابلة (ظلمة الليل الأسود وضوء النار الأصفر) من خلال إيقاع يتضمن الحركة والسكون.

وتبرز ثنائية التقابل بين الأسود والأصفر في التقطيع الصوتي

[١] – رياض، عبد الفتاح، التكوين في الفن التشكيلي، ،ص ١٠٦ .

[٢] – ناصف ،مصطفى، خصام مع النقاد،(جدة: النادي الأدبي، ١٩٩١)ص٢٦١_٢٦٢،بتصرف.

ناري ن ا ر ي
ل ي ل ن
ليلاً حركة سكون حركة سكون

فالتوازن قائم على مستوى الإيقاع الصوتي، حيث تساوت الحركات مع السكنات، لكن حاتماً يريد أن يكسر هذا التوازن ويجعل الغلبة للون الأصفر الناري، فيأتي في آخر الأبيات بالدال اللوني(أنيرها) ويجعل الإيقاع الصوتي أكثر حركة.

أ نـ يـ ر هـ ا

حركة حركة سكون حركة حركة سكون

أربع حركات في مقابل حرفين ساكنين، الأمر الذي يجعل اللون الأصفر أكثر حركة في النص، ليطرح دلالة الكرم في مقابل دلالة البخل والشح.

وقد جاءت القافية مطلقة منتهية بحرف مد، وحرف المد يمثل امتداداً للصوت، فحاتم يريد أن يمتد صوته إلى أبعد مدى، ليعبّر عن فلسفته في التعامل مع المال، فالقافية ليست صوتاً فقط، وإنما هي دلالة أيضاً، " فالشعر كبناء متكامل ومنسجم؛ لا ينفصل فيه ما هو صوتي عما هو دلالي، كما لا ينتفي من عالمه ما هو داخلي وما هو خارجي"[١].

فتعدُّ القافية جزءاً من بناء متكامل، تسهم في التعبير عن دلالة النص من خلال الجانب الصوتي.

[١] – القرشي، سليمان، الإيقاع في التجربة الأندلسية، **مجلة جذور**، العدد(١٣)،١٤٢٤هـ،٥٠١_٥٠٢ .

المبحث الثاني

الموسيقى الداخلية

إن الموسيقى في الشعر ليست أوزاناً وقوافي فحسب؛ بل تلعب الموسيقى الداخلية دورها في توليد الإيقاع الصوتي داخل القصيدة، ولعل الموسيقى الداخلية هي التي تميز بين الشعر والنظم، وهي أيضاً التي تسمح بالحديث عن إبداعية النص أو لا إبداعيته من الناحية الموسيقية، ففي الأعمال الإبداعية ينتفي كل فرق في معيارية الموسيقى بين ما هو داخلي أو ما هو خارجي، بل تعتبر كل الإيقاعات في النص الشعري داخلية، فهي ليست جزءاً مفروضاً يأتي من الخارج، وجزءاً آخر تلقائياً من الداخل بل هي كل مالا يقبل التفتيت التجزيء[١].

وتتجلى مظاهر *الموسيقى الداخلية* فيما يلي:

١. التكرار:

قد يجيء التكرار في الحروف، فيتكرر حرف من حروف كلمة تمثل دالاً لونياً، كقول زهير:

تعفى[٢] الكُلُومُ[٣] بالمئين فأصبحت ينجمها[٤] من ليس فيها بمجرم[٥]

يمدح زهير هرم بن سنان، والحارث بن عوف، لأنهما بفعلهما قد حقنا دماء القبيلة، وقد جاء اللون الأحمر في كلمة (كلوم)وهي الجراح، فتكرر حرف الميم في البيت ست مرات، مما أعطى اللون الأحمر نسبة مهمة في

---

[١] – القرشي، سليمان، الإيقاع في التجربة الأندلسية، **مجلة جذور**،٥٠٣_٥٠٤ .

[٢] –التعفية: التمحية من قولهم: عفا الشيء يعفو إذا انمحى ودرس، وعفاه غيره يعفيه أيضاً عفواً.

[٣] _ الكلوم والكلام جمع كلم. وهو الجرح، وقد يكون مصدراً كالجراح.

[٤] _ أي يعطيها نجوماً.

[٥] _ الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص ٧٤ .

الخارطة الصوتية للبيت.

وقد دعا زهير في معلقته إلى نبذ الفرقة، والكف عن إراقة الدماء، لهذا كان للون الأحمر حضور قوي في القصيدة، تجلّى في تكرار حرف الميم في البيت، فكأن البيت صدى للدال اللوني(كلوم)، " فكلما تشابهت البنية اللغوية، فإنها تمثل بنية نفسية متشابهة منسجمة، نهدف إلى تبليغ الرسالة، عن طريق التكرار والإعادة[١].

وقد يتجاوز التكرار الحرف إلى الكلمة المعبرة عن اللون كقول النابغة في وصف يوم شديد:

تبدو كواكبه والشمس طالعة لا النور نورٌ ولا الإظلام إظلام[٢]

تكرر النور والظلام في البيت، مما جعل البيت يتمركز حولهما، هذا التكرار يوحي بتوتر، ويجعل المتلقي يعيش في دوامة، ذات حركة سريعة ناتجة عن الإيقاع السريع.

ويشمل التكرار أيضاً تكرار الصيغة، كتكرار صيغة أفعل في قول طرفة:

أما الملوك، فأنت اليوم، ألأمُهُمْ[٣] لؤماً[٤] وأبيضهم سِربَالَ[٥] طبَّاخ[٦]

---

[١] – محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري،ط٤، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥)ص٣٩.

[٢] – الذبياني، النابغة، الديوان، ص ١٠٥.

[٣] – أشدهم، من الَّامْ: وهو الشديد من كل شيء.

[٤] – اللؤم: الخسة في الأصل والفعال، والشح.

[٥] – السربال: القميص.

[٦] – ابن العبد، طرفة، الديوان، ص ٨٦ .

تكررت صيغة افعل في (ألأمهم، وأبيضهم)، وقد ربط طرفة بين كلمة (ألأمُهم) وبين الدال اللوني (أبيضهم)بحرف الواو فجعل البيت يطرح بنيتين:

بنية سطحية أنت اليوم ألأمهم
وأبيضهم

بنية عميقة أنت اليوم ألأمهم
أنت اليوم أبيضهم

معنى ذلك أن طرفة يصبغ على اللون الأبيض صبغة نفسية تتصل بالصفات القبيحة المستهجنة التي تدل على البخل، فقميص الطباخ عادة ابيض اللون، لكنه لا يبقى ناصعاً إذا مارس الطباخ مهنته في النحر والطبخ، أما إذا يقي أبيضاً فإن في ذلك دلالة على البخل.

كذلك نلحظ في البيت السابق تكرار الهمزة ست مرات، وهي حرف انفجاري[١]، تصدرت البيت، وهي أيضاً تتصور الاسمين الأم، وأبيض، والشدة التي تتميز بها الهمزة تناسب الهجاء، وتكرارها على هذا النحو ولّد إيقاعاً قوياً.

٢. الجناس:

هو تشابه لفظين في النطق، واختلافهما في المعنى[٢] ،وهو نوعان:

❖ جناس تام:

وهو ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أربعة أشياء: نوع الحروف، وعددها،

[١] – الخولي، محمد علي، الأصوات اللغوية،(عمان: دار الفلاح، ١٩٩٠)ص٩١.

[٢] – أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، (بيروت: إحياء التراث العربي) ٣٩٦.

وهيئاتها الحاصلة من الحركات والسكنات، وترتيبها، مع اختلاف المعنى[١].

كقول طرفة:

وأنا امرؤ أكوي[٢] من القصر[٣] الـ ـبادي[٤] وأغشى[٥] الدهم[٦] بالدهم[٧][٨]

جاء الجناس بين(الدُّهم) و (الدُّهم) إذ تعني الأولى الجماعة الكثيرة، وتعني الثانية الخيل الأسود.

هناك تماثل في الإيقاع الصوتي:

الدهم	الدهم
/O/O/	/O/O/

وقد جعل طرفة اللون الأسود مقابلاً لنفسه في الخارطة اللونية للبيت، فالجماعة الكثيرة(الدهم) يغشاها طرفة بالخيل (الدهم).

كما أن التضعيف في حرف الدال يوحي بالشدة والقوة التي أراد أن ينسبها طرفة لنفسه، وهذا جعل للون الأسود حضور قوي وفاعل في البيت على المستوى

---

[١] – أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة،ص ٣٩٦.

[٢] – أكوي: من الكي وهو إحراق الجلد بحديدة محمّاة، علاجاً لبعض الأمراض.

[٣] – القصر: داء يأخذ البعير في عنقه فيلتوي فيُكتوى في مفاصل عنقه، فربما برأ؛ أكوي من القصر: أعالج من داء القصر، وعلاجه الذي يلمح إليه هو قطع العنق.

[٤] – البادي: الظاهر.

[٥] – أغشى: آتي.

[٦] – الدَّهم: جمع الأدهم، وهو الفرس الأسود.

[٧] – الدُّهم: الفوارس تعلو الخيول السوداء.

[٨] – ابن العبد،طرفة، الديوان، ص ٢١٨ .

الإيقاعي والدلالي.

❖ والنوع الثاني من الجناس؛ **الجناس غير التام:**

وهو ن اختلف فيه اللفظان في واحدٍ أو أكثر من الأربعة السابقة (نوع الحروف، عددها، هيئاتها من الحركات والسكنات، ترتيبها) مع اختلاف المعنى[١].

مثال ذلك قول عنترة:

فدون بيتك أسدٌ في أناملها بِيْض تقدُّ لأعالي البَيْض والجحف[٢]

بين (بِيْض) و (بَيْض) جناس ناقص، فالأولى معناها السيوف، والثانية تعني الخوذة التي توضع على الرأس، وقد شحن الجناس البيت بطاقة موسيقية ودلالية.

٣. الترصيع:

هو جعل حشو البيت مسجوعاً أو كالمسجوع[٣].

ومن أمثلة الترصيع في الألوان قول امرؤ القيس:

وبيض منعت، وبيض سلبت وبيض كنفت، وبيض كفيت[٤]

هناك تماثل في الوزن في كلمة(بيض) التي تكررت أربع مرات، وأيضاً بين

[١] – الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة،٣٩٨.

[٢] – عنترة، الديوان، ١٠٣.

[٣] – العسكري، أبو هلال، الصناعتين، تحقيق محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم،٣٩٠.

[٤] – امرؤ القيس، الديوان،٣٣٤.

منعت

سلبت

كنفت

كفيت

كما أن تركيب الجمل في البيت ينكون من معادلة واحدة:

بيض منعت بيض+ منع + ت
اسم + فعل +ضمير

بيض سلبت بيض + سلب + ت
اسم + فعل+ ضمير

بيض كنفت بيض +كنف+ ت
اسم + فعل + ضمير

بيض كفيت بيض + كفي + ت
اسم + فعل + ضمير

وربط امرؤ القيس بين تلك الجمل بحرف العطف الواو، مما ولّد امتداداً للإيقاع اللوني، وجعل السامع في حالة ترقب للفعل الواقع بعد الدال اللوني(بيض)، فمرة يأتي الفعل (منعت)، ومرة(سلبت)ومرة(كنفت)ومرة(كفيت)، مما خلق جواً من التجاذب بين أجزاء البيت وفقراته، الشيء الذي يحيل البيت الشعري إلى وحدات موسيقية متماثلة ومتوازنة، تُغني التجربة الشعرية، وتكثف طاقتها الإبداعية.

نستطيع أن نلخص في نهاية الفصل إلى أن الشاعر الجاهلي خطا خطوات واسعة بموسيقى الشعر، مستثمراً الطاقات اللونية، في جو موسيقى يعكس الحالة النفسية الشعورية، فتتجسد الصورة اللونية حيّة، تمثل جمال الجرس الموسيقي في البيت الشعري.

خاتمة

حفل الشعر الجاهلي بكثير من الألوان ، تشكلت على عدة مستويات تشكلت يبرز أبعاداً عميقة غاية في العمق ، يتجاوز مجرد التشكيلات الحية ، مما يجعلها تحتفل بالعديد من الدلالات ذات الصلة بعالم الشاعر النفسي والاجتماعي .

نتائج البحث :

١- يتشكل اللون في القصيدة الجاهلية على عدة مستويات : تجريدي ، وصوري ، ورمزي ، وإيقاعي .

٢- في التشكيل اللوني المركزي يحتل اللون مجمل الإدراك الحسي عن الشاعر ، فيمثل اللون مركزاً تشع منه الدلالة وأصل النص الأدبي.

٣- يتشكل اللون عبر صورة جزئية وصورة كلية .

٤- تتغير دلالة اللون في صورة إلى أخرى تبعاً لموقعه في السياق .

٥- يستدعي اللون صورة مختزنة في الذاكرة من الماضي.

٦- تعمل الصورة الحسية اللونية على استثارة حواس المتلقي من خلال الصورة البصرية أو السمعية أو الشمية أو الذوقية أو اللمسية .

٧- اتخذ اللون طابعاً أسطورياً جاء على شكل صورة مكررة عن شعراء العصر الجاهلي ، وقد ضاع أصل الأسطورة ، وبقيت الصورة اللونية على أنها قالب ثابت في الشعر العربي.

٨- يكشف التقابل بين الألوان عن الثنائيات المتضادة التي تعيشها الذات الشاعرة ، مثل التقابل بين الأمن / الخوف ، وبين الوجود / العدم وبين الحق / الباطل ، وبين الخير/ الشر .

التوصيات:

١- دراسة المستوى الدلالي اللون ضمن إطار الدلالة الاجتماعية .

٢- دراسة اللون حسب بيئات الشعر الجاهلي ، فشعر البيئة الجدلية يختلف عن شعر البيئة السهلية وعن شعر البيئة الساحلية ، وشعر الحاضرة يختلف عن شعر البادية .

ملخص البحث

تمثل التشكيلات اللونية مكونا من مكونات التجربة الفنية في الشعر الجاهلي، هذه التشكيلات برزت على عدة مستويات:

الفصل الأول: مستوى التشكيل التجريدي.

المبحث الأول :التجريدية والتشكيل الوني الجزئي.

تتشكل الألوان في النص الشعري مجردة عن الصورة تشكيلا جزئيا، من خلال علاقة تقيمها اللونية فيما بينها، فقد تكون العلاقة علاقة حيادية، تقوم على علاقة خاصة يقيمها الشاعر بين الدوال اللونية، فتسهم الدوال اللونية في التعبير عن التجربة الشعورية.

وقد تشكل الدوال اللونية فيما بينها علاقة قائمة على الترادف ، حين تنتمي إلى مجموعة لونية واحدة (الألوان الساخنة : الأحمر ، الأسود ، الأصفر) أو (الألوان الباردة : الأخضر ، الأبيض ، الأزرق) ، وقد تبرز تلك العلاقة من خلال التباين بين الأبيض / الأسود ، الضوء/ الظلام ، والدال (الجون) الذي يدل على اللونين الأبيض والأسود .

المبحث الثاني: التجريدية والتشكيل اللوني المركزي

وقد يؤسس الدال اللوني علاقات بشكل مباشر أو غير مباشر مع بقية الدوال من خلال مجموعة من القنوات ، حتى إنَّ تفسير هذا الدال اللوني يتطلب تفسير النص بأكمله ، ومن ثمَّ يكون الدال اللوني هو النواة المركزية التي تشع منها دلالة النص .

الفصل الثاني : مستوى التشكيل الصوري .

المبحث الأول :الصورة اللونية الجزئية .

يتشكَّل اللون عبر الصورة التركيبية التي تجسد العالم الشعري ، من خلال المكونات اللونية بصورة تشبيهية أو استعارية أو كنائية .

المبحث الثاني :المشاهد اللونية الكلية

يتشكَّل النص الشعري من مجموع الصور الجزئية التي تتضافر مع بعضها من أجل تشكيل المشهد اللوني الكلي .

المبحث الثالث : مقومات الصورة اللونية:

سياق الصورة اللونية يقوم على مقومات هي :

١- الذاكرة :

يستدعي اللون صورة مختزنة في الذاكرة في الماضي ، فيقيم الشاعر علاقة بين صورتين ، إحداهما : حاضرة ماثلة أمامه ، والأخرى : كانت غائبة في ذاكرته لكن يفعل اللون أصبحت حاضره في الذاكرة ، فيعمل اللون عمل المثير والمنشط لذاكرة الشاعر.

٢- الحواس :

للصورة الحسية اللونية القدرة على استشارة الحواس وتنبيهها ، فهي تولد كاقة تعمل على تنبيه حواس المتلقي فيستشرك مع الشاعر في خوض التجربة الشعورية .

وتنقسم الصورة الحسية اللونية إلى :

- صورة سمعية .
- صورة شمية .
- صورة ذوقية .

٣- الخيال :

تمتزج العناصر الواقعية على نحو خاص بعناصر أخرى ، بصورة تبرز اللون عنصراً بارزاً في الصورة يبصرها المتلقي بعين الخيال ، ذلك لأنه لا وجودها في الواقع العياني.

الفصل الثالث : مستوى التشكيل الرمزي .

ارتبط التشكيل اللوني في الشعر الجاهلي بإشارات واقعية تحولت إلى رموز لونية ، تتشكل عبر الوعي الجمالي للشاعر برؤية الطبيعة والحيوان والإنسان .

المبحث الأول : اللون رؤية الطبيعة :

اكتسب اللون الأصفر من الشمس قداسة استمدها من الشمس الآلل ، فقد كانت الشمس من أبرز المعبودات في الجزيرة العربية ، فقد عبدتها قبائل عديدة ، وشخصوها بصم وجعلوا لها هيكلاً.

كذلك اللون الأبيض لون القمر ، فقد عد القمراً بالثالوث السماوي : القمر ، والشمس ، والزهرة .

واتخذ اللون الأسود في الليل دلالة سلبية ، فقد كانت رمزاً للصائب والآلام

ومسرحاً للخيالات والأشباح والجن

ويحمل اللون الأبيض في البرق دلالة رمزية دينية ، ترتبط بالشاعر صانع المطر ، ودلالة أخرى سلبية ترمز للكذب ، حين يلمع البرق في السماء دون ان يعقبه المطر .

ويرمز اللون الأخضر في النبات عامة إلى الخصوبة والنماء والحياة ، إضافة إلى تحملها ألوان أخرى من النباتات واختلفت دلالة الأصفر الناري بحسب نوع النار ، ففي نار القرى يرمز اللون الأصفر إلى الحياة يدل الضيف على صاحبها ، فيطعمه ويسقيه ، أما نار الحرب ، فهي ترمز إلى الخطر والشر.

المبحث الثاني : اللون ورؤية الحيوان :

حملت الإبل دلالة مزدوجة ، فهي رمز للخط والموت حين تكون حمراء ، وهي أيضاً رمز للحياة حيث تكون بيضاء اللون .

واتفقت جميع الألوان في الخيل على رمز الخير والخصب ، وفي قصة بقر الوحش (المهاة) غلبت الألوان الساخنة على الخريطة اللونية ، وذلك لتصوير فاجعتها في ابنها الجوذر حين رأته مقتولاً ، ثم لتصور الصراع الذي قام بينها وبين كلاب الصيد ، والذي انتهت بانتصارها على كلاب الصيد ، وفي لوحة ثور الوحش تعددت الألوان ، حيث اللون الأبيض والأسود والأخضر والأحمر ، لترمز في عمومها إلى الصراع بين الليل / النهار ، الخير / الشر ، الحق / الباطل .

المبحث الثالث : اللون و رؤية الإنسان :

اتفق الشعراء على تشبيه الممدوح فيحمل اللون الأبيض دلالة دينية ترمز للخير فقد كان العرب يعظمون ملوكهم وأصحاب النفوذ لدرجة العبادة ، فيصبح الممدوح كالقمر .

كذلك اللون الأصفر ، والأبيض عند المرأة ، عمل دلالة دينية ترمز للخير والنماء / إذا المرأة نظير في نظائر الشمس الآلهة .

ويرمز اللون الأبيض في شعر عنترة وهو من أغرب اللون ، إلى القيم والفضائل العليا بينما يرمز اللون الأسود إلى الألم والفراق والحسرة .واللون الأبيض لون الشيب يرمز إلى زوال متاع الحياة والضعف والوهن واقتراب الموت .

الفصل الرابع : مستوى التشكيل الإيقاعي :

لقد خطا الشاعر الجاهلي بموسيقى الشعر ، خطوات واسعة ، مستثمراً الطاقات اللونية ، في وجود موسيقى يعكس الحالة النفسية الشعورية ، فتتجسد الصورة اللونية حية ، تمثل جمال الجرس الموسيقى في البيت الشعري .

المراجـــع

- ابن الأبرص ،عبيد،(١٤١٤هـ) **الديوان** ، (ط١)،شرح أشرف أحمد عدرة، بيروت ،دار الكتاب العربي

- ابن ثابت ،حسان ،(١٩٧٤)**الديوان**،تحقيق سيد حنفي، مصر،الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- ابن السلكة، السليك، (١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م)**الديوان**، (ط١)، شرح سعدي الضناوي ، بيروت ،دار الكتاب العربي .

- ابن الطفيل ،عامر،(١٩٦٣م)**الديوان** ، تحقيق كرم البستاني ، بيروت، دار صادر.

- ابن قتيبة (١٩٨٤)، **الشعر والشعراء**،(ط١) ،بيروت،دار إحياء العلوم.

- ابن كثير، إسماعيل بن عمرو ، (١٤٠١هـ)، **تفسير ابن كثير** ،بيروت ، دار الفكر .

- ابن منظور ،محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ،(١٤٠١هـ)، لسان العرب،(ط١)، بيروت ، دار صادر.

- إبراهيم ،عبد الحميد(١٩٨٩)، **قاموس الألوان عند العرب**،مصر، الهيئة

المصرية العامة للكتاب.

- إسماعيل ،عز الدين(د.ت) **التفسير النفسي للأدب** ، (ط)٤دار غريب، القاهرة.

- امرؤ القيس (٢٠٠٤)، **الديوان**،شرح وتعليق محمد الاسكندراني،نهاد رزوق،بيروت، دار الكتاب العربي.

- أبو داود ،سليمان بن الأشعث السجستاني ،**سنن أبو داود**،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ،دار الفكر .

- محمد أبو موسى ،(١٤٨١هـ، ١٩٩٧م)**التصوير البياني** ، ط٤، مكتبة وهبة ، مصر.

- أحمد، عبد الفتَّاح، (١٩٨٧م)**المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي** ، بيروت، دار المناهل.

- الأسدي ، بشر بن أبي خازم (١٩٩٤)، **الديوان**،(ط١)،شرح مجيد طراد،بيروت، دار الكتاب العربي.

- الأصفهاني ،أبو الفرج، **الأغاني** ، (ط٢) ، تحقيق سمير جابر بيروت،دار الفكر.

- الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (١٩٥٥م)،**الأصمعيات**،تحقيق عبد السلام هارون و أحمد شاكر، مصر،دار المعارف.

- الأعشى، ميمون بن قيس،(٢٠٠٥) **الديوان**،(ط١)،شرح عبد الرحمن المصطاوي، بيروت ، دار المعرفة.

- الأنباري، أبو بكر،(١٤٢٤هـ=٢٠٠٤م)، **شرح القصائد السبع الطوال**، (ط١)،تعليق بركات يوسف هبود، بيروت ، المكتبة العصرية .

- أنس الوجود ،ثناء،(٢٠٠٠م)**دراسات تحليلية في الشعر القديم** ، القاهرة ،دار قباء للطباعة والنشر.

- بدوي ، عبده ، (٢٠٠٠م)**الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي**، مصر ، دار قباء .

- بلاشير، (١٩٩٨)،ترجمة إبراهيم الكيلاني، **تاريخ الأدب العربي** ، دمشق، دار الفكر.

- بنوا ،لوك ، **إشارات رموز أساطير** ، تعريب فايز ، بيروت ،عويدات للنشر

- تأبّط شراً(٢٠٠٣)**الديوان** ،(ط١)،شرح عبد الرحمن المصطاوي، بيروت، دار المعرفة.

(١٩٨٤م)**الديوان** ، (ط١)،جمع وتحقيق علي ذو الفقار شاكر ، لبنان ، درا الغرب الإسلامي .

- الترمذي ،أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، **الجامع الصحيح** ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي .

- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك محمد بن إسماعيل،(١٩٦٥)**ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** ،(ط١)، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم، ، مصر، دار المعارف.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن
بحر،(١٣٨٦هـ=١٩٦٦م)،**الحيوان**،(ط٢)،تحقيق عبد السلام هارون

- الجرجاني ،عبد القاهر، (١٩٩١م)**أسرار البلاغة** ، تعليق محمود شاكر ، جدة، دار المدني

- الجمحي، محمد بن سلام، (١٩٧٤م)**طبقات فحول الشعراء** ، شرح محمود شاكر ، القاهرة، مطبعة المدني.

- جون كوين (٢٠٠٠م) **النظرية الشعرية**،(ط٤)ترجمة أحمد درويش، دارغريب، القاهرة.

- الحميداني، حميد،(١٩٩٧م)**الواقعي والخيالي في الشعر العربي القديم** ، (ط١) ، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة.

- الخطيب ،محمد،(٢٠٠٥م)**المجتمع العربي القديم** ،(ط١)، سوريا، دار علاء الدين .

- خليف ،يوسف، (١٩٨١)**دراسات في الشعر الجاهلي** ، القاهرة، دار غريب

- **الشعراء والصعاليك في العصر الجاهلي**، مصر، دار غريب

- الخنساء، تماضر، (١٤٢٥، ٢٠٠٥)**الديوان**، شرح أبي العباس ثعلب،تقديم فايز محمد، ،بيروت دار الكتاب العربي.

- الخولي، محمد علي، **الأصوات اللغوية**(١٩٩٠)،عمان، دار الفلاح.

- الخويسكي ،زين (١٩٩٢)**معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم** (ط١) ، بيروت، مكتبة لبنان.

- الداية ،فايز، **علم الدلالة العربي** ، بيروت ،دار الفكر.

- الذبياني،النابغة(٢٠٠٥)، **الديوان** ،(ط٢)،شرح حمدو طماس،بيروت، دار المعرفة.

- ربابعة ، موسى (٢٠٠٣)**الشعر الجاهلي مقارنات نصيَّة** ، الأردن دار الكندي .

- رياض ،عبدالفتاح ،(١٩٧٤)**التكوين في الفنون التشكيلية**،(ط١)،القاهرة، دار النهضة العربية.

- زهير (١٩٩١م)**الديوان**، شرح أبي ثعلب ، تقديم حنا الحتي ، بيروت، دار الكتاب العربي.
  - (١٩٩٣)،**الديوان**، (ط ١)، علي إبراهيم،بيروت،عزالدين للطباعة.

- الزوزني ،أبو عبد الله الحسين بن أحمد(٢٠٠٣)، **شرح المعلَّقات**

السبع،(ط٦) ،بيروت، دار الكتاب العربي.

- **الزيتوني** ، عبد الغني أحمد ، (٢٠٠١م)**الإنسان في الشعر الجاهلي** ،(ط١)، الإمارات ،مركز رايد للتراث .

- السريحي ، سعيد ، (١٩٩٦)**حجاب العادة** ، (ط١)، الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي .

- السعران ،محمود، (د.ت) **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي** ، بيروت،دار النهضة العربية .

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** ، (ط١)تحقيق فؤاد علي منصور ، بيروت، دار الكتب العلمية .

- شكري ،فايزة أنور (٢٠٠٤م)، **فلسفة الجمال والفن** ، مصر، دار المعرفة الجامعية .

- الشنتمري، أبو الحجاج يوسف بن سليمان (١٩٩٢) ، **أشعار الشعراء الستة الجاهليين** ، شرح محمد عبد المنعم خفاجي،بيروت،دار الجيل.

(٢٠٠١)، **شرح حماسة أبي تمام** ،(ط١)، تحقيق علي المفضل حمودان ،دمشق ، دار الفكر.

- شوقي ،إسماعيل(٢٠٠٦)، **التصميم عناصره وأسسه في الفن التشكيلي**،(ط٣)،التوزيع مصر، مكتبة زهراء الشرق.

- صالح، صلاح ؛و جغام، ناجح؛و عطوان، حسان ؛ و سلمان ،عبد الرسول ؛وعطار،عنايت؛و عبد الحافظ ،مجدي؛و بسطاويسي،رمضان ،(١٩٩٧)**في الشعريةالبصرية** ، منشورات دائرة الثقافة والإعلام ، الشارقة

- الضبي، المفضل، **المفضليات**، تحقيق وشرح أحمد شاكر، عبد السلام هارون (١٣٨٣م)،(ط٦)، بيروت

- ضناوي ،سعدي،(١٩٩٣م)**أثر الصحراء في العصر الجاهلي** ،(ط١) ، بيروت، دار الفكر اللبناني .

- ضيف، شوقي، **العصر الجاهلي** ،(ط٨) ، مصر، دار المعارف .

- الطائي،حاتم ، (١٤٢٣، ٢٠٠٢)**الديوان** ، (ط٣)،شرح أبي صالح يحي بن مدرك الطائي ، تقديم رضا الحتي ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

- طرفة بن العبد ، (٢٠٠٤م)،**الديوان** ، شرح سعدي الضناوي ، بيروت، دار الكتاب العربي

- ظاظا ،حسن،(١٩٧٦)**كلام العرب ، من قضايا اللغة العربية** ، بيروت، دار النهضة العربية

- العامري ، لبيد بن ربيعة(١٩٩٧)، **الديوان**،(ط١)،شرح عمر فاروق الطباع،بيروت، شركة دار الأرقم بم أبي الأرقم.

- عبد الرحمن ،إبراهيم، **الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية**، مصر،الشركة المصرية الغربية للنشر_لونجمان.

- عبد العزيز، محمد حسن،(١٩٩١)**مدخل إلى علم اللغة** ، دار النمر للطباعة

- عروة بن الورد ، (١٩٩٧)، **الديوان** ، شرح ابن السكيت، تقديم راجي الأسمر ،(ط٢) ، بيروت ،دار الكتاب العربي

- عز الدين ،حسن البنا،(١٩٨٨م)**شعرية الحرب عند العرب قبل الإسلام** ،(ط٢) ، الرياض، دار المفردات.

- العسكري، أبو هلال،(١٩٨٨)**جمهرة الأمثال** ، (ط٢)،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، عبد الحميد قطاش، بيروت، دار الفكر.

- عصفور ،جابر ،(١٩٧٣)**الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي** ، مصر ، دار المعارف .

- عمر ،أحمد مختار (١٩٩٧) ، **اللغة واللون** ، (ط٢)، القاهرة ،عالم الكتب.

- عنترة بن شداد ، **الديوان** ،(١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م)شرح الخطيب التبريزي، تقديم ، مجيد طراد ، بيروت، دار الكتاب العربي .

د.ت الديوان ، تحقيق عبد المنعم شلبي، المكتبة التجارية الكبرى .

- الفيصل ،عبد العزيز بن محمد،(١٤١١هـ)**شعر بني عبس في الجاهلية والإسلام حتى آخر العصر الأموي** ،(ط١) ، الرياض، مطابع الفرزدق.

- القادري ،أبو سعد يعقوب،(١٩٩٧) **التعبير في الرؤيا**،(ط١)،دراسة وتحقيق فهمي سعد،بيروت، عالم الكتب.

- القالي، أبو علي،**الأمالي**، تحقيق محمد عبد الجواد، مصر، مطبعة الأميرية.

- القيرواني ،ابن رشيق، **العمدة**،(ط١)،بيروت ، دار الكتب العلمية .

- كاظم ، نادر ،(٢٠٠٤)**تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيِّل العربي الوسيط** ،(ط١)، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

- كولبير، غراهام،(١٩٨٣)**الفن والشعور الإبداعي** ، ترجمة منير الأصبحي، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي .

- لبيد بن ربيعة ،(١٤١٧ هـ ١٩٩٧)**الديوان**، ط١، شرح عمر فاروق

الطباع ، بيروت،دار الأرقم .

- المبرد، (١٩٣٧) ،**الكامل** ،تحقيق زكي مبارك ، القاهرة ، مطبعة البابي الحلبي.

- المناعي،مبروك ،(٢٠٠٤م) **الشعر والسحر**،ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

- المنصوري ، جريدي ،(٢٠٠٢م)**النار في الشعر وطقوس الثقافة** ، الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي .

- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، (د . ت)**مجمع الأمثال** ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت، دار المعرفة.

- ناصف ،مصطفى،(١٩٩١)، **خصام مع النقاد**، جدة، النادي الأدبي.

- نصر ،عاطف جودة،(١٩٧٧)**الخيال مفهوماته ووظائفه** ، مصر، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان.

- النوري ،قيس(١٩٨١)، **الأساطير وعلم الأجناس**،بغداد، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر.

- نوفل، يوسف ،(١٩٨٥)**الصورة الشعرية واستيحاء الألوان** ، دار

الاتحاد العربي .

- الهاشمي، أحمد، **جواهر البلاغة**(د.ت)، بيروت، إحياء التراث العربي.

- النويري ،شهاب الدين،(١٩٣٢م)**نهاية الأرب**، القاهرة، دار الكتب المصرية.

- اليشكري، الحارث ابن حلزة(١٩٩١)، **الديوان**،(ط١) ،بيروت، دار الكتاب العربي.

- ويلك، رنيه ؛ و وارن، أوستن، تعريب.عادل سلامة، (١٩٩٢)**نظرية الأدب**، الرياض، دار المريخ.

- اليوسف ،يوسف،(١٩٨٣م)**مقالات في الشعر الجاهلي** ،(ط٣) ، لبنان، دار الحقائق.

<u>الدوريات والمجلات العلمية:</u>

- إيجلنون، ألبيري، الظاهراتية والهيرمينوطيقا ونظرية التلقي ، ترجمة محمد خطابي ، **مجلة علامات** ، ع(٣)

- الخريشة ،خلف ،(١٤٢٣هـ)إيقاع اللون في شعر بشر بن أبي خازم الأسدي ، **مجلة جامعة أم القرى** ، ج ١٥ ، ع (٢٥).

- دياب ،محمد حافظ ،(١٩٨٥م)جماليات اللون في القصيدة العربية ، **مجلة فصول** ، ج ٥ ، ع (٢).

- عالم ، إسماعيل أحمد ، (١٩٨٨م)من مواطن ورود النخلة في الشعر الجاهلي ، **مجلة بحوث جامعة حلب** ، العدد (١٢) ، سوريا: مطبعة جامعة حلب .

- عودة ، خليل ، المستوى الدلالي للون في شعر عنترة ، **مجلّة الدارة،** السنة الثانية والعشرون ، العدد (٢).

- القرشي، سليمان، ١٤٢٤هـ الإيقاع في التجربة الأندلسية، **مجلة جذور**، العدد(١٣).

Abstract

Thesis Title: the levels of the rhetorical variety in the Pre-Islamic Poetry :(A technical study).

Researcher Name: Somayah Abdurrahim Mohammad Al-Hafiz Al-Elmy.

Research Purpose :

١. Handling the old Pre-Islamic Poetry through a modern critical perspective.
٢. Showing the abstract patterns and rhetorical symbolism which forms the Pre-Islamic Poem.
٣. Identifying the levels of technical morphology of the figures of speech in the Pre-Islamic Poetry.
٤. Knowing the semantic and cognitive dimensions of the rhetorical patterns in the Pre-Islamic Poetry.

Research Limitations:

Pre-Islamic Poetry

Research Approach

Integrated approach benefits from such approaches as technical, psychological, historical, aesthetic approach and other related approaches like the statistical one**.**

Research Results

١. Rhetoric in the Pre-Islamic Poem has a lot of levels: abstract, imagery, symbolic and rhythmic.
٢. The Pre-Islamic Poet used the figures of speech within the frame of simile, metaphor, and metonymy.
٣. In the central rhetoric variety, rhetoric dominates the feelings of the poet. It represents the center from which the meaning of the literary text stems.
٤. The meaning of the image differs from one figures of speech to another according to its position in the context.
٥. The contrast between the figures of speech indicates the contrasted pairs which the poet feels such as the contrast between safety\ fear.

Recommendations:
١. Study of the semantic level of the figures of speech from a social perspective
٢. Study of the figures of speech according to the environment in which the Pre-Islamic poet

lives. So the poetry of mountain environment differs from the poetry of coastal environment. and the poetry of the city differs from the poetry of desert

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
TAIBAH UNIVERSITY
Faculty of Arts of Humanities
Department :Arabic language

THE LEVELS OF THE RHETORICAL VARIETY IN THE PRE-ISLAMIC POETY (A TECHNICAL STUDY)

A dissertation Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Master Degree in Arabic

by
Somaya Abdurrhim Mohammade AL- Hafiz AL-Elmy

Supervisor(s)
Dr.Mohmmade Husine Hammade
Professor of old Arabic literature in Omm AL-Qura(in the past)
Maine Adviser

AND
Dr.Asmaa A. Ahmade
Associate Professor of Faculty of Arts of Humanities
Adviser

(١٤٣٠ – ٢٠٠٩)